حياة القدّيسة تريزا ليسوع الطفل

القديسة تريزا

ليسوع الطفل

سيرة نفس

« زهيرة صغيرة بيضاء »
نقلتها الى العربية وتقدمها

رسالة
القديسة تريزا ليسوع الطفل

الطبعة الثالثة منقحة

بازيليك القديسة تريزا ليسوع الطفل ـ شبرا ـ القاهرة

إهـــداء

إلى القديسة تريزا ليسوع الطفل التى نحتفل بعيدها المئوى والتى ملأت الآفاق بمعجزاتها .

وإلى جميع الأبـاء الـذيـن جـاهـدوا فى خـدمة معبدها ، وإلى محبيها ومريديها ورواد كنيستها .

نـقـدم هـذه الـطبعة الثالثة من « سيرة نفس » حتى تشرق بالبركات والهدى على جميع قرائها

بازيليك القديسة تريزا
شـــبرا ــ القاهرة
١٨٧٣ / ١ / ٢
و١٩٩٠/٩/٨

مقدمة الطبعة الأولى

لقد طلب الكثيرون وأظهروا رغبتهم الشديدة فى معرفة حياة القديسة تريزا ليسوع الطفل ، ومعرفة طريقة سلوكها فى حياة النعمة وتدرجها فى حياة القداسة ، وارتقائها مطالع جبل الكمال ، ليتسنى لهم الاقتداء بها والسير على طريقها الصغير ، واستجلاء حقائق النعمة تحت نور حياتها اللامع .

انا لنغتبط إذ وفقنا الله تعالى إلى تلبية هذه الرغبة الصالحة واخرجنا ترجمة كتاب « تاريخ نفس » الذى خطته القديسة ببراعتها ، وحاولنا أن نكون أمناء على المعانى المقصودة والتى توجبها لغة الكتاب الأصلية ، وهى اللغة الفرنسية ، واجتهدنا قدر المستطاع أن يكون سهل العبارة ، متين المبنى ، ليجد فيه الخاص والعام لذة ومتعة .

ونأمل أن يكون عملنا هذا تمهيدا صالحاً لما نرجوه من تقدم وفلاح ، وأساسا متيناً لما ننشد من نفع وصلاح .

ان القديسة تريزا الصغيرة فى غنى أن تعرف وقد ذاع صيتها فى العالم بأسره ، ليس فقط بين الشعب الكاثوليكى ، بل تعداه إلى غيره ، وذلك بفضل ما تظهره القديسة من عجائب رائعة تقوم دليلا قاطعا وحجة ناطقة على سمو قداستها وعظم قدرها . لنا أن نقول فى تفسير ذلك أن القديسة تريزا كانت أمينة فى الوفاء بالعهد الذى قطعته على نفسها قبل مغادرة هذه الدنيا الفانية ، حين قالت : « أريد أن أصرف سمائى فى عمل الخير على الأرض » . غير أنه وان كان اسمها معلوما لكل أحد ، فإن الكثيرين من الكاثوليك أنفسهم يجهلون تفاصيل سيرتها وما انطوت عليه من سمو القداسة وعلو الفضائل ، لذا فقد عولنا على ترجمة تاريخ حياتها « الساروفيمية » لعلنا بذلك نؤدى لقراء اللغة العربية خدمة نافعة ، وللقديسة تكريما لائقا .

لقد امتازت حياة القديسة تريزا بالبساطة والبعد عن التقشفات الجسيمة

والامانات المضنية ، ومع ذلك لم تأت إلى العالم بتعليم مستحدث ، ولا هى أرشدتنا إلى سبيل جديد فى بابه ، بل أن سيرتها التى نحن مدعوون إلى سلوكها جاءت مطابقة لتعاليم السيد المسيح ، وربما للطريق الذى أمرنا بالسير فيه ، حتى أن رؤساء الكنيسة لقبوها « برسول روح الطفولة » التى هى خلاصة تعاليم المعلم الإلهى .

ومما يزيد هذه التسمية صحة وانطباقاً ،أن القديسة تريزا أتت إلى العالم فى عصر مفعم ببدع الظلال ، وبعيد عن روح الله ، فإن الخالق الرحيم أوفدها إلى أهل هذا الجيل لتدعوهم إلى التشبه بالأطفال فى علاقتهم به تعالى . لنضع ثقتنا فى رحمة الله ، ونحفظ له فى قلوبنا حباً جماً ، مع التسليم المطلق لإرادته القدوسة ، وهذه المبادىء الثلاثة : الثقة التامة ، والمحبة الحارة ، والانقياد المطلق ، هى التى امتازت بها سيرة القديسة تريزا ، كما أنها خلاصة فضائل الطفولة الروحية .

فإذا كنا اليوم نكرم تلك القديسة بعد أن تبينت لنا فضائلها ، وظهرت عجائبها ، فها نبذة مما كتبه عنها أحد الرهبان الأفاضل فى عام ١٨٩٨ ، أى بعد وفاتها بسنة واحدة :

« إنى على يقين تام من أن ضياء تلك النجمة الصغيرة فى سماء بيعة الله سوف يزداد تألقاً يوما بعد يوم . انها الآن لا تزال نجمة صبح صغيرة ، محاطة بسحابة ضئيلة ، غير أنه سيأتى يوم ينقشع فيه القناع ، فتملأ هذه النجمة بضيائها بيت الرب » .

« فلتزر إذن الآن كل الذين فى البيت » (متى ٥ : ١٥) ولتكن عربون الرجاء ومرشد الخلاص للعالم بأسره ، فيرتل الجميع إلى الله مع داود النبى هاتفين : « أسست لك عزة بأفواه الأطفال والرضع ، من أجل أضدادك ، لينتهى العدو والمنتقم » ، (مز ٨ : ٣) .

رسالة القديسة تريزا
ليسوع الطفل

مقدمة الطبعة الثانية

قامت « رسالة القديسة تريزا » لأول مرة فى مصر فى سنة ١٩٦٤ بنشر ترجمة حياة القديسة تريزا تحت عنوان « تاريخ نفس » ، مترجمة إلى اللغة العربية من الأصل الذى سطرته القديسة تريزا ليسوع الطفل بخط يدها .

ولما نفذت هذه الطبعة الأولى بعد سنة ونصف سنة من تاريخ نشرها ، طلب إلينا الكثيرون من أصدقاء القديسة تريزا إعادة طبعها ، ولكننا كنا نسعى فى ذلك الحين إلى نشر مجلد ثان يتضمن مؤلفات القديسة تريزا الأخرى ، وقد نشرناه فعلا فى سنة ١٩٦٦ بعنوان « الكلمات الأخيرة » ، ثم قدمنا فى كتيب صغير الحجم بعض خواطر وكلمات القديسة تريزا .

هذا ولما كان اليوبيل المئوى لمولد القديسة تريزا قد حل ، فقد رأينا أنه يجدر بنا ، بل يجب علينا أن نعد طبعة ثانية من ترجمة « حياة القديسة تريزا » التى ظهرت الطبعة الأولى منها فى سنة ١٩٦٤ .

وها نحن نقدم لأصدقاء القديسة تريزا هذه الطبعة الجديدة ، بعد مراجعتها وتنقيحها .

اننا نعتبرها « طبعة اليوبيل المئوى » ، ونتمنى لها أن تنال نفس الرواج والقبول اللذين أحرزتها الطبعة الأولى ، وأن يكون لها نفس الثمار الروحية ، متوسلين الى القديسة تريزا أن تبارك وتكافىء جميع الذين يرغبون فى الاستفادة من كتاباتها ، ومما تضمنته من روحانية مثبتة تصلح لعقليتنا الشرقية .

رسالة القديسة تريزا
ليسوع الطفل
٢ يناير ١٩٧٣ ــ الذكرى
المئوية لمولد القديسة تريزا

مقدمة الطبعة الثالثة

فى سنة ١٩٧٣ ، قامت « رسالة القديسة تريزا » بنشر الطبعة الثانية « لتاريخ نفس » أى حياة القديسة تريزا ليسوع الطفل ، التى دونتها بخط يدها ، وكان ذلك بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لمولدها .

وفى سنة ١٩٨٩ ، بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لارتدائها الثوب الكرملى ، قمنا كذلك بطبع الطبعة الثانية « لكلمات القديسة تريزا » .

والآن يسعدنا بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لتقديمها النذور الرهبانية ، ان نعيد طبع حياة القديسة تريزا « تاريخ نفس » فى الطبعة الثالثة .

ونعتقد أنه فى مدة هذه السنوات الطويلة قد استفاد القارىء العربى الاستفادة الروحية المرجوة من خلال اطلاعه على ترجمة حياة القديسة تريزا ، وكلماتها ، مما جعله يزداد تعمقاً وحباً وإعجابا بهذه القديسة الصغيرة ، الذى كان فى كثير من الأحيان المؤمن بحبها فى الماضى ، يحبها بدون المعرفة الكاملة لها .

لذلك ، ذكرنا أن ترجمة حياة القديسة تريزا باللغة العربية كانت فرصة للتعمق فى معرفة هذه القديسة وازدياد الحب لها .

إذا لا غرابة فى أن القديسة تريزا قد بينت لنا عن طريق تدوين حياتها الأسلوب العملى الذى وصل بها إلى قمة القداسة ، وهو الحب اللانهائى ، والثقة الكاملة .

وبالطبع هذا الأسلوب نابع من صميم تعاليم الانجيل ، هداها إليه الله لكى تطبعه فى نفوس محبيها ، كما هو راسخ ومتأصل فى نفسها ، وكما علمنا ذلك السيد المسيح له المجد عندما دعانا أن ندعو الله : « الآب السماوى » .

أخيراً نرجو الله ، ونتمنى لهذه الطبعة الجديدة نفس النجاح والرواج للطبعات السابقة ، حتى تزداد المعرفة للقديسة الصغيرة ، و يزداد حب القارىء العربى لها و يزداد اتحاده بالله ، وهذا هو الهدف المرجو والمقصود منه بنشر هذه التعاليم للقديسة تريزا .

رسالة القديسة تريزا ليسوع الطفل

٨ سبتمبر سنة ١٩٩٠

الذكرى المئوية الأولى لتقديم النذور الرهبانية

تمهيد

تتألف ترجمة حياة القديسة تريزا ليسوع الطفل من ثلاثة أجزاء : الجزء الأول (من الفصل الأول إلى الثامن) كتبته القديسة فى سنة ١٨٩٥ بناء على رغبة شقيقتها « بولين » التى تقدمتها إلى رهبنة الكرمل ، حيث اتخذت اسم « اغنيس ليسوع » ، واليها توجه القديسة الخطاب .

أما الجزء الثانى (الفصلان التاسع والعاشر) ، فقد كتبته القديسة فى سنة ١٨٩٧ تلبية لطلب الأم « مارى دى غنزاغ » ، رئيسة الدير ، التى خلفت الأم « أغنيس ليسوع) فى هذه الوظيفة ، واليها توجه القديسة هذا الجزء الثانى .

والجزء الثالث (الفصل الحادى عشر) كتبته القديسة بناء على طلب شقيقتها الكبرى « مارى » ــ « الأخت مارى للقلب المقدس » .

أخيرا ، الفصل الثانى عشر ، وهو الفصل الأخير فى ترجمة حياة القديسة ، انشأته الراهبات الكرمليات اللاتى شهدن فضائلها وحضرن موتها .

* * *

قبل البدء فى شرح سيرة القديسة تريزا ، يجمل بنا أن نأتى فى لمحة سريعة على تاريخ أسرتها ، وعلى وصف البيئة التى نشأت فيها .

إن والد القديسة يدعى « لويس جوزيف اسننسلاس مارتان » ، ولد فى مدينة « بوردو » فى ٢٢ أغسطس سنة ١٨٢٣ ، من أبوين اشتهرا بالاستقامة والصلاح . أما أمها فتدعى « زيلى جيران » ، ولدت بمقاطعة « أورن » بفرنسا ، وقد عرفت عائلتها بتلك المنطقة بكونها من أتقى العائلات وأوفرهم صلاحاً ، ومما يذكر بالثناء عن أجدادها أنهم جعلوا منزلهم مأوى لرجال الأكليروس فى زمن الثورة الفرنسية .

ومن غريب الاتفاق أن أبوى القديسة قبل أن يتعارفا ، كان كل منهما يسعى لاعتناق الحياة الرهبانية . فوالدها ترك مدينة « النسون » ، التى كان يعيش فيها مع أخوته وأخواته ، مصطحباً عصاه ومتوجهاً نحو دير « القديس برناردوس الكبير » بسويسرا . فتجشم مشقة السفر الطويل مشياً على الأقدام طمعاً فى الالتحاق بذلك الدير المبارك . فلما وصل اليه ، طلب مقابلة الرئيس الذى أخذ فى سؤاله عن أصله وبغيته ، فأفضى اليه لويس برغبته ، وعلى محياه علائم الخشوع والاخلاص . عندئذ سأله الراهب عما إذا كان قد أتم دراسة اللغة اللاتينية ، ولما كان الجواب بالنفى ، تأسف الرئيس لعدم إمكانية إجابة طلبه ، وأوصاه بالعودة إلى بلده والإقبال على هذه الدراسة واستكمالها ، فإذا ما تم ذلك ، ارتفع كل عائق فى سبيل قبوله بالدير .

عاد الشاب أدراجه وفى قلبه كآبة عميقة لعدم تحقيق أمنيته العزيزة .

أما والدة القديسة فتقدمت يوما بعزم أكيد إلى رئيسة المستشفيات التى تديرها « بنات المحبة » ــ (راهبات القديس منصور دى بول) ــ والتمست ، بحضور والدتها ، من رئيسة المستشفى قبولها فى عداد الراهبات . غير أن هذه الأخيرة أجابتها بالهام من الروح القدس أن دعوتها لم تكن فى الرهبنة . فعادت زيلى ، وبالرغم من الكآبة التى حلت بها لدى سماعها هذا الجواب ، سلمت أمرها لمشيئة الله ، وأخذت فى التضرع إليه كى يوفقها إلى قرين صالح ، ويرزقها أولاداً كثيرين لتبادر بتخصيصهم لخدمته تعالى .

وكان التدبير الإلهى يرمى إلى اتحاد هذين الشخصين الصالحين ، فاحتفل بعقد قرانهما المبارك فى كنيسة « العذراء سيدة النسون » فى ١٣ يوليو سنة ١٨٥٨ .

وقد كانت أمنية الزوجين هى أن تثمر زيجتها ثماراً كثيرة لتقديمها إلى الله ، مرددين فى ذلك صلاة طوبيا البار : « أنك تعلم ، يارب ، أنى ما اتخذت لى عروساً على الأرض الا رغبة فى نسل يبارك اسمك إلى دهر الدهور » (١) .

(١) سفر طوبيا ، ٨ : ٩ .

فاستجاب الله لدعائها ورزقها تسعة أولاد ، أربعة منهم عاشوا أشهراً قلائل ، وشاء الله بعدها أن يضمهم إلى عداد ملائكته الأبرار، أما الخمسة الباقون ، وكلهم من الإناث ، فقد التحق منهن بدير الكرمل ، والخامسة برهبنة « الزيارة » .

وقد أجمع الأبوان على تكريس جميع أولادهما للعذراء المجيدة . وهاك بيان أسمائهم :

مارى لويز ــ التحقت بدير الكرمليات وسميت « الأخت مارى للقب الأقدس » .

مارى بولين ــ التحقت بدير الكرمليات وسميت « الأخت أغنيس ليسوع » .

مارى ليونى ــ التحقت بدير « الزيارة » وسميت « الأخت فرنسواز تريز » .

مارى الين ــ فارقت العالم ولها من العمر أربع سنوات ونصف سنة .

مارى جوزيف لويس ــ توفى وهو فى الشهر الخامس من عمره .

مارى جوزيف يوحنا المعمدان ــ توفى وهو فى الشهر التاسع من عمره .

مارى سيلين ــ التحقت بدير الكرمليات وسميت « الأخت مارى جنفييف تريز » .

مارى ميلانى تريز ــ توفيت فى الشهر الثالث لولادتها .

مارى فرنسواز تريز ــ وهى الإبنة التاسعة والأخيرة لهذه الأسرة المباركة . وقد ميزها الله على اخواتها بمثل الامتياز الذى أعطى للجوقة التاسعة من صفوف الملائكة (وهى جوقة السارافيم) .

ومما يذكر عن أبوى القديسة أنهما تضرعا إلى الله بشفاعة القديس يوسف لكى يرزقهما رسولا صغيرا . فرزقها بعد الإبنة الرابعة مولوداً ذكرا ، أطلق عليه اسم « مارى جوزيف لويس » ، غير أن الله اختاره إلى جواره وهو فى الشهر الثامن من عمره .

عقب ذلك تضاعفت الصلوات والابتهالات لكى ينعم الله عليهما بمولود آخر و يصير يوما ما كاهنا ورسولا ، فرزقا ولدا ثانيا ، أطلق عليه إسم « مارى جوز يف يوحنا المعمدان » ، غير أن هذا الأخير لم يتعد الشهر التاسع وعاد إلى بار يه .

وقد كانت حياة هذين الوالدين حياة مسيحية حقة ، مما جعل الأب سانتانا ، صاحب الترجمة البرتغالية لكتاب « سيرة نفس » (وهو كتاب القديسة تر يزا الذى خطته ببراعتها) ، يكتب فى وصف والدى القديسة تر يزا ما معناه : « لوالدى الأخت تر يزا ليسوع الطفل ذكرى خالدة ومقدسة ، هى خير مثال يقتدى به »(٢) .

كيف لا يكون ذلك وقد واظبا على حضور القداس وتناول جسد الرب يوميا ؟ كما أنهما حافظا على شرائع الله والكنيسة بكل دقة ، فكانت تتجلى فى منزلهما كافة الفضائل المسيحية ، كما أن رغد العيش لم يكن ليعوقهما فى شىء عن اتباع التقشفات والقيام بالواجبات الدينية على أكمل وجه . بل ان جانبا كبيرا من ثروتهما كان مخصصا لمساعدة الفقير ، ولتعضيد جمعية « نشر الإيمان » فضلا عن أنهما كانا يتوليان شخصياً تخفيف آلام المرضى ومؤازرة البؤساء ، فمن ذلك أن السيد مارتان أبصر يوما فى إحدى محطات السكة الحديدية فقيراً يقاسى ألم الجوع ، وفى حاجة إلى مبلغ يكفى لشراء تذكرة للعودة إلى بلده ، فتأثر السيد مارتان لهذا المشهد ، وما كان منه إلا أن نزع قبعته عن رأسه ، وألقى فيها قطعة من النقود ، ثم شرع فى استجداء الجمهور الموجود بالمحطة ، إلى أن جمع مبلغاً عن طلب الفقير ، فدفعه اليه وتركه بعد أن زوده بإرشاد الذى خفف عنه بلواه .

هذا وكان المولى الكريم يكافىء هذين الوالدين على مروءتها ، بأن بارك مشار يعهما الزمنية ، فقد كان السيد مارتان يشتغل بالصياغة ، ثم استطاع أن

---

(٢) • وفعلا تتخذ الآن بالفاتيكان الإجراءات اللازمة لإعلان ، يوما ما ، قداسة أبوى القديسة تر يزا .

يتركها فى سنة ١٨٧١ ، وأن يسهم فى ادارة مصنع الدنتلا ، الذى أسسته مدام مارتان بمدينة « ألنسون » ، وقد لاقى مشروعها نجاحا كبيرا .

* * *

ولدت تر يزا الصغيرة فى الثانى من شهر يناير سنة ١٨٧٣ عند منتصف الليل . فأحدث ميلادها فرحا واغتباطها فى الأسرة . ولم تشأ ملائكة الميلاد الا أن تظهر هى أيضاً ابتهاجا وتقدم تهانيها فى تلك المناسبة السعيدة ، فسخرت لهذا الغرض طفلا فقيرا جاء فى ذلك اليوم نفسه وقرع الباب ، وقدم ورقة كتب عليها :

« ابتسمى واكبرى سر يعا ...
فكل شىء يدعوك إلى السعادة ...
ابتسمى لفجر حياتك البهى ...
راتعة بأرق الحب وأحن العناية ...
انك برعم تفتحت أكمامه ...
سيكون يوما وردة يفوح عبيرها » .

ولقد تمت نبؤة هذا الفتى الملائكية ، فما عتمت تر يزا الصغيرة أن أصبحت وردة حب عجيبة .

وفى الرابع من شهر يناير ، نالت سر العماد باحتفال عائلى فى كنيسة العذراء بمدينة « ألنسون » ، ودعيت « مارى فرنسواز تر يز » . وكانت شبينتها هى اختها الكبرى مارى . ثم أصيبت بمرض شديد كاد يؤدى بحياتها ، ولكنه تعالى منَّ عليها بالشفاء ، بعد أن قطعت والدتها كل رجاء من شفائها .

وما بلغت تر يزا الرابعة والنصف من عمرها حتى اختطف المنون أمها الفاضلة على أثر داء عضال . فقرر والدها السيد مارتان بعد ذلك أن يقطن مدينة « ليز يو » ، بالقرب من صهره السيد « جيران » ، ليتسنى لزوجة هذا الأخير الفاضلة التقية أن تسهر على تر بية أولئك اليتيمات .

ولقد جاء ما كتبه السيد جيران لإحدى بنات شقيقته الراهبة الكرملية شهادة ناطقة على شجاعة ذلك الوالد الصالح ، الذى قدم كل بناته لله بسخاء مدهش ــ قال :

« أرانى الله شجرة قديمة عليها خمس ثمرات جميلة قريبة النضوج ، وأمرنى فنقلتها وغرستها فى حديقتى . وتوالى مرور الطفل يسوع خمس مرات بهذه الشجرة ابان نضوج ثمراتها . فكانت الشجرة تنحنى بحب لاشارته وتلقى كل ثمرة بين يديه . فتمثل لى بذلك مشهد ابراهيم الخليل . فيا لسمو نفس هذا الرجل الصالح ! فكم نحن صغار بالنسبة اليه ! » .

توفر لتريزا الصغيرة أن تستقى فى بيت أبويها القدوات الصالحة والفضائل السامية ، فسهل عليها منذ نعومة أظافرها أن تتجاوب بأمانة مع النعم الإلهية ، وتمكنت وهى بعد فى الثالثة من عمرها ، أن لا ترفض له تعالى شيئاً ، ولذا سارت بخطوات سديدة سريعة فى طريقها إلى الكمال ، فحطمت كل قيود العالم وهى فى الخامسة عشرة ربيعاً من سنيها ، وانصرفت داخل أسوار دير الكرمل فى « ليزيو » إلى مناجاة حبيبها الالهى الطفل يسوع ، وتنفيذ رغائبه الالهية بكل دقة ونشاط ، منتظرة بثبات ورجاء وطيد ثمرة جهادها المقدس هذا . فتم فيها قول الكتاب : « مثل الزارع والحارث أقبل إلى الحكمة وانتظر بصبر ثمارها اللذيذة » (٣) .

ان سعى تريزا وثباتها فى طلب حقيقة مجهولة منسية من الجميع فى عصرنا هذا ، الذى تغلب فيه روح العالم على حب الله ، أثر فيه تعالى ، فنظر اليها بقلب حنون ، موجها اليها ما قاله للكنعانية : « عظيم إيمانك ، فليكن لك ما تريدين » (٤) . وهكذا انفتحت أمامها وأمام ألوف من النفوس هذه « الطريق الصغيرة » ، طريق الحب الإلهى ، ممهدة بخطواتها الثابتة ، مضاءة بمثالها الساطع ، فبدت كما كتب عنها أحد الرهبان « نجمة صغيرة ازداد بريقها يوما بعد يوم فى

---

(٣) سراخ ٦ : ١٩ ــ ٢٩ .

(٤) متى ، ١٥ : ٢٨ .

بيعة الله ، وما عتمت أن انقشعت عنها بعض الغيوم الصغيرة ، فملأت الكنيسة نورا وضياء » .

عرفت تريزا مقدما ما يخبئة لها المستقبل ، فتنبأت عن نفسها قائلة : « ان الرب سيصنع لأجلى آيات تفوق بما لا حد له رغائبي الكبيرة » . ثم أرفت منشدة مع العذراء الطاهرة تسبحة الشكر ، منوهة عن سر اختيارها العجيب ، قائلة : « ان العلى نظر إلى حقارتى وصغرى ففرت بى عينه » (٥) .

ولا ريب أنه تعالى اختار هذه القديسة الصغيرة لتكون لعصرنا هذا المتصلب المتعجرف خير قدوة للتسليم له تعالى ، وللحنان والتواضع ، ورمزا صحيحا لحياة روح الطفولة التى يشتاق إليها قلبه تعالى ، و يعد من يسلكها بالفوز بنعمة الأبدية .

ان الحبر الأعظم البابا « بنديكتوس الخامس عشر » وجه الأنظار إلى مثال القديسة الصغيرة وجز يل اهميته فقال :

« لقد اجتهدت إبنة الكرمل هذه أن تعرفنا طر يق الطفولة الروحية ، لتقنعنا بسهولة الوصول إلى الكمال المسيحى ، إذ ليس أسهل على الإنسان من أن يثق مستسلما استسلاماً تاماً إلى ذراعى الرب ، كما يستسلم الطفل إلى ذراعى أمه » .

وهكذا صرح أحد مرشدى النفوس قائلا : « ان نفوسا عديدة قد استحوز عليها روح الضجر والفتور فى سعيها إلى كمال سام ، وفاتها أن يسوع أخذ فيما مضى صبيا وأقامه فى وسط تلاميذه ، وأعلن قائلا : « ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الصبيان فلن تدخلوا ملكوت السموات ، فمن وضع نفسه مثل هذا الصبى فذاك هو العظيم فى ملكوت السموات (٦) .

وقد استحقت تريزا باتضاعها وصغرها هدا المجد السماوى ، وعرفت قبل وفاتها ، بنعمة خاصة من الله تعالى ، غاية رسالتها التى هيئتها لها العناية الإلهية ،

---

(٥) لوقا ، ١ : ٤٧ ــ ٤٨ .

(٦) متى ، ١٨ : ٣ ــ ٤ .

فأعلنت ذلك وهى على فراش الموت قائلة : « ان مهمتى ستبتدىء قريباً ، وهى أن أجعل الله محبوباً كما أحبه أنا ، فاقتاد النفوس إلى « طريق الصغير» .

ولم يمض زمن حتى اندفعت النفوس وراء القديسة الصغيرة العظيمة ، ناهجة طريقا فى جميع أنحاء المسكونة ، فكانت أشبه بكوكب سطعت قداسته بجذب إليه عددا من الكواكب ، وكحبة الخردل التى ما عتمت أن أصبحت شجرة كبيرة ، يستظل بظلها عدد وفير من النفوس ، فصدق فيها قول الحكيم : « أنا كساقية من نهر ، وكفتاة خرجت إلى الفردوس قلت أسقى جنتى وأروى روضتى ، فإذا بساقيتى قد صارت نهراً و بنهرى صار بحراً ! » (٧) .

(٧) ابن سيراخ ، ٢٤ : ٤١ — ٤٣ .

الفصـــل الأول

النغمات الأول من نشيد حب
ذكريات من عمر سنتين إلى أربع

(روتها القديسة تريزا بخط يدها
إلى شقيقتهـــا الأم أغـــنيس
ليسوع ــ « بولين »)

اليك يا أمى العزيزة جئت ، وأنا مدينة لك بأمومتين ، أفضى « بسيرة نفسى » . وقد بدا لى يوم سألتنيه أن ذلك يشتت قلبي ، غير أن يسوع أشعرنى بعدئذ أنى إذا أطعت ببساطة قلب سوف أرضيه . فها أنا أستهل عملى بترنيم ما أردده إلى الأبد ،ألا وهو « مراحم الرب . . » .

وقبل أن أمسك القلم ، جثوت أمام تمثال مريم (١) الذى به أظهرت ملكة السماء مراراً مالها نحونا من المحبة الأمومية الممتازة ، فتوسلت إليها أن ترشد يدى لئلا أخط مالا يكون فيه مرضاتها .

ثم فتحت الإنجيل فوقع نظرى على هذه الكلمات : « وصعد يسوع إلى الجبل ودعا الذين أرادهم » (٢) . هذا هو سر دعوتى وحياتى كلها ، وخصوصا سر النعم الخاصة التى نالتها نفسى ــ فإن يسوع لا يدعو المستحقين ، بل يدعو من ينال فى عينيه حظوة ، كما قال القديس بولس : « أصفح عمن أصفح عنه ، وأرحم من أرحم . فليس الأمر إذن لمن يشاء ، ولا لمن يسعى ، بل الله الذى يرحم » (٣) .

---

(١) « عذراء الابتسام » الموضوعة اليوم فوق ذخائر القديسة فى بيت أسرتها فى « ليزيو » .

(٢) مرقص ، ٣ : ١٣ . (٣) روم ٩ : ١٦ .

طالما تساءلت منذهلة عن سبب تفضيل نفوس على غيرها .. أراه تعالى يسبغ إحسانته خارجة العادة على أكبر الخطأة ، كالقديسين بولس وأغسطينوس والمجدلية وكثيرين غيرهم ، فيضطرهم نوعاً ما إلى قبول نعمه . وكنت أتعجب لدى قراءتى سير القديسين إذ أرى يسوع يدلل من المهد إلى اللحد بعض النفوس الممتازة ، و يذلل أمامها كل عقبة تعيقها عن الارتفاع إليه ، ولا يسمح أن يدنس ثوب معموديتها الناصع بخطيئة ما . وكنت أتساءل : لماذا يموت عدد وافر من المتوحشين التعساء وهم لم يسمعوا قط من يتلفظ باسم الله ؟ .

تنازل سيدى يسوع وأطلعنى على هذا السر يوم فتح أمام عينى سر الطبيعة ، فهمت إذ ذاك أن كل الأزهار التى خلقها عز وجل هى جميلة ، فبهاء الوردة و بياض الزنبقة لا يزيلان شيئاً من عبق البنفسجة الصغيرة ، أو من بساطة الأقحوانة البهية ... فهمت أنه لو كانت الأزهار كلها وروداً لأضاعت الطبيعة حليتها الربيعية ، وحرمت الحقول زينتها . فالأنفس هى حديقة الرب الحية ، فيها القديسون العظام الذين يشبهون الزنابق والورود ، وفيها من يشبهون الأقحوان والبنفسج ، والكل بنوعيه تقر به أعين العلى و يزداد رونقا وكمالا بقدر ما يكون ميله أكبر لتتميم إرادته القدوسة .

وقد أدركت أشياء أخرى ، وهى أن محبة السيد له المجد تتجلى بأبهى مظاهرها فى أكثر النفوس بساطة ، التى لا تقاوم نعمته أقل مقاومة ، كما تبدو فى أكثر النفوس سمواً ، و بالحقيقة بما أن التنازل هو من خواص الحب ، فلو كانت كل الأنفس شبيهة بأنفس القديسين الذين أضاءوا بنورهم الكنيسة ، لخيل إلينا أن الله لا يتنازل تنازلا كافيا بانحداره إليها . لكنه خلق الطفل الذى لا يعرف شيئاً ، ولا يسمع الا صراخاً ضعيفاً ، وخلق المتوحش المنكود الحظ ، الذى لا مرشد له سوى الناموس الطبيعى ، ومع ذلك تنازل وهبط إلى قلبيهما .

تلك هى زهور الحقول التى تفتنه ببساطتها ، و بانعطافه إليها يظهر لنا عظمته غير المتناهية . وكما أن الشمس تشرق على شجرة الأرز وعلى الأزهار الصغيرة على

السواء ، هكذا يشرق الشعاع الإلهى و ينير كل نفس من النفوس كبيرة كانت أم صغيرة ، فينال كل منها ما ينفعه ، كما يحدث فى الطبيعة ، حيث الفصول مرتبة ترتيباً يتيح لأكمام الأقحوانة الصغيرة أن تتفتح فى الوقت المقرر لها .

لا ريب يا أماه أنك تتسائلين مندهشة ماذا أقصد ، إذ أنى حتى الآن لم أفه بكلمة واحدة يفهم منها أنى أكتب « سيرة حياتى » . ولكن ، ألم تأمرينى أن أكتب كل ما يخطر ببالى دون تصنع ولا اجتهاد ؟ فما تقرئينه فى هذه الصفحات ليس هو مجرد تاريخ حياتى ، بل خواطرى فى النعم التى تفضل سيدى ومنحنى إياها .

وإنى لا أرانى فى طور من أطوار حياتى يسهل على فيه القاء نظرة عل الماضى . فإن نفسى قد نضجت فى بوتقة المحن الباطنية والخارجية ، وأنا الآن مثل زهرة بعد الزوبعة أرفع رأسى وأرى أنه قد تم فى قول المزمور : « الرب راعى فلا يعوزنى شىء .. فى مراعى خصبة يقيلنى . ومياه الراحة يوردنى . يرد نفسى ويهدينى إلى سبل البر من أجل إسمه .. انى ولو سكنت فى وادى ظلال الموت لا أخاف سوءاً لأنك معى يا سيدى » (٤) .

أجل ، قد كان الرب دائما عطوفاً على ومملوءاً عذوبة ، « طويل الأناة كثير المراحم .. » (٥) ولذلك أشعر يا أمى بسعادة حقيقية فى أن أترنم بالقرب منك باحساناته الفائقة الوصف .. لك وحدك أخط سيرة تلك الزهيرة التى قطفتها يد يسوع . وهذه الفكرة تساعدنى على أن أنطق ببساطة قلب ، غير مكترثة بالإنشاء أو الاستطرادات التى يسوقنى إليها الموضوع ، فإن قلب الأم يجعلها دائما تفهم طفلها ، على ما بلسانه من اللكنة . إنى واثقة أنك ستفطنين ، بل وستدركين ما أريد قوله أنت التى هذبت قلبى وقدمتيه إلى يسوع .

---

(٤) مزمور ٢٢ : ١ ــ ٤ .

(٥) مزمور ١٠٢ : ٨ .

ولو أتيح للزهيرة النطق ، لجاهرت ببساطة قلب ، على ما يخيل الىَّ ، بما صنعه الله من أجلها ، غير محاولة إخفاء عطاياه ، وأنها لن تقول بحجة أنها تتواضع أنها شنيعة المنظر عديمة الرائحة ، أو أن الشمس أخمدت سناءها ، والعواصف قصفت ساقها ، فى حين أنها ترى نفسها عكس ذلك .

إن الزهرة التى شرعت تروى سيرة حياتها لمسرورة أن تنشر فضلا ونعما مجانية خصها بها يسوع ، وانها تقر بأنه لم يكن فيها ما يلفت أنظاره الإلهية ، و بأن رحمته وحدها هى التى غمرتها بهذه الخيرات ، وهو الذى أنبتها فى تربة مقدسة متشربة بعطر الطهارة ، وأوجد قبلها ثمانى زنابق ناصعة البياض ، ومن عظم محبته لها شاء أن يحفظها لئلا تلفح نضارتها ريح هذا العالم فتذبلها . فما أن تفتحت أو كادت ، حتى نقلها إلى جبل الكرمل ، إلى البستان المصطفى الذى اختارته العذراء مريم .

هذا ما صنعه الله لأجلى ، قد لخصته يا أماه فى عبارات وجيزة ، وها أنا أدون بتفصيل سفر طفولتى ، مع علمى بأن هذه القصة التى ربما يمل منها غيرك ، لابد أن يرتاح إليها قلبك المليء بحنان الأم .

وفضلا عن ذلك ، فإن الذكريات التى أرويها هى ذكرياتك أنت أيضاً ، إذ قضيت بقربك أيام طفولتى . فيا لسعادتى ! إذ أنى ولدت من أبوين قديسين ، غمرانا سوية بنفس العناية ونفس العطف . فليتنازلا و يباركا ابنتهما الصغرى ، و يساعداها على الترنم بالمراحم الإلهية .

ان سيرة نفسى منذ طفولتى إلى يوم دخولى الكرمل ، تقسم إلى ثلاثة أطوار : أولها يبتدىء من يوم ادراكى إلى يوم انتقال والدتى المحبوبة إلى الوطن السماوى ، وقد كان عمرى وقتئذ أربعة أعوام وثمانية شهور .

إنه تعالى طبع فى ذهنى ذكريات طفولتى ، فلا أزال أذكرها كأنها وقعت بالأمس . ولا ريب أن الغرض من ذلك هو أن أقدر حق التقدير تلك الأم المثالية التى أعطانا إياها ، لكن ، واحسرتاه ! ... ان محبته الإلهية ما لبثت أن اقتطفتها بعد قليل لكى تكللها فى السماء .

إن الله فى كل حياتى رأى أن يشملنى بالحب . فإن ذكر ياتى الأولى مملوءة بأرق الابتسامات والحنان ، كما غرس الله فى الوقت نفسه فى قلبى الصغير حبا عظيماً ، وجعله مرهف الإحساس . ولذا كان حبى لكل من أبى وأمى عظيما ، لا يستطيع أحد أن يتصور مقداره . وقد برهنت لهما عن محبتى البنوية بأنواع شتى ، لأنى كنت مفتوحة القلب صريحة ، غير أن أساليب إظهارى محبتى آنذاك ، تضحكنى الآن عندما أذكرها .

لقد شئت يا أماه أن تضعى بين يدى الرسائل التى كانت أمنا قد بعثت بها إليك أيام كنت تلميذة داخلية فى مدرسة « راهبات الزيارة » فى مدينة « مان » ، فإنى لا أزال أعى ما بها من الأفكار اللطيفة . لذا يسهل على أن أورد لك بكل بساطة بعض الفقرات من هذه الرسائل الجذابة ، التى غالباً ما كانت تطنب فيها مدحى ، لفرط محبتها الأمومية نحوى .

وهاك كلمة من أمى جاءت مصداقاً لما أظهرت به محبتى لوالدى :

« ان هذه الطفلة (عفريتة) لا نظير لها ، فهى تأتى تداعبنى متمنية لى الموت ، قائلة : « كم أشتهى لك الموت يا أمى المسكينة الصغيرة » . ولدى توبيخها على هذا تعتذر مندهشة وتقول : « انما أقصد أن تذهبى إلى السماء ، لأنك تقولين أن الموت طريقها الوحيد » . كما تتمنى الموت أيضاً لوالدها حينما تبالغ فى التحبب إليه . أن هذه الحبيبة اللطيفة لا تحب الابتعاد عنى ، فهى دائماً بالقرب منى ، تتبعنى بسرور لا سيما إلى الحديقة ، وتأبى أن تدخلها وحدها دونى ، فتبكى ولا تسكت حتى تصير بين يدى . وهكذا لا تصعد الدرج وحدها بدون أن تنادينى من على كل درجة : « أماه !! أماه !! » وعلى قدر تعدد الدرجات تسمعنى ذلك النداء : « أماه !! أماه !! » وإذا نسيت لسوء الحظ أن أجيبها ولو مرة واحدة بقولى : « نعم ، بنيتى ! » فإنها تقف مكانها جامدة لا تتحرك .

وكنت على وشك بلوغى الثالثة من عمرى يوم كتبت والدتى المحبوبة :

« ان تريزا الصغيرة سألتنى بالأمس عما إذا كانت ستذهب إلى السماء ، فأجبتها : « نعم ، إذا كنت عاقلة » . فقالت : « يا أماه ، هل أذهب إلى جهنم إذا لم أكن صغيرة لطيفة ؟ ولكنى لا أعدم وسيلة ، فإنى أطير معك إلى السماء وتمسكيننى بذراعيك ، فلا يستطيع الله أن ينتزعنى منك » . وقد بدا فى عينيها أنها متيقنة بأن الله يتعذر عليه أن ينال منها إذا كانت بين ذراعى أمها ...

إن مارى تحب كثيرا أختها الصغيرة ، التى تسبب لنا جميعاً مباهج جمة ، وهى على صراحة غريبة ، فكم يلذ لى أن أراها تسرع ورائى لتقر معترفة بما عملته قائلة : « دفعت سيلين مرة ، وضربتها مرة ، ولن أعود إلى مثل ذلك » .

وان أتت أية حادثة ، كان من الضرورى أن يعرف الجميع بها . فأمس ، مزقت ، دون قصد ، طرف ورق ملون مدلى على الجدار ، فاستولى عليها حزن عظيم ، وأصبحت فى حالة تستوجب الشفقة ، ولما عاد أبوها بعد مضى أربع ساعات على ذلك ، وكان الجميع قد فاتهم ما حصل ، لم تر بد من اطلاعه على ما جرى .. فأسرعت إلى أختها مارى قائلة : « أخبرى والدى حالا أننى مزقت الورق » . ثم وقفت إزاء والدها كمجرمة تتوقع منه صدور الحكم ، ولكنها كانت موقنة أنها تنال منه المغفرة بسهولة إذا هى اعترفت فوراً » .

وبمناسبة الكلام عن والدى ، أعيد بعض الذكريات السارة : كان من عادتى عند عودة والدى إلى البيت أن أسرع اليه وأجلس على أحد حذائيه ، فيطوف بى فى البيت والحديقة على هذا الشكل ، وكانت أمى تردد ضاحكة بأن والدى يعمل كل ما أريد ، فكان يجيبها : « لا مناص من ذلك وهى الملكة » . ثم كان يأخذنى و يرفعنى قدر استطاعته ، ثم يجلسنى على كتفه و يقبلنى و يلاطفنى بأشكال شتى .

على أنه مع ذلك لم يكن يدللنى ، فمن ذلك أننى بينما كنت العب يوما مر والدى بقربى وناداني : « تعالى يا ملكتى الصغيرة قبليني » . أما أنا فخلافا لعادتى لم أتحرك ، وأجبته : « لا ، بل تعال أنت » . فلم يصغ إلىّ ، وحسنا ما فعل . ولم أنتبه إلى وقاحتى هذه الا بعد أن أنَّبتنى أختى مارى على ذلك قائلة : « أنك لوقحة ! كم هو معيب أن تجاوبى والدك بمثل هذا الكلام ! » لقد استفدت من هذا الدرس ، وملأت الدار صراخاً ، وأسرعت أفتش عن والدى استغفره ، فتم لى ذلك .

كان يؤلمنى جداً تسببى فى الحزن لوالدىَّ المحبوبين ، فلا أكاد أقترف الهفوة حتى اتبعها بالاعتراف و بالندم . روت أمى حادثة قالت :

« رغبت يوما أن أقبل تريزا الصغيرة قبل أن انزل ، وكنت أظنها مستغرقة فى النوم ، فلم أجرؤ على أن أوقظها ، فقالت لى مارى مؤكدة : « أنها تتظاهر بالنوم » . وما كدت أنحنى على جبينها لأقبلها حتى اختبأت تحت الغطاء قائلة بدلال : « لا أريد أن يرانى أحد » . فلم يرضنى عملها هذا ، فأشعرتها بكدرى . وما هى إلا دقيقتان حتى سمعتها تبكى ، ولم تلبث أن رأيتها بجوارى وقد تركت سريرها ونزلت السلم حافية القدمين تتعثر بذيول ردائها الليلى الطويل ، ووجهها مبلل بالدموع . ثم جثت أمامى قائلة : « سامحينى يا أماه ، لقد أخطأت ! » فلم أتمالك من أن آخذها بين ذراعى وأضمها إلى قلبى ، وأغمرها بالقبلات ، وهكذا نالت الصفح » .

وانى أذكر أيضاً ما كنت أشعر به آنذاك من حب عظيم لشبينتى العزيزة (٦) التى كانت قد أنهت دروسها فى مدرسة راهبات الزيارة من مدة قريبة ، وأننى بعكس ما كانوا يتصورون بى ، كنت أنتبه إلى كل ما يحدث و يقال حولى ، و يبين لى أننى كنت أدرك الأمور اذ ذاك إدراكى إياها الآن . وكنت أصغى

---

(٦) أختها الكبرى مارى .

بانتباه إلى كل ما كانت تلقيه من الدروس على سيلين . وحتى أنال حظوة قبولى فى غرفتها ابان التدريس ، كنت أبقى هادئة جداً ، ومطيعة لها فى كل شىء ، ولذا كانت تغمرنى بالهدايا التى وان كانت قليلة القيمة الا أنها كانت تسبب لى فرحاً جزيلاً .

وأستطيع القول إنى كنت فخورة جداً بأختى الكبيرتين ، ولكن بما أنه كان يخيل إلى أن بولين بعيدة جدا ، فكنت أحلم بها من الصباح إلى المساء . وعندما كنت أبدأ الكلام كانت أمى تسألنى عما أفكر ، فكنت أجيبها دائماً بالجواب ذاته ، وهو « أفكر فى بولين » . وكنت أحياناً أسمع أن بولين ستصبح راهبة . فبدون أن أدرك معنى ذلك ، كان يجول فى خاطرى أننى أيضاً « سأصبح راهبة » ، وكانت هذه هى إحدى ذكرياتى الأولى . ومنذ ذلك الحين ، لم أعدل عن قرارى هذا قط ! فمثلها هو الذى جذبنى نحو عروس العذارى ، ولم أتعد وقتئذ الثانية من عمرى . يا أمى ، كم هى عذبة وجميلة التأملات التى أود أن أستودعك إياها هنا عن علاقتى بك . الا أن هذا الأمر سوف يجرنى إلى أبعد مما أقصد .

كذلك كانت عزيزتى الصغيرة ليونى تحتل مكانة كبيرة جدا فى قلبى ، كما كانت هى تحبنى كثيرا . فكانت عند عودتها مساء من الدروس ، تريد أن تتولى حراستى حينما تخرج الأسرة كلها للنزهة .. وكأنى بصوتها العذب يرن حتى الآن فى أذنى ، منشداً هاتيك الألحان السماوية والأناشيد الملائكية ، التى كنت أنام على نغماتها الشجية . كما أنى أذكر تماماً مناولتها الأولى ، ومثلها ، رفيقتها الفقيرة ، التى كستها والدتى ثياباً جديدة بهذه المناسبة وفقا للعادة المأثورة عند أسر « ألنسون » الميسورة ، وهى طيلة ذلك النهار السعيد لم تفارق ليونى طرفة عين ، وعند المساء ، أجلست إلى مائدة العشاء فى المكان الأول . وللأسف حال صغر سنى دون الجلوس إلى تلك الوليمة ، ولكنى اشتركت فيها نوعا ما ، والفضل فى ذلك يرجع إلى والدى الحنون ، الذى جاء بنفسه يقدم لملكته الصغيرة قطعة من الحلوى .

بقى أن أقول كلمة عن سيلين رفيقة طفولتى .. لقد كنا على اتفاق وتفاهم تامين . مع أننى كنت أكثر جدة وأقل سذاجة منها . هاك يا أماه رسالة كتبتها والدتى تذكرنى بما تحلت به سيلين من العطف ، وبما كنت عليه من الشقاوة وأنا حينذاك فى الثالثة من عمرى ، وهى فى السادسة والنصف :

« ان سيلين الصغيرة ميالة تماماً إلى الفضيلة ، أما (الشقيقة) الصغيرة فلا أعلم ما يؤول اليه أمرها ، فهى صغيرة وطائشة . أنها ذكية جداً لكنها أقل وداعة من أختها ، وعنادها لا يغلب ، فعندما تقول : « كلا » لا شىء يثنيها عن قولها حتى ولو حبست يوما بكامله فى القبو، وتؤثر الرقاد فيه على أن تقول « نعم » وتعدل عن عنادها » .

أهملت والدتى فى رسائلها ذكر نقيصة أخرى فى ، وهى محبتى لذاتى محبة عظيمة . واليك مثالين : شاءت والدتى ذات يوم أن تعرف مبلغ كبر يائى ، فقالت لى مبتسمة : « بنيتى تر يزا ، إذا قبلت الأرض ، أعطيك درهما ! » وكان الدرهم يوازى فى نظرى ثروة كبيرة ، ولم يكلفنى اقتناؤه الا أن أخفض قليلا من كبر يائى ، خاصة وأنه لقصر قامتى لم يكن بينى و بين الأرض مسافة تذكر. مع ذلك ثارت فى الكبر ياء فانتصبت على قدمى وأجبتها : « كلا ! انى أفضل أن لا أر بح الدرهم » .

ومرة ثانية قضى الواجب أن نذهب إلى ز يارة أصدقاء لنا فى الر يف فكلفت أمى أختى أن تلبسنى أجمل ثيابى ، ولكن بدون أن تعرى ذراعى . فسكت وأظهرت عدم الاكتراث ، ولكنى كنت أقول فى نفسى : « ما كان ألطفنى لو عر يت ذراعى » .

أدرك الآن أننى كنت سأصبح شر يرة مع ما أنا عليه من هذه الطباع ، لولا تر بية والداى وفضيلتها ، ولكنت أسير فى طر يق الهلاك الأبدى . غير أن يسوع كان ساهراً على خطيبته الصغيرة ، وجعل لها من نقائصها مصدراً للمنفعة والتقدم والنمو فى طر يق الكمال .

كنت فى الواقع منقادة إلى حب الذات وحب الخير معا ، فكان يكفى أقل تنبيه لردعى عما لا يليق . و يلذ لى أن أرى أننى كلما كنت أتقدم فى السن ، كنت أز يد فى تعز ية أمى وارضائها ، مستفيدة مما كنت أراه من قدوات حسنة ، والدليل على ذلك ما كتبته أمى سنة ١٨٧٦ :

« ان تر يزا نفسها تشترك فى ممارسة الإماتة والتضحية ، فيوما أعطتنا أختها مارى سبحة خاصة لتعد عليها أعمال الفضائل التى تمارسها مع أخواتها ، فكن يجتمعن سو ياً ، و يتباحثن مباحثات روحية تدعو إلى الغبطة والسرور. فقالت سيلين ذات يوم : « كيف يمكن أن يكون الله موجوداً فى قطعة خبز صغيرة بهذا المقدار؟ » فأجابتها تر يزا : « لا عجب فى ذلك ، فإن الله قادر على كل شىء ، وهذا معناه أن الله يعمل كل ما يشاء » .

وأغرب شىء أن تر يزا كانت تضع يدها فى جيبها الصغير لا أقل من مائة مرة فى النهار لترفع حبة من مسبحتها كل مرة كانت تفعل فيها اماتة ما ! .

هاتان الفتاتان لا تفترقان أبدا ، وبهذا تسليتهما ، ففى ذات يوم ، أعطت المرضعة تر يزا ديكا ودجاجة من النوع الصغير ، فسرعان ما أعطت الصغيرة الديك لأختها ، وهذه كانت تذهب كل يوم بعد العشاء فتقبض على الديك والدجاجة ثم تذهبان معاً وتجلسان بجوار المدفأة حيث تقضيان وقتا طو يلا فى التسلية واللهو.

وذات صباح ، تركت تر يزا فراشها لترقد مع سيلين واذ طلبتها المر بية لتلبسها ثيابها ، قالت لها تر يزا : « دعينا يا لو يزة وشأننا ، ألا تر ين أننا كالدجاجات البيض الصغيرة لا يمكننا أن نفترق ؟ » .

ولا عجب ، فإننى لم أكن قادرة أن أمكث بعيدة عن سيلين ، وكنت أفضل أن أترك المائدة قبل أن أنتهى من أكل الفاكهة ، لكى أتبعها حالما تنهض ، فكنت

إذ ذاك أدور بالمقعد الكبير الخاص بى ، وأهم بالنزول عنه سر يعاً ، ثم نذهب فنلعب سو ياً .

وفى أيام الآحاد كان يستحيل على ، نظرا لصغر سنى ، الذهاب إلى الكنيسة فكانت أمى تبقى فى البيت لحراستى ، وفى غضون ذلك كنت أظهر تعقلاً وافراً ، فلا أمشى إلا على أطراف أقدامى ، ولكن حالما كنت أسمع الباب ينفتح ، كان يهزنى فرح لا مثيل له ، وأسرع نحو أختى الصغيرة الجميلة قائلة : « أعطينى حالا يا سيلين من الخبز المبارك » . وفى أحد الأيام لم يكن معها منه شىء ، فتساءلت ، ما العمل ؟ وما كنت أقدر أن أحرك نفسى اياه ، وكنت أدعو هذه الوليمة قداسى .. و بينما أنا كذلك ، إذا بخاطر يمر بذهنى ، فخاطبت سيلين قائلة : « إذا كان لا يوجد معك الآن خبز مبارك ، فاصنعيه » . ففتحت سيلين عندئذ الخزانة وأخذت خبزا وكسرت منه جزءاً ، وتلت عليه صلاة « السلام الملائكى » بصوت احتفالى جهورى ، ثم قدمته لى بافتخار ، فرسمت إشارة الصليب ، ثم أكلت الخبز بفائق التقوى ، ووجدت طعمه « كطعم الخبز المبارك » !

وذات يوم ، شعرت ليونى ، على ما أعتقد ، بأنها أكبر من أن تلعب بلعبتنا ، فجاءت حيث كنا ، أنا وسيلين ، و بيدها سلة مملوءة فساتين و بعض قطع من الأقمشة الجميلة وأشياء أخرى ، وأضجعت عليها دميتها ، ثم قالت لنا : « خذا يا أختاى الصغيرتان ، واختارا ما يحلو لكما » . فنظرت سيلين فى السلة ، وأخذت منها شلة من الخيط .. أما أنا ، فبعد أن فكرت لحظة ، مددت يدى وقلت : « لقد اخترت كل ما فيها » . ثم أخذت السلة والدمية دون أقل تكلف .

ان هذه النبذة من سفر طفولتى هى بمثابة ملخص حياتى كلها . فيما بعد ، لما انبثق لعينى فجر الكمال ، فهمت أنه ينبغى أن أتألم كثيراً لأصبح قديسة ، وأن أتناسى ذاتى ، وفهمت أيضاً أن فى سلم القداسة درجات عديدة ، وأن كل نفس حرة فى الاستجابة لدعوات السيد المسيح ، وفى عمل اليسير أم الكثير من أجل حبه ، بالاختصار ، هى حرة فى اختيار ما تر يد عمله من التضحيات التى تتطلبها محبة المسيح . عندئذ رددت ما كنت أقوله فى طفولتى : « الهى ، أنى أختار كل

شيء ، فلا أريد أن أكون نصف قديسة ، وهذا لا يجعلنى أخاف التألم من أجلك ، وكل ما أخشاه هو الاحتفاظ بإرادتى ، فخذها أنت ، لأنى أختار كل ما تشاء » .

إنى أشعر يا أماه بأنى نسيت نفسى ، إذ لا ينبغى أن أحدثك بعد عن عهد صباى ، فحديثى الآن يعود إلى عهد طفولتى ، يوم كنت فى الثالثة والرابعة من عمرى . انى أورد حلما رأيته وأنا فى هذا السن ، فانطبع فى ذاكرتى انطباعاً عميقاً : رأيتنى ذاهبة بمفردى إلى النزهة فى الحديقة . وفيما أنا هناك ، لمحت بغتة بالقرب من خيمة العريشة صغيرين شيطانين يرقصان بخفة على برميل مملوء جيراً ، مع ما فى أرجلهما من قيود حديدية ثقيلة . وصوبا إلى نظرات نارية ، ثم بأسرع من لمح البصر ارتميا فى قاع البرميل وقد أخذتهما الرعدة .. ثم خرجا ، ولا أدرى من أى منفذ خرجا ! فاختباءا فى غرفة الغسيل ، وإذا تبينت جبنهما رغبت فى معرفة ما سيفعلان .. وتغلبت على الرعشة الأولى التى كانت قد استولت علىّ ، واقتربت من النافذة ، فرأيتهما لا يزالان يقفزان على المناضد ، ولا يعرفان كيف يتجنبان نظراتى ، وأحيانا كانا يسترقان النظر إلىّ مذعورين من وراء النافذة ، وإذا ما أبصرانى باقية فى مكانى ، عادا إلى عدوهما يائسين ! » .

لا ريب أنه ليس فى هذا الحلم شيء خارق ، ولكنه تعالى ، على ما أعتقد ، أراد أن يبرهن لى به أن النفس وهى فى حالة النعمة لا تخاف الشياطين ، وان من هم الا جبناء يولون الأدبار من مجرد نظرة طفل صغير !

ما كان أسعدنى يا أماه فى ذاك السن ! إذ كنت لا أنعم بالحياة فحسب ، بل كل نفسى قد أجتذبتها الفضيلة فسيطرت بسلطان تام على جميع أعمالى ، كما تسيطر على الآن . فمثلا : تعودت ألا أتذمر بالكلية عندما يؤخذ منى شيء أملكه ، وكنت أؤثر السكوت على الاعتذار إذا اتهمنى أحد بغير حق . ولم يكن لى فضل فى ذلك ، لأنى كنت أفعل ذلك عن فطرة دون اجتهاد .

ولكن سرعان ما انقضت أيام طفولتى المرحة ، وما أحلى وأعذب الانطباعات

التى تركتها فى نفسى ! إننى أذكر باغتباط تلك الأيام التى كان يأخذنا فيها أبى إلى بيتنا الصغير القائم فى مدخل المدينة .. إننى أذكر خاصة نزهات يوم الأحد ، التى كانت أمنا ترافقنا فيها ، وما فتئت حتى الساعة أشعر بالتأثيرات العميقة والشعرية ، التى كانت تتزاحم فى قلبى لدى رؤيتى حقول الحنطة المزينة بأزهار الشقائق والترنجان والأقحوان ، ففى ذلك الحين كنت أستظرف المناظر القصية ، والفضاء ، والأشجار الكبيرة ! وأوجز فأقول ان الطبيعة الجميلة بأسرها كانت تقتنى وتسمو بنفسى نحو السماء !

وكثيرا ما كنا نلتقى بفقراء أثناء تلك النزهات الطويلة ، وكنت أكلف دائما ، أنا تريزا الصغيرة ، أن أحمل إليهم الحسنة ، مما كان يملأ قلبى سعادة وسروراً ! وكثيراً ما كان أبونا ، عندما يرى الطريق طويلا وشاقاً على ملكته الصغيرة ، لا يلبث أن يعود بى إلى البيت وأنا فى حالة حزن شديد . فعند ذلك . كانت سيلين تسرع لإرضائى باملاء سلتها الصغيرة من زهور الاقحوان ، وتهديها إلى فور عودتها إلى الدار .

أجل ، كان كل شىء على الأرض يبتسم لى ، فكانت الأزهار تنثر تحت قدمى لدى كل خطوة أخطوها ، وكان طبعى البسام يساعد أيضاً على جعل حياتى جميلة ! ولكن ها هى مرحلة جديدة تبدأ أمامى ، وإذ كنت وهبت نفسى لتكون عروساً للمسيح ، كان لابد لى أن أتألم منذ طفولتى ! وكما أن الأزهار الربيعية تبدأ نموها تحت الثلوج ، ثم تتفتح عند ظهور أشعة الشمس الأولى ، هكذا كتب على الزهيرة التى أكتب ذكرياتها أن تجتاز شتاء الامتحان ، وتملأ كأسها الرهيف من ندى الدموع !

الفصـــل الثـــانى

موت أمها ــ فى منزل الأسرة ــ الحب الأبوى
اعترافها الأول ــ سهرات الشتاء ــ رؤيا تنبؤية

لا أزال أذكر كل تفاصيل مرض أمنا ، وخاصة خلال الأسابيع الأخيرة التى قضتها على هذه الأرض . كنت أنا وشقيقتى سيلين كمنفيتين بائستين ، وكانت مدام « ..... » تأتى كل صباح فتأخذنا لنقضى النهار عندها . وذات يوم ، ذهبنا معها قبل أن نتلو صلاتنا ، فهمست سيلين فى أذنى ونحن فى الطريق قائلة : « ألا ترى أن نخبرها بذلك ؟ » فأجبتها : « بلا شك » . فاقتربت منها ، وأسرت اليها ذلك ، فأجبتها السيدة : « حسنا يا بنيتى ، أتلواها » . ثم تركتنا فى غرفة رحبة ومضت . واذ ذاك تبادلنا نظرات الدهشة ، ثم قلت لسيلين : « أنها ليست كأمنا .. أن أمنا تتلو الصلاة معنا ! » .

ان ذكرى أمنا لم تكن لتبرح مخيلتنا البتة ، رغم كل ما كان يعرض علينا من وسائل اللهو فى بحر النهار . انى أذكر أن سيلين أعطيت مرة مشمشة كبيرة ، فقالت لى : « تعالى نعطى هذه المشمشة لأمنا » . لكن واحسرتاه ! ان أمنا كانت فى حالة لا تسمح لها بتناول ثمار الأرض ، لأن المرض كان قد ثقل عليها ، فلم تكن لتشبع الا فى السماء من مجد الله ، ولا لتشرب سوى الخمر السرى مع يسوع ، ذاك الذى تحدث عنه فى العشاء الأخير ، ووعد أن يشرب به معنا فى ملكوت أبيه ! .

إن المراسم المؤثرة لسر مسحة المرض قد انطبعت على صفحات قلبى ، وكأنى لا أزال أرى المكان الذى طلب منى أن أركع فيه وقتئذ ، ولا أزال أسمع نحيب والدى المسكين و بكاءه !

وفى اليوم التالى لوفاة أمى[1] أخذنى أبى بين ذراعيه ، وذهب بى لأقبل أمى الحبيبة للمرة الأخيرة ، فأدنيت شفتى من جبينها البارد ، وقبلتها دون أن ألفظ ببنت شفة ! ولا أذكر أنى بكيت كثيراً ، ولم أظهر لأحد المشاعر العميقة التى كانت تملأ فؤادى ، بل كنت أنظر وأصغى صامتة ، ورأيت أموراً عديدة كانوا يريدون اخفاءها عنى .. وذات مرة ، كنت وحدى أمام التابوت الذى كان موضوعاً فى الردهة ، فتأملته طويلا وبالرغم من أنى لم يسبق لى أن رأيت مثله فهمت ما هو! وقد اضطرنى قصر قامتى حينذاك أن أقف على كرسى لأتبينه كما هو، فبدا لى كبيرا وكئيباً .

مضت على ذلك خمس عشرة سنة ، حين وقفت للمرة الثانية أمام تابوت آخر ، هو تابوت أمنا القديسة جنفييف[2] فعادت بى الذاكرة إلى أيام طفولتى ، وتزاحمت الذكريات فى مخيلتى .. صحيح أن تريزا نفسها هى التى كانت تنظر ، ولكنها كانت قد كبرت ، وبدا لها التابوت صغيرا ، فلم تكن فى حاجة إلى أن ترفع رأسها لترى إذ ما كانت ترفع رأسها الا لمشاهدة السماء ومباهجها ، لأن التجربة أنضجت نفسها ، فلم تعد تؤثر فيها العوامل الأرضية .

لم يتركنى الرب يتيمة يوم وارينا أمنا التراب ، بل أعطانى أن أختار لى أما ثانية ، فيوما ، إذ كنا خمستنا مجتمعات والحزن ملء فؤادنا ، إذ التفت الخادمة إلى وإلى سيلين وقالت : « ما أتعسكما ! لم يعد لكما أم ! فارتمت سيلين على الأثر بين ذراعى مارى قائلة لها : « ستكونين أنه أمى .. » أما أنا ، فقد كان ينتظر منى أن أقتدى بها حسب عادتى ، ولكننى رأيت هذه المرة أن أخالفها ، ولم أرد أن تحزن بولين وتشعر أننا أهملناها .. حينئذ نظرت اليك بحنان ، مخبئة رأسى الصغير فوق قلبك ، قائلة بدورى : « وأما أمى أنا فهى بولين » .

---

(١) توفيت مدام مارتان يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٧ عن ٤٦ عاما .

(٢) الأم جنفييف للقديسة تريزا ، مؤسسة دير الكرمل فى « ليزيو » .

ومثلما كتبت آنفاً ، دخلت فى تلك اللحظة فى المرحلة الثانية من حياتى ، وهى أشد أيامى ألما ، ولا سيما بعد أن دخلت تلك التى اخترتها أما ثانية لى دير الكرمل . وتبدأ تلك الفترة من بلوغى الرابعة والنصف من عمرى إلى سن الرابعة عشرة ، حيث عاودتنى طباع طفولتى ، وفى الوقت نفسه كنت أزداد إدراكا لقيمة الحياة .

انك تعلمين يا أمى أن طباعى تبدلت تماماً عقب موت أمنا ، فبعد ما كنت عليه من الحيوية والصراحة ، أصبحت خجولة وديعة ، مرهفة الحس للغاية ، حتى أن نظرة واحدة كانت تكفى لتسيل منى الدموع مدراراً ! كنت لا أحتمل معاشرة الغرباء ، ولا أجد سرورى الا بين أفراد أسرتى ، حيث كنت محاطة بحب أبى وعطفه ، وبمحبتك لى ومحبة مارى ، ولولا أنه تعالى أفاض أشعة احسانه على زهرته الصغيرة ، لما استطاعت أن تتحمل الحياة فى هذه الدنيا ، إذ أنها كانت أضعف من أن تتحمل الأعاصير والزوابع ، وكانت محتاجة إلى الحرارة والندى اللطيف ونسمات الربيع ، وكل هذه النعم لم تنقصها حتى ابان ثلوج التجارب ! .

انى لم أشعر بالحزن لمغادرتى ألنسون(٣) فالأولاد يحبون التغيير وكل ما يخرج عن المعتاد ، بل كنت فى غاية السرور عند حضورى إلى ليز يو.. إنى أذكر جيداً سفرنا ووصولنا مساء عند خالنا ، وكأنى أرى الآن بنات خالى جان ومارى تنتظراننا مع خالتى التى على عتبة باب البيت .. وكم تأثرت بالمحبة التى أبداها نحونا أقاربنا الأعزاء ! .

وفى اليوم التالى ذهبوا بنا إلى مقرنا الجديد ، أى « بو يسونيه » ، فى ذلك الحى المنعزل الكائن قرب الطريق الجميلة المعروفة باسم « حديقة النجمة » . وكم بدا لى جميلا ذلك البيت المطل على مناظر بديعة ، وأمامه حديقة على الطراز الانجليزى ، وخلفه حديقة أخرى كبيرة ! كل هذا كان جديداً وساراً بالنسبة لمخيلتى الصغيرة ! وفى الحقيقة أن أفراحاً جزيلة وحوادث عائلية لا تنسى تمثلت

---

(٣) فى يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٧

« إنى رغبت أن أهب نفسى إلى الله منذ سن الثلاث سنوات » .

« القديسة تريزا »

لنا فى ذلك المسكن البهيج ! وقد كنت عندما أبتعد عن هذا البيت ، كما ذكرت آنفاً ، أشعر أنى منفية ، وأنه لم يعد لى أم ، فأبكى ! .

أما هناك ، فقد تفتح قلبى الصغير فابتسم مرة أخرى للحياة ! .

وكنت إذ أستيقظ فى الصباح ، تستقبلنى مظاهر عطفكما على ، ثم أتلو صلاتى بجواركما . و بعد ذلك أدرس عليك القراءة ، وأنى أذكر أن أول لفظة استطعت أن أقرأها من تلقاء نفسى هى كلمة « السموات » ! وكنت بعد الدرس أسرع إلى شرفة البيت ، حيث كان أبى يجلس عادة . فكم كنت سعيدة عندما كنت أخبره بأنى نلت درجات عالية فى دراستى !

كنت بعد ظهر كل يوم أذهب برفقته للتنزه وقتا قصيراً ، ولز يارة القر بان المقدس فى الكنائس التى نصادفها فى طر يقنا . وهكذا تسنى لى الدخول للمرة الأولى إلى كنيسة دير الكرمل ، فقال لى والدى : « أنظرى يا ملكتى الصغيرة ، أن وراء هذا الحاجز راهبات قديسات ، يصلين دائماً إلى الله » . وما كنت لأظن وقتئذ أننى بعد تسع سنوات سأكون بينهن ، وأنى فى هذا الدير المبارك سأنال نعماً عظيمة الشأن !

بعد النزهة كنت أعود إلى البيت ، فأتمم دروسى و واجباتى ، وأصرف ما يتبقى من الوقت فى القفز حول والدى العز يز فى الحديقة ، كنت أميل كثيراً إلى جمع البذور وقشور الأشجار ، فأغليها ، وحالما كانت تكتسب لونها الجميل ، أسرع بتقديمها إلى والدى فى قدح صغير جميل ، يغرى شكله بتناول ما فيه ! وكان هذا الأب الحنون يترك عمله فوراً و يتظاهر باحتساء تلك المغليات مبتسماً .. كم كان يلذ لي زرع الأزهار وانشاء الهياكل الصغيرة فى فجوة سور الحديقة ، ثم الإسراع نحو والدى بعد ذلك لأر يه فكان يبدى الإعجاب والإندهاش إرضاء لى ! ما أجمل تلك الأيام التى كان يستصحبنى فيها ملكى المحبوب ــ أعنى والدى ــ لصيد السمك ! كنت أحياناً أحاول الصيد بنفسى ، وأحيانا أخرى كنت أجلس منفردة فوق العشب المزدهر ، وحينئذ أغوص فى بحر الأفكار ، وتغور نفسى فى الصلاة

الذهنية وأنا بعد أجهل ما هو التأمل ! كنت أصغى إلى الأصوات البعيدة وإلى هبوب الريح التى كانت تحمل أحيانا من المدينة بعض الألحان غير واضحة من الموسيقى العسكرية ، فتثير فى فؤادى شجوناً حزينة ، فأرى أن الأرض ليست إلا منفى ، وأتوق إلى السماء !

كانت أوقات نزهاتنا تمر سراعا ، فإذا بموعد العودة إلى البيت يحين ، ولكن ، قبل الرحيل ، كنت أتناول « وجبة العصر » الموضوعة فى سلتى الصغيرة ، ولكنى تأسفت لدى رؤيتى أن شطائر المربة التى كنت تعدينها لى قد تغير لونها الزاهى واستحال إلى لون وردى قاتم ، عندئذ كانت الأرض تبدو لى أكثر تجهماً ، وأزيد إيماناً بأن الفرح لا يخلو من الأكدار الا فى السماء فقط !

ولا أزال أذكر حادثا وقع لنا فى إحدى نزهاتنا ، وهو أنه تلبدت يوماً سماء الريف بالغيوم ، وما هو الا قليل حتى هبت عاصفة هائلة ببرقها ورعدها ، فأخذت التفت يميناً وشمالا حتى لا يفوتنى شىء من ذلك المنظر الرائع ، وأخيراً رأيت صاعقة تنقض على مرج قريب ، فخلب لبى منظرها دون أن ينتابنى أى خوف ، بل دلنى انقضاضها على أن الله قريب منى ! أما أبى العزيز فقد أسرع إلى وأخذنى بين ذراعيه ، وسار بى يقطع مروجاً جميلة ، يتماوج فيها العشب والأقحوان ، فكنت أرسل أنظارى اليها فأراها كأنها الماس اللامع ، وفى شىء من الأسف إذ أنى لا أستطيع الاتشاح بتلك الجواهر !

وكأنى إلى الآن لم أقل أنى كنت أحمل غالبا الصدقة للمساكين أثناء نزهاتى اليومية ، سواء كانت فى ليز يوأم فالنسون .. فيوما ما قابلنا شيخاً مسكيناً يتوكأ على عكازه ، فدنوت منه لأعطيه قطعة من النقود ، فنظر إلى نظرة طويلة محزنة ، ثم هز رأسه رافضاً قبول الحسنة ، وبدت على شفتيه ابتسامة ملؤها الألم ! فحزنت جدا ، وساءدنى أن يكون عملى هذا سببا لإهانته وحزنه ، بدلا من أن يكون لتعزيته واسعافه ، ولا ريب أنه فهم ما جال بفكرى ، لأنه بعد قليل سار يلتفت إلى عن بعد مبتسماً . وكان والدى قد اشترى لى قطعة من الحلوى ، فأسرعت وراء

الشيخ قائلة فى نفسى : « أما وقد رفض قبول المال ، فلن يرفض قطعة الحلوى » . ولكننى لا أعلم أى خوف أقعدنى عن تنفيذ فكرتى ، فامتلأ قلبى حزنا ، ولم أتمالك نفسى من البكاء .

تذكرت أخيراً أن الإنسان ينال عند مناولته الأولى كل ما يطلبه من النعم ، فتعزيت إذ ذاك ، رغماً عن أنى كنت فى السادسة من عمرى .. ثم خاطبت نفسى قائلة : « سأصلى لأجل هذا المسكين فى يوم مناولتى الأولى » ولبثت على عهدى هذا خمسة أعوام ، معتقدة أن صلاتى وأنا فتية لأجل هذا العضو المتألم من جسد المسيح قد نالت البركة والاستجابة .

وإذ كنت أنمو كنت أزداد محبة الله ، وأقدم له قلبى بالصلاة التى تعلمتها عن أمى ، باذلة الجهد لأرضى يسوع فى كل أعمالى ، ولا أغضبه البتة . ولكننى مع ذلك أرتكب ذات يوم هفوة يجدر أن أذكرها هنا ، فهى تفسح أمامى مجال الاتضاع ، وأعتقد أنى قد ندمت عليها ندامة كاملة .

حدث ذلك فى خلال شهر مايو سنة ١٨٧٨ ، فإنى ، كما تعلمين ، كنت لا أزال صغيرة يشق على الذهاب لحضور شعائر الشهر المريمى فى مساء كل يوم ، فكنت أبقى فى البيت مع الخادمة ، ونقوم معاً بالصلاة أمام هيكلى الذى صنعته بنفسى ورتبته حسب ذوقى . فكان كل ما عليه من شمعدانات وأوانى الزهور وهلم جرا صغيرا ولطيفاً ، إلى حد أن عودى ثقاب كانا يكفيان لانارته كله ! وأحيانا كانت فيكتور يا تهدى إلى طرفى شمعتين معا ، حتى تقتصد ما معى من الثقاب ، غير أن ذلك كان من النادر .

فذات مساء قلت لفيكتور يا قبل أن نبدأ الصلاة : « أتريدين أن تبدأى بصلاة « اذكرى يا مريم » بينما أضىء أنا الشموع » فتظاهرت بالشروع فى الصلاة ، ثم نظرت إلى وهى تقهقه .. فلم أعلم لذلك سبباً ! وإذ كنت أرى عيدان ثقابى الثمينة تحترق بسرعة ، رجوتها ثانية أن تبدأ الصلاة . أما هى ، فبعد صمت قصير عادت تقهقه ثانية .. عندئذ لم أتمالك نفسى ، وخرجت عن هدوئى

المعتاد ، وصرخت قائلة : « فيكتور يا ، انك لشر يرة ! » فبغتت المسكينة وكفت عن الضحك ، وأرتنى طرفى شمعتين كان مخبئتين تحت مر يلتها .. لكن ــ يا للأسف ! ــ بعد فوات الأوان و بعد أن بكيت من شدة الغضب ، عدت فسكبت الدموع نادمة ، وقد اجتاحنى الخجل والأسى ، وقررت بكل حزم ألا أعود إلى مثل ذلك .

ثم بعد زمن يسير ذهبت لأعترف بخطاياى ولهذا الإعتراف تذكار جميل لدى ، وقد كنت تقولين لى يا أمى العز يزة : « صغيرتى الحبيبة تر يزا .. أنك ستعترفين بخطاياك لا لإنسان بل لله ذاته » . فاقتنعت بصحة كلامك هذا ، حتى أننى سألتك إذا كان يجب على أن أقول للكاهن المعرف (٤) أنى أحبه من كل قلبى ، حيث أنى كنت سأخاطب فى شخصه الله نفسه !

و بعد أن تلقنت جيدا كل ما يجب أن أفعله ، دخلت كرسى الاعتراف وجثوت ، ولكن الكاهن لم يرنى بسبب صغر قامتى ، وأمرنى أن أقف ، فامتثلت حالا و وقفت تجاهه وجها لوجه ، ثم أعترفت ونلت الحل بروح إيمان عظيم ، لأنك أكدت لى أن دموع الطفل يسوع تطهر أثناء الإعتراف .

لا زلت أذكر إرشاد الكاهن لى آنذاك ، فقد دعانى بحرارة إلى ممارسة إكرام السيدة العذراء المجيدة ، فوعدت أن أضاعف محبتى لها .. ثم قدمت له مسبحتى ليباركها ، وخرجت من كرسى الاعتراف مسرورة ومغتبطة . كان ذلك فى المساء ، فلما وصلنا تحت المصباح ، أخرجت مسبحتى التى باركها الكاهن ، وأخذت أقلبها وأنظر اليها ، فقلت لى : « بماذا تحدقين يا صغيرتى تر يزا ؟ » فأجبتك : « اننى استجلى كيف تكون المسبحة المباركة » . فراقك كثيراً هذا الرد الساذج ، ومكثت طو يلا متأثرة بالنعمة التى نلتها ، وزادت رغبتى فى أن أعترف فى الأعياد الكبيرة ، فكانت نفسى تمتلىء بهجة وسرورا فى كل مرة بهذا الاعتراف !

---

(٤) وهو الأب دوسلييه الذى تنيح سنة ١٩١٧ ، بعد أن أصبح رئيس كهنة كاتدرائية « القديس بطرس » فى ليز يو .

الأعياد .. ما أحلى ذكريات الأعياد ! ما كان أشد حبى لها ! كنت تفسرين لى بكل دقة ما غمض عنى من الأسرار فى كل منها .. أجل ، كانت تلك الأيام الأرضية تصبح فى عيناى سماوية ! وكنت على الأخص أحب التطواف بالقربان الأقدس ، وأفرح كثيرا بنثرى الأزهار أمام الرب ، فأرمى بها عاليا لتلمس متناثرة شعاع القربان المقدس !

الأعياد .. أجل ، أن الأعياد الكبيرة كانت نادرة ، ومع ذلك لم يكن يخلو أسبوع من واحد منها يعود بطريقة منتظمة ، وهو يوم الأحد .. يوم ساطع الأنوار ، عيد الرب و يوم الراحة ، فيه كانت الأسرة كلها تذهب لحضور القداس . ولا أزال أذكر أن مركعنا كان بعيدا عن منبر الوعظ ، فكنا نضطر إلى البحث وقت الوعظ عن محل فى ممشى الكنيسة . أما تريزا الصغيرة ووالدها ، فقد كان الجميع يتسابقون ليقدموا لهما المقاعد ، وما كان أشد سرور خالى عند رؤيته إياى داخلة مع أبى ، فيقول : « ان رؤيتى هذا الوالد الجليل يقود بيده ابنته الصغيرة لمشهد يفتننى ! » وكان يدعونى « شعاع شمسه الصغيرة » . أما أنا ، فلم أكن أكترث بالناظرين إلى ، بل كان شغلى الشاغل أن أصغى بانتباه إلى الكاهن . وأول وعظة فهمتها كان عن آلام السيد المسيح ، فكان لها فى نفسى وقع شديد ، وكان عمرى آنذاك خمسة أعوام ونصف ، ومن ذلك الحين صرت استعذب معانى العظات وأفهمها ، وكلما كان الكلام عن القديسة تريزا ، كان والدى يهمس فى أذنى قائلا : « اسمعى يا ملكتى الصغيرة ،أن هذا الكلام عن شفيعتك القديسة » . نعم ، كنت أصغى ، ولكنى كنت أنظر إلى والدى اكثر ، فأقرأ على محياه انطباعات متنوعة ، فتارة أرى عينيه مغرورقتين بالدموع التى كان يحاول عبثاً امساكها ، وتارة عند استماعه الحقائق الأبدية كان يبدو لى أنه لم يعد من سكان الأرض ، فتتراءى لى روحه غائصة فى عالم آخر ، لكن واحسرتاه ! لم تكن رحلته على هذه الأرض قد اقتربت بعد من نهايتها ، وطال سفره عليها ، فقضى أعواما أليمة قبل أن تنفتح أمامه أبواب السماء ، وقبل أن يمسح الرب دموعه المرة بيده الإلهية !

أعود إلى الكلام عن يوم الأحد ، ذلك العيد السعيد الذى كان سرعان ما ينقضى ، تاركا وراءه شيئاً من الحسرة ! فقد كان سرورى فيه كاملا حتى وقت صلاة المساء ، أما بعد ذلك ، فكان الحزن يدب فى فؤادى ، إذ كنت أفكر فى أن الغد ستعود معه الحياة اليومية ، ومواصلة العمل وحفظ الدروس ! ثم أن قلبى كان يشعر بوحشة المنفى الذى نحن فيه فى هذه الدنيا ، وكان يتوق بشوق عظيم إلى الراحة الأبدية ، إلى ذلك الأحد الذى لا تغرب له شمس ، حيث الوطن الحقيقى .

وقبل أن نعود إلى البيت ، كانت خالتنا تدعونى أنا واخواتى ، الواحدة تلو الأخرى على التناوب ، لقضاء الأمسية عندها . وكان سرورى عظيما كلما أقبل دورى .. كنت أصغى بكل شغف إلى حديث خالى ، وكانت أحاديثه الرصينة تستحوز على كل انتباهى ، وما كان ليشك عند اصغائى اليه أن فرحى هذا كان يداخله بعض الاضطراب حينما كان يجلسنى على أحدى ركبتيه ، و ينشد أحد أناشيده بصوت هائل ، وهو نشيد « ذو اللحية الزرقاء » .

أما والدى فكان يأتى حوالى الساعة الثامنة للعودة بنا إلى المنزل . وحدث مرة أن جاء والدى كعادته ، و بينما نحن فى طريقنا إلى المنزل ، أخذت أتطلع إلى السماء وأرقب النجوم بفرح لا يوصف ، إلى أن أبصرت مجموعة نجوم وقد رسمت فى الجو حرف (T) بالفرنسية ــ « وهو أول حرف يبتدىء به اسم تريزا » ــ فقلت لوالدى العزيز : « انظر يا أبى ، أن أسمى منقوش فى السماء ! » عندئذ طلبت إلى والدى أن يقودنى ، ولم أخفض ناظرى عن مراقبة النجوم ، وأصبحت لا أرى أين أضع قدمى !

بأى بيان أصف ليالى الشتاء التى كنا نقضيها مجتمعين ! فبعد أن كنا ننتهى من لعب « الداما » كانت مارى و بولين تتلوان الواحدة بعد الأخرى بصوت عال فى كتب مفيدة وتثقيفية . وكنت أجلس على ركبتى والدى ، حتى إذا ما انتهت القراءة ، أخذ والدى يغنى بصوته الرخيم ، كأنما يريد بذلك تنويمى ، أما أنا فكنت أسند رأسى إلى موضع قلبه .

عقب ذلك كنا نصعد إلى الطابق العلوى لتلاوة الصلاة ، وكان موضعى حينئذ بالقرب من والدى ، وكانت نظرة واحدة إلى محياه تكفى لتعليمى كيف يصلى القديسيون ! وكانت أمى الصغيرة بعد انتهاء الصلاة تقودنى إلى سر يرى . وكنت فى كل ليلة ألقى عليها الأسئلة الآتية : « هل كنت ظريفة اليوم ؟ هل كان الرب راضياً عنى ؟ هل الملائكة سيطيرون حولى ؟ وكان الرد دائما بالإيجاب ، ولولا ذلك لقضيت ليلى فى البكاء . عندئذ ، كنت يا أماه تقبلينى ، وكانت شبيبتى تفعل كذلك . أما تريزا فكانت تمكث وحدها فى الظلام !

انى أعتبر الآن ما تعودت عليه فى صغرى من السيطرة على المخاوف نعمة حقيقة ، فقد كنت تكلفيننى أحيانا فى الليل باستحضار شىء ما من غرفة بعيدة ، وما كنت تقبلى منى أن أرفض طلبك ، وهذا كان ضرورياً لى ، لأنى لولاه لكنت نشأت على الجبن . أما الآن فقد أصبح من الصعب جداً اخافتى ! كما أنى أتساءل كيف تمكنت من تربيتى بهذا القدر من الحنان دون تدليلى ! لأنك ما كنت تتغاضين عن أقل نقص فى ، وما كنت تلومينني بلا سبب ، كما أنك ــ وكنت أعلم ذلك جيدا ــ ما كنت لتعدلين عن أمر أصدرتيه الى .

كانت بولين أمينة سرى ، أطلعها على كل أمورى الخاصة ، وكانت تعمل على تبديد شكوكى . حدث مرة أن أظهرت لها دهشتى كيف أن الله لا يعطى جميع المختارين قسطاً متساويا من المجد ، إذ كنت أخشى ألا يتمتع جميعهم بالسعادة .. عندئذ أرسلتنى لأحضر قدح والدى الكبير ، ووضعته بالقرب من كشتبانى ، ثم ملأت الاثنين ماء ، وسألتنى أيهما يبدو لى أكثر امتلاءاً ، فأجبتها بأن كليهما ممتلىء ، و يتعذر زيادة نقطة واحدة على أى منهما . و بذلك أفهمتنى امى الصغيرة كيف أن الأخير فى ملكوت السموات لا يتطرق اليه الحسد من سعادة الأول ! وهكذا كانت باعطائى ارشادات فى متناول إدراكى تمد نفسى بالغذاء اللازم لها ، الذى يجعلها قادرة على فهم أسمى الأسرار .

أرانى عاجزة عن وصف الفرح الذى كان يتولانى فى كل سنة عند حلول موعد

توزيع الجوائز! فرغم أننى كنت المتسابقة الوحيدة ، كان العدل مرعياً ، فلم أكن أنال من الجوائز ، الا ما استحقه عن جدارة ! وكان قلبى ينبض بسرعة عند سماع الحكم ، وخاصة لدى استلام الجوائز ، من يد « ملكى » أمام أفراد الأسرة مجتمعين ، فكان هذا المشهد يبدو لى رمزا للدينونة !

وأسفاه ! لم يكن يخطر لى على بال لدى رؤية والدى زاهى الوجه مسروراً ، تلك التجارب القاسية التى كانت فى انتظاره ! غير أن الله أرانى يوماً فى الرؤيا صورة حية لتلك الآلام المقبلة : فقد كان أبى مسافراً فى رحلة غير قصيرة ، وكانت الساعة الثانية أو الثالثة بعد الظهر على الأكثر ، وكانت الشمس مشرقة والطبيعة كلها زاهية .. كنت جالسة وحدى بالقرب من نافذة مطلة على الحديقة الكبيرة . لا أفكر الا فى الأمور السارة ، فرأيت شخصاً أمام غرفة الغسيل يشبه والدى فى قوامه ومشيته ، غير أنه أكثر انحناء وأكبر سناً ، أقول ذلك لكى أصف الشخص فى مجموعه ، لأنى لم أر وجهه مطلقاً ، وقد كان رأسه مغطى بحجاب كثيف ، كان يخطو ببطء وانتظام مجتازا حديقتى الصغيرة .. فى الحال تولانى فزع لا يوصف ، وصرخت بصوت متهدج ومرتفع : « أبى .. أبى .. » غير أن الشخص العجيب واصل سيره دون التفات ، كأنه لم يسمع صراخى ، متجهاً نحو أشجار التنوب التى كانت تفصل الممر الرئيسى عن الحديقة ، وتوقعت رؤيته خارجاً من الناحية الأخرى للأشجار الكبيرة ، غير أن تلك الرؤيا العجيبة تلاشت !

كل ذلك لم يدم أكثر من لحظة واحدة ، ولكنها على قصرها انطبعت جيداً فى ذاكرتى ، حتى أحسبها ، رغما عن مرور السنين الطوال ، كأنها حدثت اليوم (٥) .

أم أنت يا أماه ، فقد كنت مع مارى فى الغرفة المجاورة ، وقد تملك منكما الفزع لدى سماعكما صراخى ، غير أن مارى حاولت اخفاء شعورها هذا ، وتقدمت نحوى قائلة : « لماذا تنادين أبى وهو موجود الآن بمدينة ألنسون ؟ » .

ولما قصصت عليها تفاصيل الرؤيا ، حاولت تهدئة خاطرى بقولها أن من رأيت انما كانت الوصيفة فيكتوريا ، التى حاولت اخافتى فسترت رأسها بمنديل . ولما

(٥) كان هذا الظهور فى اغسطس سنة ١٨٧٩.

استجوبت الخادمة بهذا الشأن ، أكدت أنها لم تفارق المطبخ فى ذلك الوقت .. وعلى كل حال ، فإن الحقيقة لم تخف على ، فقد « رأيت رجلا ، وهذا الرجل يشبه والدى تماماً » ! عندئذ ذهبنا جميعاً نفتش بين الأشجار الكبيرة ، ولما لم نعثر على أحد ، قالت لى أن أنزع ذلك الفكر من ذاكرتى ، غير أنى لم أستطع ذلك ، فهذه الرؤيا الخفية كثيراً ما كانت تتمثل فى مخيلتى ، وكم حاولت كشف الستار عن معناها ولم أوفق ! متأكدة أنه سيأتى يوم يكشف لى فيه هذا السر الغامض !

والآن أنت تعلمين كل شىء ، يا أمى الحبيبة ، فقد كان ذلك الشخص ، الذى شاء الله أن يرينى اياه ، هو والدى بعينه وهو يسير منحنى الظهر بفعل السنين ، حاملا على وجهه المبجل وفوق رأسه الذى اعتلاه المشيب أثار تجربته العظيمة ، وكما غطى الحجاب وجه يسوع خلال آلامه ، كذلك غطى وجه خادمه الأمين أيام محنته الشديدة ، حتى يسطع نوره أكثر فى السماء ! آه ! كم أتعجب لدى تأملى طريقة الله معنا ؟ إذا سبق فأرانا ذلك الصليب الثمين ، كأب يكشف لأولاده المستقبل المجيد الذى يعده لهم ، و يلذ له أن يرى بنفسه الثروات الفائقة الوصف المعدة ارثا لهم !

لكن هناك أمراً يثير دهشتى : « لماذا كشف الله هذا السر لطفلة صغيرة ؟ لأنها لو أدركت معناه لقضت نحبها حسرة وألما ! » هذا سر لا يدرك كنهه سوى أهل السماء .. يا إلهى الصالح ، إنك ترسل بقدر قوتنا ، لأنى لم تكن لدى الشجاعة الكافية حتى أتصور أن والدى سوف يموت يوماً ! .

فحدث مرة أنه صعد فوق سلم ، ولما رآنى على مقربة منه ، قال لى : « ابتعدى يا ملكتى الصغيرة ، لأنى إذا سقطت سحقتك ! » شعرت فى الحال باضطراب داخلى ، واقتربت أكثر من السلم ، وقلت فى نفسى : « لو سقط أبى فعلى الأقل لن أفجع بوفاته ، لأنى سأموت معه ! » .

كلا ، ليس بوسعى أن أعبر عن مدى حبى له اذ ذاك ، فكل شىء فيه كان يثير إعجابى ! وعندما كان يشرح لى أراءه فى أمور فى غاية الجدية ــ كما لو كنت فتاة كبيرة ــ كنت أقول له بسذاجة : « أنه لمن المؤكد يا والدى أنك لو ألقيت كلامك هذا على كبار رجال الحكومة ، لكانوا أقاموك ملكاً ، وعندئذ تصبح فرنسا فى سعادة لم ترها من قبل ! ولكنك أنت كنت ستعيش تعيساً شأن كل ملوك هذه الدنيا ، ناهيك بأنك لن تكون عندئذ ملكاً لى وحدى ، ولذا أفضل أن لا يعرفوك ! » .

شاهدت البحر لأول مرة وأنا بين السادسة والسابعة من عمرى ، وقد انطبع منظره فى نفسى انطباعاً عميقاً ، فلم أستطع تحويل نظرى عنه ! فقد كانت عظمته وعجيج أمواجه يحدثانى عن عظمة الخالق وقدرته ! أذكر أن مر بنا ونحن على الشاطىء رجل وسيدة أخذا يحدقان النظر إلى ، وسألا والدى عما إذا كنت ابنته ، وأردفا هذا بقولهما بأنى طفلة رائعة الجمال .. أما والدى فأومأ اليهما بالكف عن امتداحى . لقد سرنى هذا الحديث ، لأنى لم أكن أرى فى نفسى ما يستحق الاطراء ! أما أنت يا أمى الصغيرة ، فقد كنت شديدة الحرص على عدم التحدث أمامى بكلام من شأنه أن يفقدنى سذاجة الطفولة ، وإذا كنت لا أصدق غيرك أنت وحدك ، فلم أعبأ لأقوال هذين الشخصين ولم أعر أى اهتمام لنظراتهما وتعجباتهما ، وما عاد هذا الحدث ليشغل بالى .

فى مساء ذلك اليوم ، جلست مع بولين على صخر مهجور ، وكانت الشمس تبدو متأهبة للغوص فى وسط الأمواج . عندئذ أخذت أتأمل فى الشعاع الذهبى الذى قالت عنه شقيقتى أنه صورة النعمة التى تنير الطريق فى هذه الدنيا أمام الأنفس المؤمنة ، فتمثلت قلبى فى وسط هذا الشعاع كأنه زورق صغير ذو شراع أبيض ظريف ، ووطدت العزم على عدم ابعاده عن أنظار يسوع ، ليبحر بسرعة وسلام نحو شاطىء السماوات !

الفصـــل الثـــالث

فى المدرسة ــ فراق أليم ــ مرض غريب
ابتسامة ظاهرة لملكة السماء

كنت فى الثامنة والنصف من عمرى يوم حللت مكان ليونى فى مدرسة دير البندكتيين . وهناك ألحقت بصف كانت جميع التلميذات فيه أكبر منى سناً ، وكانت أحداهن قد بلغت الرابعة عشر ، وكانت قليلة الذكاء ، غير أنها عرفت تسيطر على رفيقاتها . ولما رأتنى على حداثة سنى غالبا ما أكون الأولى فى المسابقات ، ومحبوبة من جميع الراهبات كانت تحسدنى ، وجعلتنى أدفع بطرق شتى ثمناً باهظاً لنجاحى هذا .. وبسبب هدوء طبعى ورقة شعورى ، لم أكن أقوى على الدفاع عن نفسى ضد تلك المعاكسات الا بالبكاء وقد كنت تجهلين أنت وسيلين ، ما كنت أشعر به من هم ، أما أنا ، فلم أكن على قدر من الفضيلة يمكننى من التحليق فوق هذه التجارب ، ولذا كان قلبى الصغير يتعذب كثيراً !

ولحسن الحظ ، كنت أعود كل مساء بفرح شديد إلى منزل والدى ، فكان صدرى ينشرح . وكنت ألعب على ركبتى أبى ، ساردة له الدرجات التى نلتها فى المدرسة ، وكانت القبلة التى يضعها على وجهى تنسينى كل همومى ، وبأى فرح ذكرت لوالدى نتيجة مسابقتى الأولى التى حصلت فيها على الدرجة القصوى ! ومنحت قطعة نقود صغيرة ناصعة البياض وضعتها فى « حصالتى » المخصص ايرادها للفقراء ، والتى كانت تتقبل يوم الخميس من كل أسبوع قطعة جديدة ، أجل ، لقد كنت فى حاجة ماسة لمثل هذا التدليل ، وكان ضرورياً للزهرة الصغيرة أن تمد جذورها الضعيفة فى التربة العائلية المحبوبة والمختارة ، لأنها لم تكن تجد الا فيها الغذاء اللازم لبقائها .

كانت عطلتنا الأسبوعية يوم الخميس غير أنى لم أكن أعترف بالأجازات التى كانت بولين تمنحنى اياها ، وكنت أقضى أكثرها مع والدى فى الفراندة بين المناظر الفتانة . ولما كنت أجهل أساليب اللعب التى تمارسها بقية رفيقاتى ، فكنت أشعر أنى لست زميلة مسلية لهن ، مع ذلك كنت أسعى إلى تقليدهن دون أن أفلح ! .

كنت أشعر أن لا غنى لى عن سيلين ، و بعدها كنت أسعى إلى ابنة خالى مارى ، لأنها كانت تترك لى الحرية فى اختيار الألعاب التى تروق لى . كنت وإياها متحدتين قلباً وقالباً ، كأنما الله أراد بذلك أن يشعرنا بمصيرنا ودخولنا معا الحياة الرهبانية فى دير الكرمليات [1] .

وكثيراً ما كانت مارى وتريزا تتمثلان بحياة النساك الذين تملأهم التوبة و يكفرون عن ذنوبهم ، ولا يملكون سوى كوخ حقير وحقل قمح وحديقة صغيرة يزرعون فيها بعض الخضروات ، وكان ذلك فى دار خالنا . من ذلك أنهما كانتا تقضيان نهارهما فى تأملات متواصلة ، بمعنى أنهما كانتا تتناو بان الصلاة دون انقطاع ، حتى أنهما فى الطريق كانتا تتلوان المسبحة على أصابعهما ، كيلا تتظاهران أمام المارة بالعبادة . وحدث مرة أن أعطيت تريزا قطعة من الحلوى ، وقبل أن تأكلها نسيت أنها فى الطريق فرسمت إشارة الصليب بطريقة ظاهرة ، ولفت هذا الأمر أنظار المارة ، فلم يستطيعوا حبس الابتسامة عن شفاههم .

كان اتحاد ارادتنا بتجاوز أحياناً كل حد ، من ذلك أننا كنا عائدتين من المدرسة ، وعزمنا على تقليد النساك فى احتشامهم ، فقلت لمارى أن تقودنى وقد عزمت على إغماض عينى ، فما كان منها الا أن قالت لى بأنها ستفعل هى أيضاً كذلك .. وهكذا نفذ كل منا غرضه ، وكنا نسير إذ ذاك على أفريز الطريق ، فلم

---

(١) دخلت مارى جيران دير الكرمل بليزيو فى ١٥ أغسطس سنة ١٨٩٥ ، وقدمت نذورها متخذة اسم « مارى للافخارستيا » . وقد اشتهرت بروح فضيلة الفقر ، و بصبرها على الآلام الشديدة مدة طويلة ، وقد وافتها المنية فى ١٤ ابريل سنة ١٩٠٥ وهى فى الرابعة والثلاثين من عمرها .

نخش الإصطدام بالمركبات .. ولكن بعد مرور دقائق معدودة من بداية هذه النزهة السارة ، التى تمتعت فيها الطائشتان بلذة السير دون ابصار ، سقطتا سوياً على مجموعة صناديق موضوعة عل باب أحد الحوانيت ، فانقلبت كلها بمحتوياتها ! أما المتعاميتان فنهضتا فى الحال ، وسارتا فاتحتين أعينهما وآذانهما جيدا ، لتسمعا التوبيخات العادلة التى وجهتها اليهما « جان » (٢) وقد كانت فى غضبها لا تقل حنقاً عن التاجر نفسه .

لم أذكر بعد شيئاً عن علاقاتى الجديدة بسيلين .. ففى ليز يو تبدلت الأدوار : أصبحت سيلين بعد هدوئها الأول شقية وكلها مكر ، كما أضحت تر يزا طفلة صغيرة وديعة ، غير أنها سر يعة البكاء ، وفى حاجة إلى من يتولى الدفاع عنها ، و بأى أقدام تولت أختى الصغيرة هذه المهمة ! وكثيرا ما كنا نتبادل الهدايا الصغيرة ، وكان ذلك يسبب لنا سعادة لا مثيل لها ، لأننا لمن نكن بعد قد عركنا الحياة ، وكانت نفسنا فى نضارتها تتفتح كما تتفتح هذه الزهرة فى الربيع ، ثم أن أفراحنا كانت مشتركة ، وقد شعرت بحقيقة هذا الأمر فى ذلك اليوم السعيد ، عندما تناولت سيلين للمرة الأولى .

كم يسعدنى أن أذكر استعدادها للمناولة الأولى ! كنت إذ ذاك فى السابعة من عمرى ، ولا أذهب بعد إلى المدرسة ، وكنت يا أمى فى كل مساء تلقين عليها كلمة عن العمل العظيم الذى تقدم عليه . أما أنا ، فكنت أصغى بشغف زائد للاستعداد بدورى ، وعندما ، كان يطلب الى الانصراف نظراً لصغر سنى ، كان قلبى يتفطر حزنا ، ظنا منى أنه ليس كثيراً على ابنة أربع سنوات أن تستعد لتناول جسد الرب ! وفى إحدى الأيام سمعت هذه العبارة موجهة إلى أختى الصغيرة السعيدة : « من يوم المناولة الأولى ، عليك أن تبدئى حياة جديدة » . وفى الحال قطعت على نفسى عهداً أن أبدأ مع سيلين حياة جديدة دون انتظار ذلك اليوم المبارك . وفى أثناء رياضتها الروحية الإعدادية ، لزمت الدير مع البنات

---

(٢) ابنة خالها .

الداخليات ، وغيابها القصير بدأ لى طويلا جدا .. أخيراً حل ذلك اليوم السعيد ، الذى ترك فى نفسى انطباعا حلواً ! فقد كان بمثابة تمهيد ليوم مناولتى الأولى .. إنى أعد ذلك اليوم من أجل الأيام التى قضيتها فى حياتى (٣) !

إنى عدت إلى الوراء قليلا لأجدد هذه الذكرى الحلوة ، أما الآن فينبغى أن أتكلم عن الفراق المؤلم الذى جاء ليفتت قلبى ، يوم نزع يسوع عنى « أمى الصغيرة المحبوبة » . سبق أن قلت لها أنى أود أن أذهب وإياها إلى صحراء بعيدة ، فكان جوابها أن رغبتى هى رغبتها بالذات ، غير أنها ستنتظر حتى أكبر فأستطيع الرحيل ، وأخذت تريزا الصغيرة مأخذ الجد ذلك الوعد الذى يستحيل تحقيقه ! لذا تألمت كثيراً عندما سمعت أختها العزيزة بولين تخاطب مارى فى أمر دخولها دير الكرمل قريباً ! ما كنت أعرف الكرمل ، غير أنى أدركت أنها ستتركنى وحدى لتدخل إلى الدير ، ولن تنتظرنى ..

كيف أقدر أن أصف حزن قلبى ؟ ففى لحظة واحدة تجلت لى الحياة على حقيقتها : انها مليئة بالآلام والفراق المتواصل ! فسكبت دموعاً مريرة .. كنت أجهل حينذاك لذة التضحية ، كنت ضعيفة جداً ، حتى أنى أعدها نعمة عظيمة أن استطعت احتمال تجربة تفوق فى الظاهر قواى ولم أمت منها ! سأذكر دائما ذلك الحنان الفائق الذى به عزيتنى يا أمى الصغيرة يوم شرحت لى معيشة الدير ، فذات مساء ، بينما كنت أردد فى قلبى الصورة التى رسمتها لى عن الدير ، شعرت بأن الكرمل هو ذاك الصحراء الذى يريد يسوع أن يخبئنى فيه أنا أيضاً ! وكان شعورى بذلك قوياً جداً لا يخالجه أدنى ريب ، فلم يكن إذا من قبيل أضغاث الأحلام التى ينقاد اليها الأطفال ، بل كانت دعوة إلهية أكيدة ، وذلك الانطباع الذى أعجز عن تبيانه تركنى فى هدوء عظيم !

فى اليوم التالى ، كاشفت بولين بأمنيتى هذه ، فاعتبرتها بمثابة إرادة السماء ،

---

(٣) ٨ مايو سنة ١٩٨٤ .

ووعدتنى بأن تقدمنى فى أقرب فرصة إلى الأم رئيسة الدير، كى اطلعها على سرى .

اختير يوم الأحد لتلك الزيارة الهامة ، إلا أن ارتباكى كان عظيما عندما علمت أن مارى ابنة خالى سترافقنى إلى هناك ، مع أن سنها لا يسمح بمشاهدة الكرمليات ، كان من اللازم والحالة هذه أن أجد وسيلة للاختلاء بالأم الرئيسة ، وهاك ما جال فى خاطرى : أفهمت مارى أننا ، وقد حزنا على ميزة المثول فى حضرة الأم الرئيسة ، لابد أن نبدى منتهى اللطف والأدب ، وأن نعهد اليها بأسرارنا ، ولذلك يجب أن تخرج كل واحدة منا بدورها بعض الوقت ، ليتسنى للأخرى الاختلاء بالأم الرئيسة ، وبذا أمنت مارى على قولى ، فتمكنت أن أخلو بالأم مارى دى جونزاج ، فاستمعت إلى ووثقت من دعوتى ، غير أنها أفهمتنى أن الدير لا يقبل مبتدئة فى التاسعة من عمرها ، وأنه يلزمنى الانتظار حتى السادسة عشرة .. اضطررت إلى الإذعان بالرغم من رغبتى الشديدة فى الدخول مع بولين ، وقبول المناولة الأولى يوم لبسها الثوب الرهبانى !

أخيرا حل اليوم الثانى من أكتوبر! يوم الدموع والبركات ، الذى اقتطف فيه يسوع أولى زهراته ، الزهرة المختارة التى ستصير بعد سنوات قليلة أما لأخواتها !

بينما كان والدنا المحبوب يتسلق بصحبة خالى ومارى جبل الكرمل كى يقدم قربانه الأول ، كانت زوجة خالى تقتادنى أنا وليونى وسيلين إلى القداس . وعند دخولنا الكنيسة كنا نذرف العبرات حتى أن هذا الأمر كان موضع دهشة الناظرين الينا ، بيد أن ذلك لم يمنعنى من الاسترسال فى البكاء ! وكنت أتساءل كيف تستطيع الشمس أن تسطع بعد على الأرض ! ..

ربما ألقيتنى يا أمى الصغيرة مبالغة بعض الشىء فى وصف ألمى .. فعلا ، أنى أدرك الآن أن رحيلها ما كان ليحزننى إلى هذا الحد ، لكن يجب أن أقر بأن نفسى لم تكن قد نضجت بعد ، وكان لابد لى من اجتياز بواتق عديدة قبل الوصول إلى بر السلام ، حيث أتمكن من الاستمتاع بثمار الاستسلام التام والمحبة الكاملة !

بعد ظهر ذلك اليوم الثانى من أكتوبر سنة ١٨٨٢ ، شاهدت من خلال حاجز الكرمل عزيزتى بولين ، بعد أن أصبحت الراهبة « أغنيس ليسوع (٤) آه ! ما أشد عذابى فى ذلك المكان ! بما أنى أكتب ترجمة حياتى أرى من الواجب أن أبوح بكل شىء ، وعليه أعترف بأنى أعتبر كلا شىء آلام فراقنا بالنسبة لتلك التى تلتها .. فقد كنت أعتدت مخاطبة أمى الصغيرة قلباً إلى قلب ، أصبحت الآن لا أحصل الا بعد العناء الشديد على دقيقتين أو ثلاث لمحادثتها عند انتهاء زيارة أفراد الأسرة لها ! وغنى عن القول أنى كنت أقضى تلك البرهة الوجيزة فى سكب الدموع (٥) ثم أنصرف وقلبى ممزق !

وما كنت أدرك أنه من المحال أن يخصص لكل واحدة منا نصف ساعة ، وأنه من اللازم أن يعطى معظم الوقت المحدد لوالدى المحبوب وأختى مارى .. أجل ، لم أفهم ذلك ! وكنت أقول فى أعماق قلبى : فقدت بولين ! ثم أخذ عقلى ينمو نموا مدهشاً وسط الآلام ، إلى حد أنى أصبت بداء عضال ..

أنى متأكدة بأن مرضى كان ناجما عن حسد الشيطان ، الذى ثار لدخول أختى فى الكرمل ، وأراد أن يثأر لنفسه منى بسبب الخسارة الجسيمة التى كانت أسرتنا لتلحقها به ، فى المستقبل ، الا أنه كان يجهل أن ملكة السماء كانت تسهر كل السهر على زهرتها الصغيرة ، مبتسمة لها من العلا ، وتتأهب لتسكين العاصفة وحماية زهرتها المختارة ، التى كان يخشى على ساقها النحيف الرقيق من أن يصاب بكسر لا يلتئم .

وفى نهاية سنة ١٨٨٢ انتابنى صداع متواصل ، لكنه محتمل ، ولم يمنعنى من مواصلة دروسى . ولازمنى الداء حتى عيد فصح سنة ١٨٨٣ ، وكان والدى قد رحل فى ذلك الوقت إلى باريس ومعه أختى مارى وليونى ، ووكل أمرى وأمر سيلين إلى خالى وزوجته .

---

(٤) توفيت الأخت أغنيس ليسوع فى ٢٨ يوليو سنة ١٩٥١ وهى فى التسعين من عمرها ، وقد عينها البابا بيوس الحادى عشر رئيسة لدير الكرمل بليزيو ، وظلت كذلك مدة خمسين سنة .

(٥) تحدد قاعدة الدير مدة الزيارة .

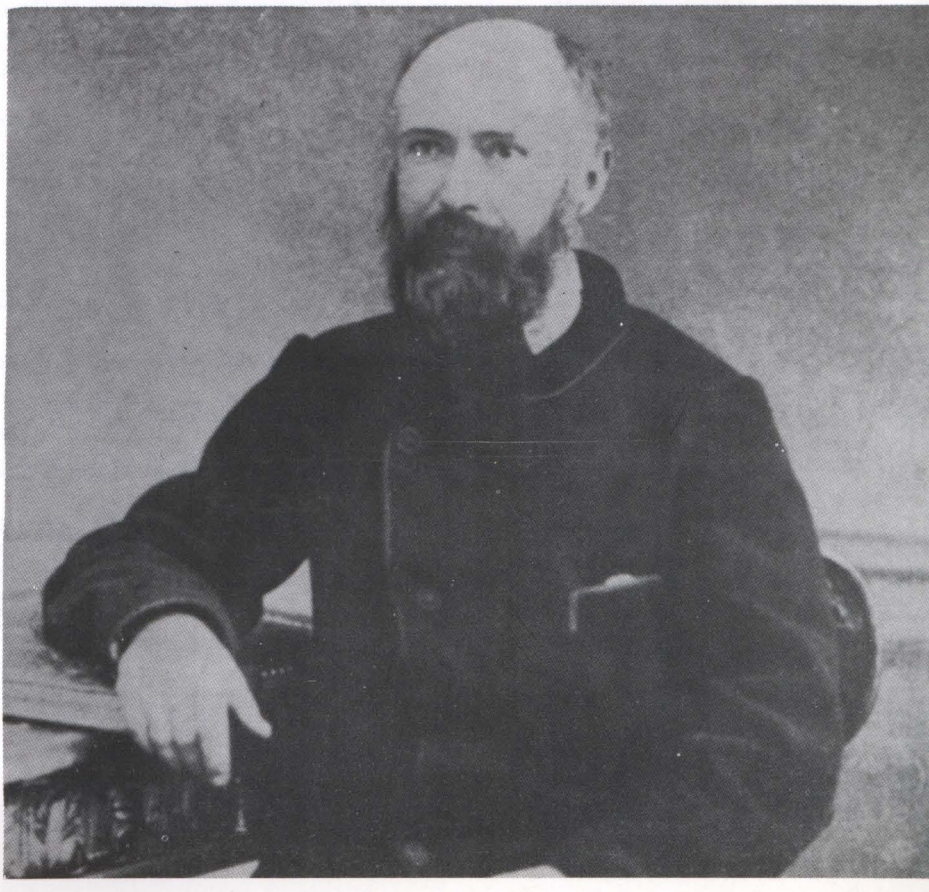

« أنى ولدت من والدين قديسين غمرانا سوية بالعناية نفسها والانعطاف ذاته فليتنازلا و يباركا صغيرة أولادهما ، وليكونا لها مساعدين على تمجيد المراحم الإلهية » .

القديسة تريـزا

وذات مساء ، بينما كنت وحدى مع خالى ، أخذ يحدثنى عن والدتى وعن ذكريات الماضى ، وذلك بحنان أثر فى أشد تأثير ، حتى أن الدموع انسابت من عينى ! غير أن تأثرى هذا حرك قلبه وجعله يندهش من العاطفة الرقيقة التى أبديتها ، والتى لا تتفق مع حداثة سنى وقتئذ ، وعزم على تسليتى خلال الأجازة الصيفية بكل الوسائل المستطاعة .

الا أن الله تعالى كان يرى غير ذلك .. وفى ذاك المساء نفسه ، اشتد صداعى اشتداداً كبيرا ، واعترتنى رعشة غريبة دامت طوال الليل ! ولم تفارقنى زوجة خالى لحظة واحدة بل كانت لى كأم حقيقية ، وشملتنى أثناء مرضى هذا برعاية فائقة الوصف ، ولم تدخر شيئاً من أعمال العناية والتفانى الا بذلته .

إنى لى أن أصف حزن والدنا المسكين لما وجدنى ، عند عودته من باريس ، فى تلك الحالة من المرض التى تدعو إلى اليأس ! قد ظن أنى مشرفة على الموت ، الا أنى أخال سيدنا يسوع المسيح ، له المجد ، يجيبه بهذه الآية الذهبية : « ليس هذا المرض للموت ، بل لأجل مجد الله » (١) . أجل ، قد تمجد الله فى تلك التجربة ، وذلك بالاستسلام العجيب الذى أبداه أبى هو وأخوتى ، وعلى الأخص مارى ، فكم قاست هذه من العناء بسببى ! انى لأعترف بجميل تلك الأخت المحبوبة .. كان قلبها يرشدها إلى الشىء الذى كنت فى حاجة اليه ، حقيقة أن قلب الأم هو أقوى فاعلية بمراحل من معرفة وعلم أمهر الأطباء !

بيد أن يوم ارتدائك الثوب الرهبانى كان يقترب ، يا أماه ، وكان لجميع يتحاشون التحدث به أمامى خشية ازعاجى ، لاعتقادهم يقيناً بعدم امكانى حضور هذا الاحتفال . أما أنا ، فمن صميم الفؤاد كنت واثقة بأن الله تعالى لن يحرمنى من التعزية بمشاهدتك فى ذلك اليوم يا عز يزتى بولين ! أجل أنى كنت متيقنة بأن ذلك العيد سيكون صافيا بلا غيوم .. كنت عالمة بأن يسوع لن يجرب بغيابى خطيبته المختارة ، وهى التى قاست من العذاب ألوانا بسبب مرض ابنتها

---

(١) يوحنا ، ١١ : ٤ .

الصغيرة .. وفعلا تمكنت من معانقة أمى المحبوبة ومن الجلوس على ركبتيها ، بل ومن الاختفاء تحت طرحتها الرهبانية والتمتع بتدليلها العذب .. تمكنت أيضاً من مشاهدتها وهى غاية فى البهاء تحت ردائها الأبيض .. حقا أنه كان يوما جميلاً (٧) فى وسط تجربتى المظلمة ! غير أن ذلك النهار ، أو بالحرى تلك الساعة مضت سريعة ، وكان من اللازم أن نركب العربة التى حملتنا بعيدا عن الكرمل .

عند وصولنا إلى المنزل أمرت بأن ألزم الفراش ، مع أنى ما كنت أشعر بتعب البتة . وفى الغد عاودنى المرض ، واشتدت على وطأته حتى يئس البشر ــ طبقاً لحساباتهم ــ من شفائى .

لا أدرى كيف أصف ذلك الداء الغريب .. كنت أفوه بأشياء لم تخطر ببالى قط وأقوم بأعمال عفوا و بالرغم منى ، وكأنى بالهذيان قد لزمنى بدون انقطاع ! غير أنى متيقنة أن رشدى لم يغب غنى لحظة واحدة . كثيراً ما كان يغمى علىَّ ساعات طوالا إغماء يعجزنى عن أتيان أدنى حركة ، غير أنى وسط ذلك السبات الغريب ، كنت أسمع جليا كل ما كان يقال حولى ولو همسا ، ولا أزال أذكره للآن !

كم كان الشيطان يصور لى أشباحاً مزعجة ، فكنت أخاف من كل شىء ! كان يخيل إلى أن فراشى تحيطه من كل جانب هوات مخفية ، وأن المسامير الموجودة بحائط الغرفة أن هى الا أصابع ضخمة سوداء متفحمة ومرعبة ، الأمر الذى يجعلنى أصيح فى كل لحظة لشدة الهلع !

وذات يوم ، بينما كان والدى ينظر إلىَّ صامتاً وممسكاً قبعته بيده ، تحولت هذه القبعة فى الحال إلى صورة أعجز عن وصف بشاعتها ! عندئذ بدأ على محياه رعب شديد ، اضطر والدى بعده إلى الإنصراف متهدجاً من العبر .. غير أن الله وان سمح للشيطان أن يدنو منى بهيئة خارجية ، فإنه كان ، سبحانه تعالى ، يرسل إلى بصورة

---

(٧) ٦ أبريل ١٨٨٣ .

حسية أيضاً ملائكته تعزينى وتقوينى ، فإن مارى لم تغادرنى قط ، ولم يبد منها أى ضجر ، بالرغم من الانزعاج الشديد الذى سببته لها ، والحاحى فى بقائها دائما بجوارى ، حتى فى أوقات تناول الطعام كنت أناديها باكية و بلا انقطاع ، مع أن فيكتور يا كانت تنوب عنها فى رعايتى ، وما كنت أكف عن مثل هذا إلا حين ذهابها للقداس أو لزيارة بولين . وكذلك ليونى وسيلين ، فلم تتركا شيئاً لم تفعلاه فى سبيل ارضائى : كانتا تأتيان كل أحد ، وتحتبسان ساعات بكاملها مع طفلة يائسة كانت تبدو كالبلهاء .. آه ! كم عذبتكما يا شقيقتى الصغيرتين العزيزتين !

كان خالى وزوجته أيضاً يعطفان على بقلب ملؤه الحنان : فهذه الأخيرة كانت تعودنى يوميا حاملة لى من الهدايا أصنافاً (٨) . ان حبى لهما تزايد إبان مرضى تزايدا يعجز اللسان عن وصفه ، وقد فهمت أكثر من ذى قبل معنى الكلام الذى كان يردده علينا والدنا المحبوب بقوله : « لا تنسين يا بنياتى خالكن وزوجته ، بل اذكرن دائما أن اخلاصهما لكن نادر المثال » . وقد اختبر هو نفسه فى شيخوخته هذا الحنان . ولابد أنه يحمى و يبارك الآن من قدما له هذه العناية الخالصة .

عندما كانت تخف وطأة الألم قليلا ، كنت أصرف وقتى متلذذة فى صنع أكاليل من الأقحوان والبنفسج لتقديمها إلى العذراء مريم ، وقد كنا فى شهرها المبارك الذى تزداد فيه الطبيعة بأبهى زهور الربيع . أما الزهيرة المسكينة ، فقد كانت هى وحدها تذبل ذبولا لا دواء له ! بيد أنه كانت توجد بجوارها شمس ،

---

(٨) عرفت تريزا من أعلى السماء كيف تكافىء زوجة خالها على اهتمامها الزائد بأمر تربيتها ، أن تريزا حمتها بشكل ظاهر أثناء مرضها الأخير ، فذات صباح وجدت هادئة مشعة الوجه وهى تقول : « كنت أتألم كثيراً ، الا أن صغيرتى تريزا سهرت على بحنان ، فشعرت طول الليل بوجودها بالقرب من سريرى ، وقد لاطفتنى تكراراً فأولتنى بذلك شجاعة خارقة العادة ! » عاشت مدام جيران اثنين وخمسين عاما ، وماتت ميتة القديسين وهى تردد هذه الكلمات والابتسامة على ثغرها : « كم يلذ لى أن أموت ! ما أعذب الانطلاق لمشاهدة الرب — يا يسوع ، أنى أحبك ! ها أنى أقدم لك حياتى لأجل الكهنة ، كما فعلت صغيرتى تريزا ليسوع الطفل ، كان ذلك فى ١٣ فبراير سنة ١٩٠٠ أما السيد جيران فبعد أن قضى سنين عديدة واقفاً قلمه للمدافعة عن الكنيسة ، وثروته لأعمال البر ، رقد فى الرب فى التاسعة والستين من عمره ، ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٠٩ وقد كان عضوا فى الرهبانية الكرملية الثالثة الخاصة بالعلمانيين .

الا وهى تمثال ملكة السموات العجائبى .. وكثيراً ، بل وكثيراً جداً ، ما كانت الزهيرة تدير كمها صوب ذلك الكوكب المبارك ..

فى ذات يوم ، رأيت والدى يدخل إلى غرفتى وعلى محياه دلائل التأثر الشديد ، وتقدم من مارى حزيناً جداً ، ثم وضع فى يدها كمية من النقود الذهبية ، وكلفها أن تكتب إلى باريس طالبة إقامة تساعية من القداديس فى كنيسة سيدة النصر ، لنيل نعمة شفاء ملكته الصغيرة . آه ! ما كان أشد تأثرى لمشاهدة إيمانه وحبه لى ! كم تمنيت أن أنهض وأبشره بشفائى ، لكن وا أسفاه ! ان تمنياتى أبعد من أن تصنع أعجوبة بينما كنت أشد الحاجة إلى معجزة كبرى ترجعنى إلى الحياة ! أجل كان لا بد لى من أعجوبة عظيمة ، وهذه الأعجوبة حدثت بفعل سيدة النصر :

فى يوم أحد العنصرة(٩) الواقع خلال التساعية ، خرجت مارى إلى الحديقة تاركة أمر رعايتى إلى ليونى ، التى كانت تقرأ بالقرب من النافذة . لم تمض دقائق حتى أخذت فى النداء بصوت خافت : « مارى .. مارى .. » أما ليونى ، فلكونها اعتادت أن تسمع منى مثل هذا الأنين ، فلم تعر الأمر اهتماماً ، حينذاك صرخت بصوت مرتفع جداً ، فعادت إلى مارى ورأيتها بأم العين داخله ، لكن وا أسفاه ! لأول مرة لم أتعرف عليها ! أخذت أجيل عينى هنا وهناك ، ثم ألقيت باضطراب نظرة قلقة إلى الحديقة ، وعدت إلى النداء : « مارى .. مارى .. » .

أما الألم الذى قاسيته من جراء هذا النضال العنيف ، فأمر يفوق الوصف ، وربما كان عذاب مارى فى تلك الآونة أشد من عذاب شقيقتها تريزا المسكينة . أخيراً ، بعد أن حاولت عبثاً أن تحملنى على التعرف عليها ، التفتت إلى ليونى وهمست فى أذنها كلمة ، ثم توارت شاحبة اللون مرتجفة .

أسرعت صغيرتى ليونى وحملتنى بالقرب من النافذة ، فأبصرت من هناك مارى لكن دون التعرف عليها فى هذه المرة أيضاً ، وهى تتقدم ببطء فى الحديقة ، باسطة

---

(٩) ١٣ مايو سنة ١٨٨٣ .

لى ذراعيها مبتسمة ، وتناديني بصوت ملؤه العذوبة : « تريزا ، صغيرتى تريزا .. » ولما لم تفلح شقيقتاى ولا بتلك الحيلة أيضاً ، جثت مارى باكية بالقرب من سريرى .. ثم التفت إلى تمثال العذراء المباركة مبتهلة بحرارة الأم التى تسأل ، بل تريد حياة طفلتها ! وحذت حذوها ليونى وسيلين ، وخيل إلى فى تلك اللحظة أن صيحة إيمانهن دفعت باب السماء فانفتح !

وإذا كنت قد يئست من كل عون أرضى ، وأشرفت على الموت من شدة الألم ، حولت أنا أيضاً نظرى نحو أمى السماوية ، طالبة إليها من صميم الفؤاد أن تتنازل وترأف بحالتى .

وفجأة دبت الحياة فى التمثال ، وأضحت العذراء مريم جميلة ، بل جميلة إلى حد أنى لن أستطيع أبدا أن أجد عبارة تليق لوصف لذلك الجمال الالهى .. كان محياها ينم عن دعة ولطف وحنان يفوق الوصف ! أما الأمر الذى نفذ حتى أعماق نفسى فهو ابتسامتها الفتانة ! وإذ ذاك زالت كل أوجاعى ، وفاضت دمعتان كبيرتان من مقلتى والصمت يتولانى ..

آه ما هما الا دمعتا فرح سماوى خالص ! فقد تقدمت نحوى سيدتنا العذراء ، وابتسمت لى ، فقلت فى نفسى : « ما أسعدنى ! ... ولكن لن أخبر بذلك أحداً ، خشية أن تزول سعادتى » . ثم خفضت عينى بلا عناء البتة ، فتعرفت على شقيقتى مارى العزيزة ، التى كانت تنظر إلى بحنان زائد وعليها إمارات التأثر الشديد ، وبدت وكأنها تعرف أمر النعمة العظيمة التى حصلت عليها منذ هنيهة يسيرة ...

أجل ، أنى لمدينة لها ولصلواتها الحارة بتلك العطية العظيمة ، ألا وهى ابتسامة سيدتنا العذراء المجيدة . حين رأت نظرى شاخصاً إلى التمثال ، قالت فى نفسها : « لقد شفيت تريزا ! » نعم ، قد عادت الحياة إلى الزهيرة بفضل العذراء مريم ، إذ أن شعاعاً بهياً « من شمسها اللطيفة » كان قد أدفأها وخلصها إلى الأبد من عدوها القاسى . « فإن الشتاء قد مضى والمطرفات وزال » . وانتعشت زهرة العذراء ، وما لبثت أن تفتحت أكمامها بعد خمسة أعوام على جبل الكرمل الخصيب .

ثم أن مارى ، كما سبق وذكرت ، كانت على يقين من أن العذراء بارجاعها إلى الصحة وهبتنى نعمة سرية ، لذا عندما انفردنا ، لم أقو على مقاومة أسئلتها اللطيفة الملحة ، ولما ألفيت والاندهاش يتولانى أن سرى قد انكشف دون أن ألفظ بكلمة واحدة ، استودعتها اياه بكامله . لكن وا أسفاه ! لم يخطىء ظنى ، فإن سعادتى اختفت وانقلبت إلى مرارة ، وقد أضحت ذكرى تلك العطية الفائقة الطبيعة طيلة أربع أعوام مصدر عذاب حقيقى لنفسى ، ولم أستعد سعادتى الا تحت أقدام سيدة النصر فى مزارها المبارك ، فهناك أعيدت إلى تلك السعادة بكاملها ، وسأتكلم فيما بعد عن تلك النعمة الثانية .

وهاك كيف انقلب فرحى إلى حزن : بعد أن سمعت مارى قصة « نعمتى » التى رويتها لها بسذاجة وصدق ، استأذنتنى فى أن تبوح بها إلى دير الكرمل ، فلم يسعنى سوى اجابتها إلى طلبها ولدى زيارتى الأولى لهذا الكرمل المبارك ، امتلأت فرحاً عندما رأيت شقيقتى بولين مرتدية ثوب العذراء المبارك ! كان أحلى تلك اللحظة على قلبينا ! كان لكليتنا أشياء كثيرة نتحدث بها ، وقد كنا تعذبنا كثيراً .. أما أنا فكنت أكاد لا أستطيع الكلام لكثرة ما فى قلبى من أشجان ! قابلت أيضاً الأم الفاضلة مارى دى جونزاج ، وبأى عاطفة حب غمرتنى ! حظيت كذلك بمشاهدة راهبات أخريات سألننى عن أعجوبة شفائى ، فمنهن من ابتغين معرفة ما إذا كانت العذراء تحمل الطفل يسوع عندما ظهرت لى ، وغيرهن ما إذا كانت مصحوبة بالملائكة .. الخ . وكانت كل هذه الأسئلة تزعجنى وتؤلمنى ، ولم يكن فى استطاعتى أن أجيب إلا بهذه العبارة : « لقد بدت لى العذراء الطوباوية جميلة جداً ، ورأيتها تتقدم نحوى والإبتسامة على محياها » .

وإذ تبين لى أن بعض الراهبات كن يتوهمن غير ما ذكرت ، كنت أظن أنى كذبت فيما قلت . آه ! لو كنت كتمت سرى ، لحافظت أيضا على سعادتى ! غير أن العذراء مريم سمحت بذاك الألم لخير نفسى ، إذ لولاه ربما تسلل الافتخار الكاذب إلى قلبى .. فبدلا من ذلك ، أصبح التواضع حليفى ، وما عدت أنظر إلى ذاتى دون أن يعترينى نفور شديد ! ربى .. أنت وحدك تعلم ما قاسيت ! .

الفصـــل الرابـــع

المناولة الأولى ــ سر الثبيت ــ أنوار وظلمات
ــ فراق جديد ــ نجاتها من آلامها الباطنية بنعمة الله

ان كلامى عن ز يارتى هذه لدير الكرمل يذكرنى بز يارتى الأولى له أثر دخول بولين : فى صباح ذلك اليوم ، كنت أتساءل عن الإسم الذى سوف يعطى لى فيما بعد ، وكنت عالمة بوجود راهبة تدعى الأخت تر يزا ليسوع ، ولكن لا أر يد أن ينزع منى اسم تر يزا اللطيف . وفجأة توجه فكرى نحو الطفل يسوع الذى شغفت بحبه ، فقلت فى نفسى : آه ! ما أسعدنى لو دعيت باسم تر يزا ليسوع الطفل ! على أنى كنت أخشى الافصاح عن رغبتى هذه ، لكن الأم الرئيسة فاجأتنى وسط الحديث بقولها : « عندما تصبحين واحدة منا ، يا ابنتى العز يزة ، ستدعين تر يزا ليسوع الطفل » . فامتلأ قلبى فرحاً بذلك ، وحسبت اتفاق فكرتينا هذا ما هو الا تلطف من حبيبى يسوع الطفل ! .

لم أتكلم إلى الآن عن حبى الشديد للصور والمطالعة ، فى حين أنى مدينة جداً ، يا أمى العز يزة ، لتلك الصور الجميلة التى كنت تر ينيها بأعذب الأفراح و بأشد الانطباعات التى حملتنى على ممارسة الفضيلة .. كنت أقضى الساعات الطوال فى النظر اليها ، فمن ذلك صورة « زهيرة السجين الإلهى » التى كانت توحى الى بأشياء كثيرة ، إلى حد أنها كانت تتركنى طو يلا فى نوع من الاختطاف الروحى . فقدمت ذاتى ليسوع كى أكون زهيرته .. أردت تعز يته باقترابى أنا أيضاً من بيت القر بان المقدس ، حيث يسهر على هو بذاته ، و يعتنى بأمر تر بيتى ، ثم يقطفنى متى أراد بيده الإلهية .

بما أنى أجهل طر يقة ممارسة الألعاب ، كنت أقضى معظم وقتى فى القراءة . لحسن الحظ كان لى ملائكة منظور ين يرشدوننى إلى اختيار الكتب التى تناسب

سنى ، والتى فيها تسليتى ، وفى الوقت نفسه تغذية روحى وقلبى . لم أكن أصرف فى سبيل تلك التسلية المنتخبة سوى وقت محدود ، الأمر الذى كان يضطرنى إلى تضحيات شديدة ، إذ أننى عند انتهاء الوقت المعين ، كنت أوجب على نفسى الانقطاع عن القراءة فوراً ، ولو كنت قد وصلت إلى ألذ فقرة فى الكتاب !

أما عن أثر هذه القراءة فى نفسى ، فيجب أن أعترف بأنى إذ كنت أقرأ بعض روايات الفروسية لم أكن دائماً أدرك الناحية الواقعية من الحياة .. من ذلك أنى كنت أعجب بما حققته البطلات الفرنسيات من الأعمال الوطنية ــ ولا سيما المطوبة جان دارك ــ أشعر برغبة شديدة فى الاقتداء بهن . وحينذاك أوتيت نعمة اعتبرها دائماً من أجل النعم التى نلتها فى حياتى : فإنى لم أكن فى تلك السن قد وهبت نور الهداية العلوية ، التى يفيضها الله على الآن .

أفهمنى يسوع أن المجد الحقيقى الوحيد هو المجد الذى يدوم إلى الأبد ، وأنه إذا طلبه المرء فلا يتحتم عليه أن يقوم بأعمال باهرة ، بل عليه أن يتوارى عن أعين الغير وعن نفسه ، بحيث « تجهل يده اليسرى ما تفعل اليمنى » (١) . ولما كنت أظننى قد خلقت للمجد ، وكنت أبحث عن السبيل اليه ، ألهمت فى قلبى أن مجدى أنا لن يبدو أبداً لأعين الناس ، بل قوامه أن أسعى لأصبح قديسة !

قد تلوح هذه الرغبة جريئة لمن يتأمل كم كان يعترينى من نقص ، وكم فى اليوم منه ، مع أنى قضيت كل هذه السنين الطوال فى الرهبنة ! على أنى لا أزال أثق تلك الثقة الجريئة عينها ، بأننى سأصبح « قديسة كبيرة » ولا أعتمد فى ذلك على استحقاق أنا ، إذ لا أستحق شيئاً ، لكنى أعقد آمالى على من هو الفضيلة والقداسة عينها ، فهو وحده يقنع بجهودى الضعيفة ، وسوف يرفعنى حتى مقامه السامى ، و يفيض على استحقاقه هو ، ويجعل منى قديسة ! وما كنت أعلم حينئذ أنه يجب على المرء أن يتألم كثيراً ليبلغ القداسة ، ولكن الله تعالى لم يلبث أن كشف لى هذا السر عن طريق التجارب التى رو يتها فيما تقدم .

---

(١) متى ، ٦ : ٣ .

والآن أعود إلى حيث قطعت قصتى : مضت ثلاثة أشهر على شفائى ، فرتب لى والدى رحلة جميلة ، بدأت فى خلالها أن أتعرف على العالم ، ولم ألق فيها الا السرور والسعادة ، إذ كنت موضع الحفاوة والملاطفة والإعجاب ، وقصارى القول ، كانت حياتى خلال خمسة عشر يوما كلها زهور . وكم صدق سفر الحكمة بقوله : « ان سحر الأباطيل يغوى حتى النفس البعيدة عن الشر » [٢] لعمرى ، ان قلب الإنسان فى العاشرة من عمره لسريع الاغترار ، وأنا أعترف أن هذه الحياة كانت تروقنى ! أواه ! ما أمهر العالم فى الجمع بين بهجة الدنيا وخدمة الله ، وما أقل تأمله فى الموت !

ومع ذلك ، فإن الموت قد زار كثيرين ممن عرفتهم وكانوا فتيانا ، أغنياء وسعداء ! يطيب لى أن أعود بفكرى إلى تلك الأماكن الفاتنة حيث أقاموا ، وأن أسأل نفسى أين هم ، وماذا تجديهم اليوم تلك القصور والحدائق التى رأيتهم فيها يتنعمون برغد الحياة ! حينئذ كنت أقول فى نفسى : « كل شىء على الأرض باطل ، ما عدا محبة الله وخدمته وحده » [٣] .

ولربما أراد يسوع أن يعرفنى العالم قبل أن يزور نفسى للمرة الأولى ، ليترك لى الخيار عن رغبة أوكد ، لأجد تلك السبيل التى قدر لى أن أعده بانتهاجها .

ستبقى مناولتى الأولى تذكارا لا يشوبه أى سحاب ، ولا أظن أنه كان فى وسعى أن أكون أكثر استعدادا لها . هل تذكرين يا أماه الكتاب الشيق الذى أعطيتنى إياه قبل هذا اليوم العظيم بثلاثة شهور؟ لقد كان لى هذا الكتاب الصغير وسيلة ظريفة تأهبت بها لذلك اليوم تأهباً مطرداً سريعاً . كنت أفكر منذ أمد بعيد فى مناولتى الأولى ، غير أنه كان ينبغى على مع ذلك أن أبعث فى قلبى انطلاقاً جديداً ، وأن أملأه أزهاراً جديدة عملا بارشادات هذا المؤلف القيم . لذلك كنت آتى كل يوم كثيراً من أعمال التضحية والمحبة ، وكانت تتحول إلى أزهار ، كل

---

(٢) حكمة ، ٤ : ١٢ .

(٣) جامعة ، ١ : ٢ .

واحد منها إلى زهرة : فمنها البنفسج ومنها الورد ، ومنها أبيض الأقحوان ، وقصارى القول ، كنت أوجه عنايتى إلى أن أتخذ من الطبيعة أزهاراً كلها ، لتكون مهدا أهيئه ليسوع فى نفسى .

هذا وكانت مارى تحل محل بولين بالنسبة لى ، أجلس اليها طويلا كل مساء متلهفة إلى سماع كلامها . ما أجمل ما كانت تقوله لى ! فكأن فؤادها كله ، فؤادها الكبير الكريم يحل بى ! كما كان أهل الحرب فى العصور الخالية يعلمون أبناءهم فن القتال ، كذلك كانت بولين تعلمنى القتال فى مضمار الحياة ، فتستثير حميتى وتوجه نظرى إلى أكاليل النصر العلوية المجيدة . وكانت تحدثنى أيضا عن الكنوز الخالدة التى يسهل علينا جمعها كل يوم ، وما يحل بنا من التعاسة إذ نيطؤها بالأقدام ، وحسبنا أن ننحنى أمامها لنلتقطها !

فما كان أبلغ هذه الشقيقة الحبيبة ! كان بودى ألا أنفرد وحدى بسماع تعاليمها العميقة ، وكنت أظن لسذاجتى أنه لو سمعها شر الخطأة لأهتدى ، فنبذ ثروته الزائلة وما طلب الا الثروة السماوية .

كنت أود حينذاك لو أعمد إلى الصلاة العقلية ، لكن مارى ترانى على جانب كاف من التقوى ، فلم تسمح لى الا بصلواتى الشفوية . وذات يوم ، سألتنى إحدى معلماتى فى مدرسة الدير عما يشغلنى فى أيام العطلة التى كنت أقضيها فى دار الأسرة ، فأجبتها بحياء : « انى يا سيدتى كثيراً ما أختبىء فى ناحية خالية من نواحى غرفتى ، يسهل على أن أحجبها بستار سر يرى ، وهناك أفكر . . » فقالت لى هذه الراهبة الحنون وهى تبتسم : « ولكن ، فيما تفكرين ؟ » فأجبتها : « أتأمل فى الرب وفى سرعة الحياة وفى الأبدية . . أفكر وكفى ! » لم تنس معلمتى هذه الخاطرة ، فكان يحلو لها فيما بعد أن تذكرنى بالزمن الذى كنت فيه أفكر . وكانت تسألنى ما إذا كنت لا أزال أفكر . . وأنا أدرك اليوم أنى كنت إذ ذاك أمارس فعلا الصلاة العقلية ، ومن خلالها كان المعلم الإلهى يعلم قلبى فى رفق ولين !

مضت ثلاثة الأشهر التى تأهبت فيها لمناولتى الأولى ، وسرعان ما حل موعد

الرياضة الروحية التى كان على أن أخلو اليها ، وأن أدخل بسببها القسم الداخلى فى المدرسة . كم كانت مباركة خلوتى ! لا أظن أن سعادة مثل سعادتى توجد خارج الرهبنات ! ذلك لأن عدد التلميذات كان ضئيلا ، فكان يسهل الاعتناء بكل واحدة منهن . نعم ، كانت تحيطنا معلماتنا برعاية هى حقاً أشبه برعاية الأم ، أنى لأكتب ذلك وفى قلبى لهن شكر بنوى عميق . على أن كنت ألحظ انهن كن يحطمننى بعناية أوفر من عنايتهن ببقية رفيقاتى ، وما كنت أدرى لذلك سبباً !

كانت المعلمة الأولى تأتينى كل مساء و بيدها مصباحها الصغير ، فتزيح برفق ستار سريرى ، وتودع على جبينى قبلة كلها حنان . وكانت تظهر لى من العطف ما حملنى ذات مساء أن أقول لها متأثرة من رقة عواطفها : « سيدتى ، أنى أحبك حباً جماً ، لذلك سأبوح اليك بسر عظيم » وعندئذ أخرجت خفية كتاب الكرمل ، ذلك الكتاب القيم الصغير ، الذى كنت أخبئه تحت وسادتى ، فأريتها اياه وعيناى تبرقان فرحاً . ففتحته فى كثير من الرقة ، وتصفحته باهتمام ، ولفتت نظرى إلى مبلغ ما خصصت به من نعم . وفى الواقع ، ثبت عن خبرة أكثر من مرة أثناء رياضتى ، أن القليل من الأولاد الذين حرموا مثلى من والدتهم قد دللوا بقدر ما دللت أنا فى تلك السن . وكنت أصغى بانتباه كبير إلى وعظات الأب دومان فألخصها بعناية . أما تأملاتى أنا ، فلم أشأ أن أدون إيا منها ، إذ كنت أقول فى نفسى أننى سأتذكرها جيدا ، وقد أثبتت الأيام صحة ذلك .

ما كان أسعدنى إذ كنت أحضر جميع الصلوات مثل الراهبات ! كنت أمتاز عن باقى زميلاتى بصليب كبير أعطتنى اياه عز يزتى ليونى ، فكنت أعلقه بحزامى كما تفعل المرسلات ، وقد ظن الجميع أنى كنت أريد بذلك التشبه بشقيقتى الكرملية . والواقع أن فكرى وقلبى كانا يتجهان اليها ! وكنت أعلم أنها هى أيضاً فى رياضة روحية ، لا ليلهبها يسوع نفسه ، ولكن لتهب نفسها له كلية ، فى اليوم عينه الذى كنت سأتناول فيه للمرة الأولى ، فكانت هذه العزلة التى قضيتها فى الانتظار أعذب إلى لهذين السببين .

وأخيراً أشرق لى ذلك اليوم هو أبهج أيام حياتى (٤) فما أحلى الذكريات التى خلفتها فى نفسى بأدق تفاصيلها تلك اللحظات السماوية ، ذكراك يا يقظة الفرح فى الفجر!! ذكراك يا قبلات الاحترام والحنان من المعلمات وكبيرات الرفيقات!! ذكراك يا غرفة اللبس ، تلمؤك كتل بيضاء كالثلج ترتدى فهيا كل طفلة بدورها حلة بيضاء!! ذكراك على الأخص يا ساعة دخولى إلى الكنيسة وترنيم ترنيمة الصباح :

« يا أيها الهيكل المقدس الذى تحيط بك ملائكة السماء .. »

لكننى لا أرغب ولا أستطيع أن أقول كل شى ، فرب عطر يفقد شذاه إذا تعرض للهواء ، ورب فكر كامن فى أعماق النفس لا يمكن الإفصاح عنه بلغة الأرض ، دون أن يتجرد فى الحال مما يضمه من معنى سماوى عميق !

آه ، ما كان أحلى القبلة الأولى ، قبلة يسوع لنفسى ! نعم ، كانت قبلة الحب ! كنت أشعر أنى حبيبة اليه ، وكنت أقول أيضاً : « أنا أحبك .. أنا أهبك نفسى إلى الأبد ! » ولم يعرب لى يسوع عن أى طلب ، لم يطلب أى تضحية .. هو والصغيرة تريزا كانا قد تبادلا الطرف فتفاهما من أمد بعيد ! ففى ذلك اليوم لم يعد جائزاً أن يسمى لقاؤنا مجرد نظرة بل إندماجاً وانصهاراً تاماً .. لم نعد اثنين : كانت تريزا قد زالت كقطرة الماء التى تذوب فى المحيط ، ولم يبق سوى يسوع المسيح وحده .. كان السيد ، كان الملك ! ألم تكن تريزا قد طلبت منه أن يجردها من حريتها ؟ كانت هذه الحرية تفزعها .. كانت تشعر بنفسها ضعيفة واهنة ، حتى أنها أرادت أن تتحد إلى الأبد مع القوة الإلهية .

وكبر فرحها وأصبح عميقاً إلى حد أنه لم يعد فى استطاعتها أن توارى به : فسرعان ما سكبت دموعاً عذبة على مشهد من رفيقاتها اللاتى تولاهن شديد العجب ، فكن يتساءلن فيما بعد : « لماذا بكت ؟ هل شعرت بشىء من تأنيب الضمير ؟ كلا بكت إذ لم تكن بالقرب منها والدتها ولا شقيقتها الكرملية التى تحبها

---

(٤) ٨ مايو سنة ١٨٨٤ .

تريزا حبا جماً ! » ولم تكن واحدة منهن تدرك أنه إذا حل كل ما فى السماء من فرح بقلب منى ضعيف بشرى ، فهو لا يستطيع أن يتحمله دون أن يذرف الدموع ..

كيف يظن أن غياب والدتى يؤلمنى يوم مناولتى الأولى ، ما دامت السماء تحل بنفسى ؟ كنت إذ استقبل يسوع استقبل أيضاً والدتى الحبيبة ، كذلك ما كنت أبكى لغياب بولين ، إذ كنا ساعتئذ أكثر ما يمكن اتحادا ! كلا ، أكرر القول أن البشر وحده ، بل السرور العميق الفائق الوصف كان يملأ قلبى !

بعد الظهر تلوت فعل التكريس لمريم العذراء باسم رفيقاتى . ولا ريب أن معلماتى اخترننى لأنى حرمت من والدتى ، والدتى على الأرض ، وأنا لا أزال طفلة . آه ، لقد كرست نفسى إلى مريم العذراء من أعماق قلبى ، متوسلة اليها أن تسهر على ، و يلوح لى أنها نظرت بحب إلى « زهرتها الصغيرة » وابتسمت لها أيضاً . كنت أتذكر ابتسامتها الواضحة التى شفتنى وأنقذتنى فيما مضى ، كنت أعلم ما أنا مدينة لها به ! ألم تأت هى ذاتها فى صباح هذا اليوم ، ٨ مايو ، لتودع كأس نفسى يسوعها « زهرة الحقول وسوسنة الأودية ؟! (٥) .

فى مساء ذلك اليوم البهيج ، أخذنى أبى بيدى إلى الكرمل .. هناك رأيت عزيزتى بولين ، وقد أصبحت عروس يسوع المسيح : رأيتها بطرحتها البيضاء مثل طرحتى ، و بأكليل الورد الذى كان يزينها . كان سرورى لا يشو به شائبة ، إذ كنت آمل أن ألحق بها عن قريب ، فأنتظر بجانبها السماء ...

لم يمر الحفل العائلى ، الذى أقيم فى « بويسونية » بهذه المناسبة ، دون أن يترك أثرا كبيراً فى نفسى ، كما أن الساعة الجميلة التى أهدانى إياها والدى العزيز سببت لى فرحاً عظيماً ، ومع ذلك كانت غبطتى هادئة ولم يستطع أى شىء أن يعكر صفائى الداخلى . أخيراً طوى الليل هذا الحفل البهيج ، لأن أبهى ضحى مصيره إلى الظلام ! واليوم الوحيد الذى يظل دون غروب هو يوم المناولة الأبدية فى الوطن السماوى !!

---

(٥) نشيد ، ٢ــ١ .

وفى الغد شعرت كأن سحابة من الكآبة خيمت على كل شيء ، فما كانت الأزياء الجميلة والهدايا التى منحتها لتملأ قلبى ... يسوع وحده هو الذى كان فى وسعه أن يكفينى ، وكنت أنتظر فى لهفة تلك اللحظة السعيدة التى أتناوله فيها للمرة الثانية .

كانت هذه المناولة الثانية فى عيد الصعود (٦) وأتيحت لى إذ ذاك سعادة الركوع أمام المائدة المقدسة بين أبى وحبيبتى مارى ، وعادت دموعى تسيل فى هناء لا يوصف ! فكنت أذكر وأردد فى نفسى دون انقطاع كلمات القديس بولس : « وأنا حى ، لا أنا ، بل انما المسيح حى فى ... (٧) ومنذ زارنى يسوع هذه الزيارة الثانية ، ما عدت أشتاق الا لتناوله وقد سمح لى بذلك فى الأعياد الكبرى . وا أسفاه ! كانت الأعياد تبدو لى إذ ذاك متباعدة ، ومتباعدة جداً !!!

فى اليوم السابق على كل من تلك الأيام السعيدة ، كانت مارى تعدنى له كما فعلت لدى مناولتى الأولى . أتذكر أنها حدثتنى مرة عن الألم فقالت لى أن الله تعالى بدلا من أن يدفعنى إلى تلك السبيل قد يحملنى دائما كما يحمل الطفل الصغير .. عادت هذه الكلمات إلى ذهنى بعد مناولتى فى اليوم التالى ، فاشتعل فؤادى بشوق عظيم إلى الألم ، مصحوب بثقة داخلية ، بأنه مكتوب على أن أتحمل الكثير من الصلبان ! وحينئذ حلت بقلبى تعزيات لم أحظ بمثلها طوال حياتى ! أصبح الألم يجذبنى ، وكنت أجد فيه محاسن تخلبنى ، ولكن دون أن أكون قد عرفتها بعد حق المعرفة .

شعرت برغبة أخرى شديدة : هى ألا أحب الا الله ولا أطلب السعادة الا فيه وحده ! وكثيراً ما كنت ، وأنا أرفع صلوات الشكر اليه ، أردد هذه العبارة الواردة فى كتاب « الاقتداء بالمسيح » : « يا يسوع ، يا أيتها العذوبة التى لا توصف ، ألا بدلت لى بحسرة كل ما فى الأرض من تعزيات !! » (٨) وكانت هذه الكلمات

---

(٦) ٢٢ مايو ١٩٨٤ .

(٧) غلاطية ، ٢ : ٢٠ .

(٨) الاقتداء ، ٣ : ٣/٢٦ .

تنبعث من شفتاى دون عناء .. كنت ألفظها كما يردد الطفل بلا فهم ما يلقنه أياه صديق له . سأبين لك فيما بعد ، يا أماه ، كيف طاب للسيد المسيح أن يحقق رجائى ، كيف كان هو وحده فى نظرى العذوبة التى لا توصف . ولو حدثتك الآن عن ذلك لوجب على أن أنتقل إلى سيرتى فى عهد الشباب ، بينما لا تزال لدى تفاصيل كثيرة أرويها لك عن أيام طفولتى .

و بعد مناولتى الأولى بقليل ، انقطعت ثانية إلى ر ياضة روحية استعداداً لتلقى سر التثبيت(٩) . وكنت قد تأهبت بعناية فائقة لز يارة الروح القدس إلى نفسى . كيف لا يعبأ الإنسان كثيراً بحلول هذا السر ، سر المحبة ! ؟ ولم يتم الاحتفال فى الميعاد المحدد له ، فكان عزائى أن طالت بعض الشىء مدة عزلتى . آه ، ما كان أسعدنى ! كنت كالرسل أنتظر فى سعادة مجىء المعزى الذى وعد به البشر .. كنت سعيدة بأن أصبح عما قليل مسيحية كاملة ، و بأن يرسم على جبهتى إلى الأبد الصليب السرى لهذا السر العذب !

لم أشعر بالريح الشديد التى عصفت يوم العنصرة الأولى ، بل بذلك النسيم اللطيف الذى سمع ايليا النبى حفيفه على جبل حور يب .. فى ذلك اليوم وهبنى الله القوة اللازمة لاحتمال الألم ، وكنت فى حاجة كبيرة اليها ، لأنه كان مقدراً لى أن يبدأ عذابى عما قليل !

ولما انقضت هذه الأعياد العذبة ، التى لن يبرح ذكراها خاطرى ، وجب على أن أعود إلى حياتى المدرسية فى القسم الداخلى . كنت موفقة فى دراستى ، أفقه بسهولة معنى الدروس ، غير أنى كنت ألقى صعوبة جمة فى الصمت عن ظهر قلب ، ولكن جهودى كانت تكلل بالنجاح فى دروس التعليم المسيحى ، وكان الكاهن الذى يعلمنا يلقبنى « بالمعلم الصغير » ، وذلك بلا شك إشارة إلى إسمى « تر يزا » !

كثيرا ما كانت تسليتى أثناء فترات الراحة بين الحصص أن أشاهد رفيقاتى

(٩) ١٤ يونيو ١٨٨٤ .

عن بعد ينهمكن فرحات فى ألعابهن ، وأنا أسترسل فى تأملات عميقة : هاته كانت أحبه تسليه إلىّ . كما إنى استحدثت لعبة كانت تروقنى جداً : كنت أبحث بعناية عن العصافير الصغيرة المسكينة ، التى تسقط ميتة تحت الأشجار الكبيرة ، فأدفعها كها كما يليق بها فى مدفن واحد تظللها نفس الأعشاب . وأحياناً أخرى كنت أقص القصص ، وكثيراً ما كان بين مستمعاتى بعض التلميذات الكبيرات . لكن سرعان ما نهتنى معلمتنا الرشيدة عن مواصلة مهنتى الخطابية هذه ، إذ كانت تر يد أن ترانا نعمد إلى الركض لا إلى الثرثرة .

اخترت فى ذلك الوقت بنتين صغيرتين من نفس سنى لتكونا صديقتين لى ، لكن ما أضيق قلب البشر ! اضطرت أحداهما أن تعود إلى أسرتها ، فقضت عندها بضعة أشهر ، وفى أثناء غيابها ، دربت نفسى على عدم نسيانها ، وأظهرت لها سروراً جما للقائها مرة ثانية . أواه ! لم أنل منها الا نظرة تنم عن عدم الاكتراث .. لم تفهم صداقتى لها ، وقد أثر ذلك فى نفسى تأثيراً عميقا ، فما عدت أستجدى مثل هذا الود المتقلب . على أن الله وهبنى قلبا مخلصا جداً إلى حد أنه إذا أحب ، أحب إلى الأبد .. وللآن لا أزال أصلى من أجل هذه الرفيقة وأحبها !

وإذ رأيت كثيرا من التلميذات تتعلقن بحب إحدى المعلمات ، حدثتنى نفسى بأن أقتدى بهن ، ولكننى لم أفلح . وما أسعدنى بهذا العجز ، فقد وقانى من شرور كثيرة ! وكم أحمد الرب إذ لم ألق الا الحسرة فى صداقة أهل الدنيا ! ولولا ذلك ، و بقلب مثل قلبى ، لانخدعت وقصت أجنحتى ، وكيف استطيع حينذاك « أن أطير وأستر يح ! (١٠) وكيف يستطيع فؤاد تولته محبة الإنسان أن يتحد اتحاداً وثيقاً بالله ؟ أشعر بأن ذلك ليس فى الإمكان .. قد رأيت نفوساً كثيرة وقد غواها ذلك الضياء الكاذب ، فانطلقت اليه كالفراشة المسكينة تحرق أجنحتها وتعود كليمة إلى يسوع ، النار الالهية التى تحترق ولا تبلى !

نعم ، أعرف أن الله كان يعلم بضعفى العظيم ، فلم يعرضنى إلى التجربة ، والا لكان ضياء المخلوقات الخادع قد أحرقنى تماماً ، ولكن هذا الضوء لم يبرق أمام

(١٠) مزمور ٥٤ : ٧ .

« حولت أنا أيضاً نظرى نحو أمى السماوية طالبة اليها من صميم الفؤاد أن تتنازل وترأف بحالتى . .

إن العذراء القديسة تقدمت منى وابتسمت لى ، فقلت فى نفسى ما أسعدنى » .

« القديسة تريزا »

ناظرى ، اذ حيث تلقى النفوس القوية أسباب السرور فتعرض عنها ملبية داعى الأمانة ، لم ألق أنا الا الأسى ! فأى فضل لى إذا لم استسلم لهذه الروابط الواهية ، ما دمت لم أحفظ منها الا بفعل عذب من الرحمة الإلهية ! ؟ لولا أن الله حفظنى فإنى أقر بأنه كان من الممكن أن أسقط إلى حيث هوت القديسة المجدلية ! ولا زالت تتردد فى نفسى بعذوبة كبيرة هذه الكلمات العميقة التى وجهها السيد المسيح إلى سمعان الفريسى .. نعم أعلم أن « الذى يغفر له قليلا يحب قليلا (١١) . لكنى أعلم أيضاً أن يسوع قد غفر لى أكثر مما غفر للقديسة المجدلية . آه ، كم أود لو أستطيع الإعراب عما أشعر به ! إليك على الأقل مثلا يعبر بعض التعبير عما يدور بخاطرى :

افرض أن ابن طبيب ماهر يصادف فى طريقه حجراً ، فيقع على الأرض و يصاب بكسر فى أعضائه ، عندئذ يأتى أبوه على عجل فيقبل عثرته فى حنان ، و يضمد جراحه لاجئاً إلى كل ما تهيئه له مهنته من مختلف الوسائل . فعما قليل يبرأ ابنه تماماً ، و يعبر له عن شكره . لا ريب أن هذا الإبن محق جدا فى أن يحب مثل هذا الأب !

ولكن اليك فرضاً آخر : يعلم الأب أن حجراً خطرا يعترض سبيل ابنه ، فيسبقه إلى الحجر و ينزعه دون أن يراه أحد . لا جدال أن الابن الذى كان موضع حنانه المتبصر لا يعلم أى خطر دفعت عنه يد أبيه ، فلا يظهر له أى شكر ، ويحبه أقل مما لو شفاه أبوه من جرح مميت . ولكن إذا علم الابن كل شىء ، أما يحبه أكثر ؟ إننى أنا هذا الابن موضع الحنان المتبصر ، حنان أب « لم يرسل كلمته ليخلص الأبرار بل الخطأة » (١٢) . يريد أن أحبه لأنه غفر لى كثيراً ، بل كل ذنوبى .. لم ينتظر حتى أحبه كثيراً كما أحبته القديسة المجدلية ، لينبئنى أنه أحبنى حباً عذباً ، ساهرا علىّ برعايته ، لكى « أحبه الآن حتى الجنون ! » .

سمعت مرات عديدة فى الرياضيات الروحية ، وغيرها من المناسبات ، أنه ما من نفس طاهرة أحبت أكثر من نفسٍ تائبة . آه أود أن أكذب هذا القول !!

(١١) لوقا ، ٧ : ٤٧ . (١٢) متى ، ٩ : ١٣ / مر ، ٢ : ١٧ / لو ، ٥ : ٣٢ .

ولكنى قد ابتعدت كثيراً عن موضوع حديثى ، وأصبحت لا أدرى جيداً من أين أعود اليه لمواصلته !

كنت منقطعة إلى الرياضة التى سبقت مناولتى الثانية ، عندما رأيت داء الوسواس يداهمنى ، و يالـه من داء رهيب ! لابد للمرء أن يكون قد عانى هذا العذاب المبرح ليدرك كنهه الحقيق ! من المحال أن أبين كم عانيت منه مدة سنتين ! كانت أبسط خواطرى وأفعالى كلها تسبب لى الاضطراب والجزع .. لم أكن اطمئن الا بعد أن أبوح بكل شىء إلى مارى ، وكان ذلك يكلفنى كثيراً ، إذ كنت أحسبنى ملزمة بأن أفضى اليها بكل ما يدور بخلدى ، حتى ما كان منه من صنع الخيال . وبمجرد ما كنت ألقى اليها بحملى ، كنت أطمئن ، ولكن إلى حين ، وسرعان ما كانت تزول عنى هذه الطمأنينة ، و يعود إلى عذابى من جديد .. رباه ! ما أفدح أعمال الصبر التى كانت تأتيها أختى العزيزة بسببى !!

فى تلك السنة ، ذهبنا أثناء العطلة نقضى خمسة عشر يوما على شاطىء البحر . وكانت امرأة خالى لا تبرح تحن حنانها الفائق على بناتها الصغيرات ساكنات « البويسونية » ، وتعطف عليهن عطفها الأمومى فقد هيأت لهن كل ما يمكن تصوره من أسباب اللهو: منها التنزه على ظهر الدواب ، وصيد السمك .. الخ . كانت تسرف فى ملاطفتنا حتى فيما يتعلق بملبسنا ، وأذكر أنها أعطتنى يوما شرائط من اللون الأزرق السماوى ، و بالرغم من أن سنى إذ ذاك كانت اثنتى عشرة سنة ونصف ، كنت لا أزال طفلة أفرح إذا ربط شعرى بهذه الشرائط الجميلة !

وقد لازمنى الوسواس بعد ذلك إلى حد أنى اعترفت عن هذه الفرحة الصبيانية التى كنت أحسبها خطيئة !

وهنالك اكتسبت خبرة مفيدة جداً ..

كثيراً ما كانت ابنة خالى مارى تشكو من الصداع ، وكانت أمها حينئذ تدللها وتدعوها بأرق الأسماء ، دون أن تظفر منها بشىء غير الدموع مقرونة بهذه الشكوى الدائمة : « ألم برأسى ! » وكنت أنا أيضاً ينتابنى الصداع كل يوم ،أو

يكاد ، غير أنى ما كنت أشكو. فأردت ذات مساء أن أتشبه بمارى ، فقمت بواجب الانتحاب وأنا جالسة على كرسى كبير فى زاو ية من قاعة الاستقبال ، وما لبثت أن بادرت إلى جان ابنة خالى الكبيرة ، وكنت أحبها حباً جماً ، وجاءت امرأة خالى أيضاً تسألنى عن سبب بكائى ، فأجبتها كمارى : « ألم برأسى ! » .

يلوح لى أن الشكاية لا تلائمنى ! لم أستطع أبدا أن أقنع أحداً بأن ألمى كان يدعونى إلى البكاء ، فبدلا من أن تلاطفنى امرأة خالى كما تعودت أن تفعل ، خاطبتنى كما يخاطب الشخص الكبير ، بل أن جان أنبتنى فى رقة فائقة ، ولكن بشىء منالحزن بحجة أنى أخللت بواجب الثقة بامرأة خالى ، فلم أعاملها بالبساطة إذ لم أبح بسبب دموعى الحقيق ، وكانت تظنه وسواساً كبيراً .

أخيراً لم أفز بطائل ، فوطدت نفسى على عدم تقليد الغير ، وأدركت مغزى قصة « الحمار والكلب الصغير » : كنت ذلك الحمار الذى شاهد ما خص به الكلب الصغير من أنواع المداعبة ، فوضع حافره الثقيل على المائدة ليحظى بنصيبه من القبلات ! لم أطرد قرعا بالعصا مثل ذلك الحيوان المسكين ، ولكنى مع ذلك نلت ما أستحق ، وهذا الذى نلته شفانى تماماً من الرغبة فى استرعاء نظر الآخر ين .

أعود إلى محنتى الكبرى ، محنة الوسواس .. فقد أدت بى إلى المرض ، مما اضطر أهلى إلى إخراجى من المدرسة وأنا لا أزال فى الثالثة عشر من عمرى . و بغية استكمال تعليمى ، كان والدى يقتادنى بضع مرات فى الأسبوع إلى سيدة فاضلة ، كانت تلقى على دروساً عظيمة الفائدة ، وذات ميزة مزدوجة ، إذ كانت تثقف عقلى وتهيء لى مناسبة الاختلاط بالناس .

فى تلك الغرفة المؤثثة على الطراز القديم ، كنت أحضر ز يارات عديدة وأنا محاطة بكتبى ودفاترى . كانت والدة معلمتى هى التى تدير الحديث على قدر المستطاع . غير أنى أيام هذه الز يارات لم أكن أتعلم كثيراً .. كنت وأنا أحدق النظر فى كتابى أسمع كل شىء ، حتى ما كان يجدر بى ألا أسمعه : كانت سيدة تقول أن لى شعراً جميلاً .. وأخرى تسأل وهى منصرفة : من هذه الفتاة الفائقة

الحسن ؟ .. تلك الكلمات ، التى كان يز يد اطراؤها لى ، لأنها لم تلفظ أمامى ، كانت تولينى ما يبين لى بجلاء كم كنت مملوءة بحب الذات !

إنى أشفق كثيراً على النفوس التى تضل سواء السبيل .. ما أيسر الضلال فى سبل العالم المملوءة بالزهو! لا شك أن الحلاوة التى يتقدم بها العالم إلى نفس أوتيت بعض الرفعة ، لحلاوة ممزوجة بالمرارة ، وأن الفراغ الذى تحدثه فيها أمانيها لأعمق من أن تملأ المدائح الزائلة ! لكنى أكرر القول ، أنه إذا لم يرتفع قلبى إلى الله منذ أول عهده بنفسه ، وإذا كان العالم قد ابتسم لى منذ دخولى الحياة ، فماذا كنت أصبح يا ترى ؟ يا أماه الحبيبة ، ما أعظم شكرى لله إذ أتغنى بمراحم الرب ، كما جاء فى كتاب الحكمة : « ألم يخطفنى من العالم قبل أن يغير العالم عقلى بشروره . وقبل أن يطغى الغش نفسى بمظاهره الخادعة ! »[١٣] .

ور يثما يقدر لى ذلك ، قررت أن أكرس نفسى بنوع خاص للعذراء الكلية القداسة بالتماس قبولى بين « بنات مريم »[١٤] . لهذا ، اضطررت مرة أخرى إلى التردد على الدير مرتين كل أسبوع . وأقر بأن ذلك كلفنى بعض الجهد الحيائى العظيم .. نعم ، كنت أحب معلماتى الصالحات حباً جز يلا ، واحفظ لهن دائماً أجمل مشاعر الامتنان ، غير أنى ، كما نوهت بذلك ، لم أكن مثل سائر التلميذات القديمات أخص معلمة معينة بمحبتى حتى أقضى معها ساعات طو يلة . وعلى ذلك كنت أعمل فى صمت حتى نهاية حصة أعمال الابرة ، ولم يكن أحد يلتفت إلى ، فكنت أصعد إلى منصة الترتيل فى الكنيسة ، وأمكث هناك إلى أن يأتى والدى ليعود بى إلى الدار .

كنت ألقى فى هذه الز يارة الصامتة عزائى الفر يد ـــ ألم يكن يسوع صديقى الأوحد ؟ ما كنت أعرف أن أخاطب أحدا سواه ، فإن أحاديثى مع المخلوقات ، حتى الدينية منها ، كانت تبعث الملل إلى نفسى . أنى والحق يقال كنت فى عزلتى

---

(١٣) حكمة ، ٤ : ١١ .

(١٤) قبلت القديسة ضمن « بنات مريم » فى ٣١ مايو ١٨٨٦ .

هذه أجتاز بعض فترات الكآبة .. وأذكر أنى كثيراً ما كنت أتعزى بترديد هذا البيت من قصيدة جميلة ، كان والدى الصالح يلقيها علينا :

« الأرض سفينتك ....
وليست مسكنك ... »

كانت هذه الكلمات تستثير همتى على حداثة سنى ، و بالرغم من أن مر السنين يزيل كثيرا من انطباعات تقوى الطفولة ، ما زالت صورة السفينة فى مخيلتى تفتن نفسى ، وتعينها على احتمال منفاها .. أو ما جاء أيضاً فى كتاب الحكمة « ان الحياة كالسفينة الجارية على الماء المتموج ، التى بعد مرورها لا تجد أثرها ولا خط حيزومها فى الأمواج ! » (١٥) .

حينما أتامل فى هذه الأشياء ، يتوغل بصرى فى أعماق اللانهائية ... و يبدو وكأنى أطأ من الآن بر الأبدية ، وأنى أتلقى قبلات يسوع .. يلوح لى أن مريم العذراء آتية إلى مع أبى وأمى والملائكة الصغار الأربعة ، وهم أخوتى وأخواتى ، و يلوح لى أنى أتمنع أخيراً إلى الأبد بالحياة العائلية الحقة ، أى الحياة الأبدية .

ولكن ، قبل أن أرانى جالسة بين ذوى فى السموات ، كان يجب على أن أعانى الفراق على الأرض المرة تلو المرة : ففى السنة التى قبلت فيها ابنة للسيدة العذراء سلبتنى حبيبتى مارى (١٦) سندى الوحيد ، إذ منذ رحيل بولين ما كنت أثق الا بنصحها . وكنت أحبها إلى حد أنى لم أكن أستطيع العيش دون رفقتها الحلوة .. وبمجرد علمى بعزمها ، قررت ألا أذوق أية لذة من اللذات الدنيوية .. لا أستطيع أن أقول كم ذرفت من دمع ! وعلى كل حال ، كان البكاء هو عادتى فى ذلك العهد ، كنت أبكى لا فى كبرى المناسبات فحسب ، بل فى أصغرها أيضاً . اليك بعض الأمثلة :

(١٥) حكمة ، ٥ : ١٠ .

(١٦) دخلت مارى الكرمل فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٨٦ ، واتخذت اسم « الأخت مارى للقلب الأقدس » . وعاشت هناك عيشة القداسة حتى الثمانين من عمرها ، وتوفيت فى ١٩ يناير سنة ١٩٤٠ .

كنت أرغب رغبة شديدة فى ممارسة الفضيلة ، ولكنى كنت أعمد فى ذلك إلى طريقة غريبة : لم أكن معتادة أن أخدم نفسى ، كانت سلين تهيىء غرفتنا ، أما أنا فلم أكن أقوم بأى عمل من الأعمال المنزلية . وكان يتفق لى أحياناً ــ ابتغاء مرضاة الله ــ أن أرتب فراشى ، أو أخرج مساء فى حالة عدم وجود سلين لأدخل ما تتولى أمره من غروز الشجر وأوانى الزهر . ولما كنت أفعل ذلك كله « لأجل الله وحده » كما قلت ، ما كان يحق لى أن أنتظر شكر المخلوقات . لكن وا أسفاه ! كان الأمر على عكس ذلك ، فإذا حدث من سوء الحظ ان فات سلين أن تظهر لى سرورها ودهشتها لخدماتى الصغيرة ، لم أكن سعيدة ، وكان دمعى يثبت لها ذلك !

وإذا اتفق لى أن أغضبت أحداً عن غير قصد ، فبدلا من أن أتغلب على ما حدث ، كنت أحزن إلى حد أن ينتابنى المرض ، فكان ذلك يزيد من ذنبى بدلا من أن يكفر عنه . وكنت حينما أبدأ أتعزى عن ذنبى ، أبكى ، لما سبق من بكائى !!

الحق أنى كنت أتألم من كل شىء ، أما الآن فالأمر على عكس ذلك ، فمن نعمة المولى على أنه لم يعد يؤثر فى أمر زائل . وحينما أتذكر الماضى ، تفيض نفسى شكرا لأن النعم التى أولتنى اسماء اياها قد غيرتنى إلى حد أنه لم يعد أحد يعرفنى !

ولما دخلت مارى دير الكرمل ، لم يعد فى وسعى أن أبثها آلامى ، فوليت نظرى صوب السماء ، أقصد الملائكة الأربعة الصغار ، الذين تقدمونى اليها ، معتقدة أن هاته النفوس البريئة ، التى لم تعرف الاضطراب أو الخوف ، لابد أن تأخذها الشفقة بشقيقتها الصغيرة المسكينة التى تتعذب على الأرض .. فقد كنت أتحدث اليها فى بساطة الطفل لافتة أنظارها إلى أنى كنت أصغر أفراد أسرتنا ، ولذا كنت دائما أكثرهم كسباً لمحبة أبوينا وأخواتى ، وأوفرهم نصيباً من الحنان ، وأنها لو بقيت على الأرض ، لكانت بلا ريب قد أولتنى دلائل الود نفسها . كما أن دخولها السماء ليس فى رأيى سبباً لنسيانها إياى ، بل على العكس فهى تستطيع

الآن أن تغترف من كنوز السماء ما تشاء ، وعليها أن تختار لى السكينة ، فتثبت لى بذلك أن أهل السماء ما برحوا يعرفون المحبة !

ما لبث أن أتانى الرد ، إذ سرعان ما غمرتنى السكينة بأموالها العذبة ! كنت اذن محبوبة لا على الأرض فحسب ،بل فى السماء أيضاً .. من ذلك الحين ، ازدادت تقواى فى الصلاة إلى إخوتى وأخواتى ساكنى الفردوس : كان يروق لى أن أناجيهم وأتحدث اليهم عن منفاى وعن رغبتى فى أن ألحق بهم عن قريب فى الوطن السماوى !

الفصـــل الخـــامس

نعمة عيد الميلاد ــ الغيرة على خلاص النفوس ــ الانتصار الأول ــ الألفة العذبة بين القديسة وبين أختها سيلين ــ نيلها من والدها الاذن أن تدخل الكرمل فى الخامسة عشرة من عمرها ــ رفض الرئيسة ــ رفع أمرها إلى أسقف بايو

كانت السماء تغدق على نعمها وأنا أبعد عن استحقاقها . ما انقطع حنينى إلى الفضائل لكن كم انتاب النقص أعمالى ! كنت حقا لا أطاق لفرط تأثرى . كان عبثاً كل ما يقدم لى من الأدلة لألزم الصواب فلم يكن فى وسعى أن أصلح ما بى من النقص السميج .

فكيف كنت أجرأ أن أعلل النفس بدخولى الكرمل عما قريب ! كان لابد لى من معجزة صغيرة لأكبر فى لحظة واحدة ، تلك المعجزة التى كنت أتطلع اليها بمثل هذا الشوق العظيم أتاها الله فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٦ وهو يوم لن أنساه فى عيد الميلاد هذا . فى تلك الليلة المباركة جاء يسوع الطفل الوديع وهو ابن ساعة واحدة يحول فى نفسى الظلام الى ضياء متدفق . لقد صير ذاته ضعيفاً صغيرا حبا بىَ وبذلك صيرنى قوية جريئة ، قلدنى سلاحه ومنذ تلك الساعة سرت من انتصار إلى آخر وكأنى قد بدأت أعدو عدو الجبابرة . فقد نضب ينبوع دمعى ولم يعد يتفتح الا فيا صعب وندر .

ولا أقل لك الآن ، يا أمى ، فى أى ظرف قد نلت اصلاحى التام التى لا تقدر .

كنت أعلم أنى لدى وصولى إلى المنزل بعد قداس نصف الليل سألقى دون موقد المصطلى حذائى مملوءا هدايا صغيرة كما فى عهد الطفولة ، مما يريك أنى كنت

أعامل حتى تلك الحين معاملة الأطفال ، كان يطيب لوالدى نفسه أن يشهد مظاهر هنائى وأن يسمع ما أبعثه من صيحات الفرح كلما أخرجت هدية من ذلك الحذاء المسحور وكان سروره يزيد فرحى . ولكن حانت الساعة التى أراد فيها يسوع أن ينزهنى من نقائص الطفولة ويحرمنى من أفراحها البريئة ، فقد سمح أن يتبرم والدى فى تلك المرة خلافا لما تعود من ملاطفتى فى كل ظرف . سمعته وأنا صاعدة إلى غرفتى يفوه بالكلمات الآتية التى نفذت كالسهم إلى قلبى : « حقا ، أن هذه الهدية لأحرى بالأطفال ، فأجل عنها فتاة كبيرة كتريزا وأملى أن تكون الأخيرة » .

كانت سيلين تعرف إحساسى المفرط فقالت لى بصوت منخفض : « لا تنزلى الآن بل انتظرى قليلا لأنك لو اجتليت الهدايا فى حضور والدنا لبكيت كثيراً » . غير أن تريزا كان يسوع قد حول قلبها !

فسرعان ما نزلت إلى قاعة الأكل حابسة دمعى فتناولت حذائى وأنا أعالب وجبات قلبى فأخرجت جميع الهدايا فى سرور، والسعد يلوح على محياى كأنى ملكة . كان والدى يضحك فلم يعد يبدو على وجهه أى دليل من دلائل الاستياء . أما سيلين فكانت تظن نفسها فى حلم ولحسن حظى كان الحلم حقيقة عذبة . كانت تريزا الصغيرة قد لقيت نهائياً قوتها المعنوية التى فقدتها فى الرابعة والنصف من عمرها .

إذن فى تلك الليلة المضيئة بدأ طور حياتى الثالث وهو أجمل أطوارها كلها وأملأها نعما سماوية . أن العمل الذى يتهيأ لى اتمامه فى عدة سنوات أتمه يسوع فى لمح البصر مكتفياً بنيتى الصالحة . كان فى وسعى أن أقول كالرسل : « يا سيد قد تعبنا الليل كله ولم نصطد شيئاً » (١) . لقد كان أرأف بى منه برسله . إذ أنه تناول الشبكة بنفسه وألقاها ثم أخرجها مملوءة سمكاً صيرنى صيادة نفوس . دخلت المحبة قلبى مع حاجة إلى نسيان نفسى على الدوام ومن ذلك الحين أصبحت سعيدة .

---

(١) لوقا ، ٥ : ٥ .

فى يوم من أيام الأحد(٢) كنت أطوى كتابى فى نهاية القداس ، فإذا بصورة تمثل السيد المسيح مصلوبا تزلق قليلا خارج الكتاب فلا يبدو لى منها الا إحدى يديه الالهتين مثقوبة دامية ، وحينئذ تولانى شعور جديد لا يوصف . أنصدع فؤادى إذ رأيت هذا الدم الغالى يتساقط على الأرض ولا يبادر أحد إلى جمعه فعقدت النية أن أقف دائماً تحت الصليب بفكرى لأتناول نداه الالهى ، ندى الخلاص ثم أفيضه على البشر .

ومن ذلك اليوم أخذ يدوى فى قلبى نداء يسوع ساعة النزع : « أنا عطشان » (٣) . أخذ يدوى كل آن ليضرم فى قلبى شوقاً عظيماً لم أعهده من قبل . كنت أبغى أن أسقى حبيبى . كنت أنا نفسى أشعر بالعطش لنفوس يلتهمنى وأبغى بأى ثمن كان أن أنقذ الخطأة من اللهب الأبدى .

ولكى يستثير السيد المسيح غيرتى أظهر لى أنه يستطيب رغبتى . نمى إلى خبر مجرم كبير اسمه « برنز ينى » . حكم عليه بالإعدام لآثامه الفظيعة وكان يخشى هلاك نفسه لعدم توبته . أردت أن أدرأ هذه المصيبة الأخيرة التى لا تعوض فطلبا لهذه الغاية عمدت إلى جميع ما يتصور من الوسائل الروحية . ولعلمى أنى لا أستطيع شيئاً بنفسى قد استفديته باستحقاقات السيد المسيح المتناهية وكنوز الكنيسة المقدسة .

هل لى أن أبوح بأنى كنت أوقن فى نفسى أن صلواتى لابد مستجابة ؟ ولكن رغبة فى استنهاض همتى لأدوم على المبادرة إلى اكتساب النفوس صليت هذه الصلاة الساذجة : « اللهم انى لموقنة كل اليقين أنك ستغفر لبرنز ينى . إنى لأثق برحمتك التى لا نهاية لها إلى حد أنى أؤمن بغفرانك له حتى لو لم يعترف بذنوبه ولم يقم أى برهان على توبته . ولكنه أول خاطىء أتولى أمره لهذا أطلب منك دليلا واحداً لا غير على ندامته وذلك لمجرد تعزيتى » .

---

(٢) فى يوليو سنة ١٨٨٧ .

(٣) يوحنا ، ١٩ : ٢٨ .

ولقد استجيبت صلاتى حرفا بحرف . لم يكن والدى ليسمح لى بقراءة الصحف . غير أنى ما حسبتنى أخالف أمره بتصفحى النبذات الخاصة ببرانز ينى . ففى اليوم التالى لاعدامه(٤) فتحت بلهفة جريدة « لاكروا » فماذا طالعت فيها ؟ آه ! ان دموعى كشفت عن تأثرى فاضطرت أن أبادر إلى التوارى عن الأبصار . كان برنز ينى قد صعد إلى آلة الاعدام دون أن يعترف بذنوبه وأن ينال عنها الغفران وكان الجلادون قد جروه إلى المقصلة المشؤمة لما حل عليه الوحى بغتة فالتفت وتناول صليباً كان يقدمه له كاهن ، فقبل ثلاثة جراحه المقدسة .

إذن نلت الدليل المنشود وما كان أعذبه لدى ! أو لم يتولانى الظمأ إلى النفوس أمام جراح يسوع إذ رأيت دمه الإلهى يسيل ؟ أردت أن أسقى تلك النفوس هذا الدم لتطهر من أرجاسها وها أن شفتى « ولدى الأول » ذهبت تلتصق بجراحه الإلهية .

ما أجل هذا الجواب عن الوصف ! منذ منحت هذه النعمة الفريدة قد ازداد شوقى إلى إنقاذ النفوس يوما بعد يوم . كان يخيل إلى أن يسوع يهمس لى كما كان يقول للسامرية : « أعطينى لأشرب »(٥) . حقاً كان ما بيننا تبادل حب . من جهة كنت أسقى هذه النفوس دم يسوع ومن الأخرى كنت أقدم له هذه النفوس ذاتها وقد أرواها ندى الجلجلة . كنت أخالنى بذلك أشفى غلة ولكن كلما سقيته ازداد ما بنفسى المسكينة الصغيرة من ظمأ وكنت أقتبل هذا الظمأ الشديد باعتباره أطيب جزاء لى .

أخرجنى الله فى فترة وجيزة من الدائرة الضيقة التى كنت أعيش فيها . اذن خطوت الخطوة الصعبة ، ولكن يا للأسف كان لا يزال على أن أقطع شوطاً بعيداً فى هذا المضمار .

أطلق فكرى من قيود الوسواس وفرط التأثر فأخذ ينمو . أحببت دائما كل كبير جميل . وفى ذلك العهد تولانى شوق عظيم إلى العلم ، فلم أكتف بدروس معلمتى ،

---

(٤) ٣١ أغسطس سنة ١٨٨٧ .

(٥) يوحنا ، ٤ : ٧ .

بل عكفت وحدى على طلب بعض العلوم الخاصة وبذلك اكتسبت من المعارف فى بضعة أشهر فقط أكثر مما أصبت فى سنى دراستى كلها . أواه ، لم يكن دائى هذا الا من « لأباطيل ودواعى الكآبة للنفس » .

ونظراً لما طبعت عليه من الاندفاع فى الشوق كنت حينذاك فى أخطر ساعة من حياتى . ولكن الله تعالى عاملنى على حد ما جاء فى نبوة حزقيال : « لقد رأى أن الوقت قد حان لكى أحب فعاهدنى وأصبحت له . بسط على ثوبه وغسلنى بالعطور الثمينة وألبسنى ثياباً بهية وأعطانى قلائد وعطورا لا تقدر بثمن وغذائى بوفرة من السميذ والعسل والزيت ، حينئذ غدوت جميلة فى نظره فصيرنى ملكة قوية (٦) .

نعم ، فعل يسوع كل ذلك . فعله لأجلى . أنه لنى وسعى أن أرجع إلى كل كلمة من هذه الفقرة الفائقة الوصف فأبين أنها تحققت لى ، غير أن النعم المتقدم ذكرها لدليل كاف على ذلك . لهذا سأقصر كلامى على الغذاء الذى أتانى به المسيح « بوفرة » .

كنت من عهد بعيد أزكى حياتى الروحية بما يحويه من « السميذ » « كتاب الاقتداء بالسيد المسيح » . كان الكتاب الوحيد الذى أفادنى اذ ما كنت ما اكتشفت بعد الكنوز المدفونة فى الإنجيل المقدس .. لم يكن هذا الكتاب الصغير يفارقنى أبدا فكان ذلك يضحك جداً أفراد أسرتى . وكثيراً ما كانت امرأة خالى تفتحه فى المكان الذى تعينه لها الصدفة فتحملنى على قراءة الفصل الواقع تحت بصرى .

وفى الرابعة عشرة من عمرى رأى الله من الضرورى أن يقرن شوقى إلى العلم « بالسميذ والعسل والزيت يكيلها لى بوفرة » . هذا العسل وهذا الزيت قد أذاقنى أياهما فى مواعظ الآب ارمنجون عن نهاية العالم الدنيوى وأسرار الحياة الباقية . ان قراءة هذا الكتاب ملأت نفسى سعادة ليست من سعادة الدنيا . كنت أشعر مقدما من ذلك الحين بما يعده الله لمن يحبونه واذا رأيت هذا الجزاء

---

(٦) حزقيال ، ١٦ : ٨ ــ ٩ ــ ١٣ .

الأبدى أجل من أن توازيه التضحيات الطفيفة . فى هذه الحياة أردت أن أحب يسوع حباً متأججاً فأقدم له ما دام لى متسع من الوقت ألف دليل على حنينى اليه .

كانت سيلين قد غدت ــ ولا سيما منذ عيد الميلاد ــ نجيتى العليمة بسرائرى ، أراد يسوع أن نتقدم معا فأنشأ فى قلبينا روابط أمتن من روابط الدم .. « صيرنا أختين بالنفس » .

و بنا تحققت كلمات أبينا القديس يوحنا للصليب فى « نشيده الروحى » :

« ان الفتيات ليقطعن السبيل فى هون
اذ يقتفين أثرك ، يا حبيبى .
ان لمس الشـــرارة ،
ان النبيذ المتبل ليبعثان عندهن
أشواقاً تعطرها المعانى الالهية » .

نعم ، كنا نقتفى أثر يسوع فى هون عظيم ، إذ كان ما ينثره فى نفسينا من شرار محرق وما يسقينا أياه من نبيذ لذيذ قوى ويحجب عن أعيننا متاع الدنيا الزائل . كان ما ينبعث من شفتينا آيات شوق إلى العلو يات ملؤه الحب .

ما أعذب على ذكر يات الحديث التى كانت تدور بيننا ! كنا فى كل مساء نخرج إلى شرفة الدار فنرسل ببصرنا إلى زرقة السماء وقد تناثرت فيها الكواكب الذهبية . يخيل إلى أننا كنا ننال حينئذ نعماً كبيرة جداً . كما جاء فى كتاب الاقتداء بالسيد المسيح « ينجلى الله أحيانا فى بهاء عظيم وأخرى خلال حجاب خفيف من صور ورموز » (٧) . وقد تنازل أن ينجلى لقلبينا على هذا المنوال الأخير . ولكن كم كان هذا الحجاب شفافاً خفيفاً ! لم يكن هنالك سبيل إلى الشك . كان الإيمان والرجاء قد غادرا نفسينا اذ أن الحب قد هدانا على الأرض إلى من كنا نتفقده . « لقيناه هو وحده لذلك أودعنا قبلته حتى لا يمكن أحداً فى المستقبل أن يزدرينا » (٨) . قدر لهذه التأثيرات الالهية أن تأتى بثمارها فغدت لى ممارسة

(٧) الاقتداء ، ٣ : ٤٣ ، ٤ .
(٨) نشيد ، ٨ : ١ .

الفضيلة عذبة طبيعية . فى البدء كان محياى ينم عن القتال ولكن التضحية بدت لى شيئاً فشيئاً هينة حتى لأول وهلة . أو ما قال يسوع : « كل من له يعطى و يزداد » (٩) . لأجل نعمة أتقبلها بوفاء ، كان يمنحنى نعماً كثيرة أخرى . كان يعطينى ذاته فى القربان المقدس مرات أزيد مما كنت أجرأ على أمله . كانت الخطة التى ارتسمتها أن أعنى كل العناية بتناول الأسرار الإلهية كلما سمح لى معرفى بذلك دون أن استز يده أبدا عدد مناولاتى . غير أنى كنت أسلك اليوم طريقاً آخر إذ أنى على يقين تام أنه يجب على النفس أن تبوح إلى مرشدها بشوقها إلى تناول ربها ، فإن الله لا ينزل من السماء كل يوم ليبقى فى الكأس المقدس بل ليلقى سماء أخرى هى سماء نفسنا حيث يجد النعيم .

كان يسوع يشهد شوقى فيومىء إلى معرفى أن يسمح لى بالتناول عدة مرات فى الأسبوع . كان هذا الاذن يملأنى فرحاً إذ يأتى من يسوع مباشرة . فى ذلك العهد لم أجرأ على أن أقول شيئاً عن شعورى الداخلى . كان السبيل الذى أسير فيه قويما مضيئاً حتى أنى ما كنت أشعر بالحاجة إلى دليل غير يسوع . كنت أشبه المرشدين بمرايا ينعكس عليها يسوع إلى نفوس البشر وكانت عقيدتى أن الله تعالى لم يستخدم وسيطا بينى و بينه بل كان يعاملنى مباشرة .

إذا اعتنى بستانى بثمر يزيد أن ينضجه قبل أوانه فليس ذلك أبداً ليتركه متدليا على الشجر، بل ليقدمه على مائدة حوت كل ما لذ وطاب . وكان يسوع يغدق نعمة على زهرته الصغيرة وهو يرمى إلى مثل هذه الغاية . كان يريد أن تتجلى فى رحمته هو الذى كان يصيح متهللا فى حياته الزائلة : « أعترف لك يا أبتى لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والعقلاء وكشفتها للأطفال » (١٠) . كان ينخفض إلى و يعلمنى برفق أسرار محبته لأنى كنت صغيرة ضعيفة ، كما قال القديس يوحنا للصليب فى نشيده الروحى :

---

(٩) متى، ١٣ : ١٢ .

(١٠) ٣١ متى، ١١ : ٢٥ .

« لم يكن لى مرشد .
لم يكن لى ضوء غير الذى كان يتلألأ فى قلبى
كان لى هذا الضوء أضمن من ضوء الظهر .
ارشاداً إلى المكان الذى ينتظرنى فيه .
من يعرفنى كل المعرفة » .

كان الكرمل هذا المكان . ولكن قبل « أن أستريح فى ظل من كنت أتوق اليه » (١١) . قدر لى أن أجتاز تجارب شتى غير أن نداء الله كان يستحثنى إلى حد أنى لو وجب على أن أقطع اللهب لأجيب ربى ، لارتميت وسط اللهب .

ولكى أستزيد ميلى إلى الترهب ما كنت ألتقى الا بنفس واحدة ، نفس حبيبتى بولين . صادف قلبى لدى قلبها صدى أمينا لرغائبه ولولاها لما وصلت إلى الشاطىء المبارك الذى كان قد استقبلها من خمس سنوات .

نعم ، كنت بعيدة عنك خمس سنوات ، يا أمى الحبيبة . كن أظننى قد فقدتك ولكن يدك هى التى دلتنى إلى السبيل الواجب نهجه . كنت فى حاجة إلى هذه التعزية لأن زياراتى إلى قاعة الاستقبال فى الدير غدت تؤلمنى . ما كنت أستطيع التحدث عن رغبتى فى الدخول إلى الكرمل دون أن أشعر بأنى منبوذة عنه . كانت مارى تبذل جهدها لتعوقنى عن بلوغ مآربى إذ كانت ترانى أصغر سناً من أن أحققها . لم ألق الا المصاعب منذ البدء ومن ناحية أخرى لم أكن أجرأ أن أبوح بشىء الى سيلين وكان هذا السكوت يعذبنى كثيراً ، إذ كان يشق على جدا أن أخفى عنها شيئاً .

غير أن شقيقتى الحبيبة علمت عما قليل بنيتى فلم تحاول قط أن تردنى عنها بل بالضد فقد قبلت التضحية بجرأة تستحق الإعجاب . كانت تريد أن تترهب لذا وجب أن تذهب أولا . ولكن كما كانالشهداء يقبلون على اخوتهم الذين أختيروا قبلهم للنزول إلى ميدان القتال فيودعونهم فى فرح قبلة الوداع . كذلك تركتنى

(١١) نشيد ، ٢ : ٣ .

سيلين أغادرها وهى تشاركنى الأسى فى تجاربى كما لو كان الأمر يتعلق بميلها هى إلى الترهب .

إذن من جهة سيلين لم أكن لأتهيب شيئاً ولكن ما كنت أدرى إلى أى وسيلة أعمد لابلاغ نواياى إلى والدى . كيف أحدثه عن مغادرة ملكته له وكان منذ قليل قد ضحى بابنتيه الكبيرتين فضلا عن أنه فى تلك السنة قد انتابته نوبة شلل من الخطورة بمكان . صحيح أنه برىء منها سريعاً ولكنها كانت تقلقنا كثيراً على المستقبل .

كم عانيت من شقاء المجاهدة فى نفسى قبل أن أتكلم ! كان يتحتم علىّ أن أوطن النفس على ذلك إذ كنت أناهز الرابعة عشرة من عمرى ولم يبق الا ستة أشهر لحلول عيد الميلاد بليلته البهية . وكنت قد عقدت النية على دخول الكرمل فى نفس الساعة التى نلت فيها نعمة تحولى النفسى فى العام السابق .

واخترت عيد العنصرة(١٢) لأبوح فيه بسرى الجليل . فابتهلت طول النهار إلى الروح القدس أن يلهمنى وتضرعت إلى الرسل أن يصلوا لأجلى فيوحوا إلى بالكلمات التى كان يلزمنى أن أفوه بها أو لم ينبغ عليهم أن يعاونوا الطفلة الوجلة التى قدر الله أن تكون رسولة للرسل بالصلاة والتضحية ؟

ألفيت الفرصة المنشودة بعد الظهر على أثر عودتى من صلاة المساء . كان والدى جالساً فى الحديقة مضموم اليدين يتأمل عجائب الطبيعة . كانت الشمس على أهبة الغروب يكسو قمم الأدواح ذهب أشعتها الأخيرة والعصافير الصغيرة تصدح بصلاة المساء .

كانت ترتسم على محياه الجميل معان سماوية . كنت أشعر بأن السلام يغمر قلبه . ذهبت أجلس بجانبه دون أن أفوه بكلمة والدمع يترقرق فى عينى . نظر إلى بحنان لا يوصف وضم رأسى إلى قلبه ثم قال لى : « ما بك ، يا ملكتى الصغيرة ،

---

(١٢) مايو سنة ١٨٨٧ .

« والد يبارك بالموافقة لتقديم ابنته لله حسب رغبتها هى وأمنيتها »

أسرى إلى ذلك » . ثم نهض كأنه يريد أن يخفى تأثره ومشى رويداً وهو لا يزال يضمنى إلى قلبه » .

حدثته خلال دمعى عن الكرمل وعن رغبتى فى الدخول عما قليل . وحينئذ بكى . غير أنه لم يقل لى كلمة تثنينى عن ميلى إلى الترهب بل اقتصر مع لفت نظرى إلى أنى لا أزال أحدث سناً من اتخاذ مثل هذا القرار الخطير . غير أنى ألححت فى الطلب وأحسنت الدفاع عن قضيتى فما لبث والدى المنقطع النظير أن انقاد لرأيى بما جبل عليه من العدل والكرم . سرنا طويلا فى تلك النزهة . كان قلبى قد حط حمله ووالدى قد حبس دمعه . حدثنى كقديس . دنا إلى حائط قليل الارتفاع فأرانى زهيرات بيضاء كأنها زنبق مصغر الحجم فقطف واحدة منها وناولنى إياها مبينا لى العناية الفائقة التى تولى بها الله هذه الزهرة فجعلها تتفتح وأبقاها حتى ذلك اليوم .

كنت أحسب وهو يحدثنى أنى أستمع الى سيرة حياتى لفرط ما كان من الشبه الواضح بين الزهرة الصغيرة وتريزا الصغيرة . تلقيت تلك الزهيرة كأنها تحفة مقدسة ولاحظت أن والدى إذ أراد قطفها قد استأصلها بجميع جذورها دون أن تقطع ، فكأنما أريد بها أن تدوم حياتها فى تربة أخصب . وهذا بالذات ما كان قد صنعه والدى العزيز نحوى منذ هنيهة ، اذ سمح لى أن أغادر الوادى الأمين الذى شهد خطواتى الأولى فى سبيل الحياة لأصعد إلى جبل الكرمل .

ألصقت زهيرتى البيضاء بصورة لسيدة النصر وها أن القديسة مريم تبتسم لها وكأن يد الطفل يسوع تحملها إذ هى لا تزال على تلك الصورة . غير أن ساقها قد انهصر بالقرب من جذورها . ولا ريب أن الله يريد أن يفهمنى بذلك أنه عما قليل سيقطع روابط زهيرته ولن يدعها تذبل على الأرض .

وبعد أن نلت موافقة والدى ظننت فى وسعى أن أطير إلى الكرمل دون خوف . أواه ! لما سمع خالى ما بحت له فى دوره من سرى قال أن فى دخولى رهبنة متقشفة وأنا فى الخامسة عشرة من سنى يبدو له عملا منافيا للحكمة البشرية وأن فى

ترك طفلة تختار مثل هذه الحياة ما يمس شأن الدعوة السامية . وزاد على ما تقدم أنه من قبله سيقيم كل معارضة مستطاعة وأنه لن يتحول عن رأيه إلا بأعجوبة .

رأيت جميع الحجج التى يمكن الادلاء بها غير مجدية فتراجعت والقلب فى أعمق حسرة . كانت الصلاة تعزيتى الوحيدة فابتهلت إلى يسوع أن يأتى بالمعجزة المنشودة ما دمت لا أستطيع تلبية طلبه الا بتلك الأعجوبة . مضى زمن غير قصير وكأن خالى لم يعد يذكر ما دار بيننا من حديث لكنى علمت فيما بعد أننى على عكس اعتقادى كنت أشغل فكره كثيراً .

وقبل أن يشعل الله أمام عينى بريقا من الأمل طاب له أن يبتلينى بتجربة أخرى ، تجربة مبرحة دامت ثلاثة أيام متواصلة . أواه ، ما أحسنت قط بقدر ما أحسنت . حينئذ أدركت الحيرة التى حلت بالسيدة العذراء و بالقديس يوسف وهما يتفقدان الطفل يسوع فى سبل أورشليم . كنت فى صحراء مريعة أو بالأحرى كانت نفسى أشبه بزورق سريع العطب أسلم بلا ربان إلى رحمة الأمواج الثائرة . كان يسوع راقدا فى زورقى وأنا أعلم ذلك ولكن كيف السبيل إلى رؤيته فى مثل هذا الظلام ؟ لو أن العاصفة هبت على وجهها الجلى فلربما ومض البرق خلال سحبى ولا ريب أن ضوء البرق لضوء أدعى إلى الكآبة ، غير أنى كنت قد تبينت حبيب قلبى على وهيجه ولو هنيهة .

ولكن لا ! كنت أعانى الليل ، ليلا مدلهما ، خذلانا تاما ، بل موتاً حقيقياً . كنت كالسيد المسيح فى بستان النزاع أشعر بنفسى وحيدة فلا ألقى تعزية لا من قبل الأرض ولا من قبل السماء . وكأن الطبيعة شاركتنى أحزانى المرة إذ لم تطلع الشمس بشعاع واحد فى تلك الأيام الثلاثة وكانت الأمطار هاطلة . ولطالما لحظت أنها فى أطوار حياتى كلها كانت الطبيعة تتشبه بى ، فإذا بكيت وإذا فرحت لم يكدر سحاب واحد صفاء زرقتها .

فى اليوم الرابع وكان يوم سبت ، ذهبت لمقابلة خالى وما أشد ما كانت دهشتى إذ رأيته قد تحول تماماً من نحوى . أدخلنى مكتبة أول الأمر دون أن

أرغب اليه ذلك ثم جعل يعاتبنى على شىء من الوجل كان يتولانى إذا جلست اليه . فقال لى أن الأعجوبة التى كان يطلبها لم يعد موجب لها وأنه ابتهل إلى الله أن يحبوه مجرد ميل من القلب ، فحصل على هذا الميل منذ زمن قصير . أما أنا فتعذر علىّ معرفة خالى ، قبلنى بحنان أبوى قائلا بلهجة تنم عن انفعال شديد : « اذهبى فى سلام ، يا بنيتى العزيزة . أنت زهيرة ممتازة يود الله أن يجنيها فلن أتعرض » .

لا تسلى عن فرحى وأنا عائدة إلى « البو يسونيه » تحت سماء جميلة كانت سحبها قد تبددت كلها . وفى نفسى أيضاً كان الليل قد زال . أفاق يسوع فرد إلى الفرح وما عدت أسمع صخيب الأمواج إذ بدلا من عاصفة التجربة كان يدفع شراع زورق نسيم عليل . كنت أظننى قد أدركت ميناء السلام ولكن واحسرتاه ! كان لابد أن يثور فى نفسى أكثر من عاصفة فخشيت أحيانا أن أكون قد نأيت عن الشاطىء الذى اشتاقه بملء جوارحى ، نأيت عنه بلا عودة اليه .

بعد أن نلت رضى خالى علمت بواسطتك ، يا أمى ، أن رئيس الكرمل لن يسمح لى بأن أدخل الدير قبل أن أتم الحادية والعشرين من عمرى . لم يكن أحد ليتوقع هذا الاعتراض وكان أعظم الاعتراضات خطورة وأصعبها مراسا . على أنى لم أيأس ، بل ذهبت بنفسى مع والدى إلى رئيس الكرمل وعرضت عليه أمنيتى فاستقبلنى بكل فتور ولم يقو شىء على تحويله عن رأيه . وأخيراً غادرناه وكان قراره النهائى الحاسم : « كلا » . ولكنه أردف بقوله : « لست الا وكيل سيدنا المطران فإذا سمح بهذا الترهف فلا يعود لدى اعتراض » . خرجنا من عنده فإذا نحن تحت وابل من المطر . أواه ، كانت سماء نفسى أيضا متلبدة بغيوم كثيفة . ما كان والدى يلقى إلى تعزيتى سبيلا فوعدنى أن يصحبنى إلى « بايو» حيث يقيم الأسقف إذا رغبت ذلك فقبلت شاكرة .

كم من حوادث مرت قبل أن يتسنى لنا القيام بهذا السفر! كانت حياتى الظاهرة كأنها لم تتغير ، كنت أكب على الدرس وأزداد فى الإخلاص حبا بالله تعالى و بعض مرار كان يتولانى من الشوق ما يتدفق حماساً .

ألفيتنى ذات مساء وأنا لا أعرف كيف أقول ليسوع أنى أحبه وكم أود أن يخدمه الملأ ويمجده . ففكرت ، فى ألم ، أنه من أعماق الجحيم لم تتصاعد أبدا كلمة واحدة من كلمات المحبة . وحينئذ صحت أننى أرتضى عن طيب قلب ، لو أن ذلك بالإمكان ،أن أرانى غائرة فى هذا المكان المفعم بالآلام وصراخ التجاديف لكى يحبه سكان الجحيم إلى الأبد . صحيح أن ذلك لن يمجده لأنه لا يريد الا سعادتنا ولكن المرء تحت تأثير الحب يشعر بحاجة إلى أن يقول ألف كلمة بعيدة عن جادة الصواب . ولو أنى تفوهت بما تقدم فليس ذلك لأن السماء لم تكن لتشوقنى ، ولكن سمائى أنا ما كانت حينئذ الا المحبة وكنت أشعر فى تلك الحمية أن لا شىء يستطيع أن يثنينى عما خلبنى من بغيتى الإلهية .

وفى حوالى ذلك الزمن عزانى السيد المسيح بأن أرانى عن كثب ما هى نفوس الأطفال . كان ذلك فى الظروف الآتية :

مرضت ربة أسرة فقيرة فعنيت كثيراً أثناء مرضها ببنتيها الصغيرتين . ولم تكن أكبرهما سنا قد بلغت السادسة من عمرها . كان يطيب لى حقاً أن أرى بأى نفس برىئة تصدقان كل ما أقوله لهما . لا ريب أن سر المعمودية يؤصل الفضائل الالهية فى أعماق النفس إذ أن رجاء النعيم المستقبل يكفى منذ عهد الطفولة ليحمل الإنسان على قبول التضحية ، فعندما كنت أرغب أن أقيم الوفاق التام بين بنتى الصغيرتين فبدلا من أن أعدهما باللعب والحلوى كنت أحدثهما عن الجزاء الأبدى الذى يعده الطفل يسوع للأطفال الوديعين . وأما البنت الكبرى وكان عقلها قد أخذ ينمو فكانت تنظر إلى بفرح عظيم وتسألنى ألف سؤال رائق عن الطفل يسوع وعن سمائه الجميلة فتعدنى بعد ذلك بحماس أن تذعن لشقيقتها وكانت تردف بقولها ، أنها لن تنسى دروس « الآنسة الكبيرة » إذ كانت تدعونى بهذا الإسم .

كنت أتأمل نفسيهما البريئتين فأشبههما بالشمع اللين الذى يستطيع المرء أن يطبعه بكل رسم ، يستوى فى ذلك الخير والشر ، يا للأسف . وحينئذ فقهت كلمة يسوع : « من شكك أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى ، فأجدر له لو علق فى عنقه

حجر الرحى وزج فى لجة البحر» (١٣) . أواه ، كم من نفوس كانت تبلغ درجة عالية من القداسة لو أنها منذ البداية أرشدت إلى السبيل القويم !

أعلم أن الله لا يحتاج إلى أحد ليتم ما ينويه من تقديس الإنسان ولكنه كما يسمح لبستانى ماهر أن يتعهد أغراساً نادرة الوجود ، سريعة التأثير فيحبوه لهذا الغرض ما يلزمه من الدراية على أن يحتفظ عز وجل بالقدرة على إنمائها ، كذلك يرغب أن يعاون فى زراعته لنفوس البشر . فماذا يحدث لو أن البستانى غير حاذق ولا يحسن تطعيم أشجاره ، ولا يعرف كيف يميز بين شجرة وأخرى فيطلب مثلاً من شجر الخوخ ورداً ؟

ذلك يذكرنى أنه فيما مضى كان عندى بين طيورى كنارى يخلب السمع تغريده . وكانت لى أيضاً عصفورة أخرى هى « زقيقية » أتولاها بعناية خاصة إذا تدبرت أمرها منذ مغادرتها لعشها ، هذه السجينة الصغيرة المسكينة التى حرمت من دروس ولديها فى فن الموسيقى ولم تكن تسمع صباح مساء إلا تغاريد الكنارى الفرحة أرادت ذات يوم أن تتشبه به . ما أشق هذا الأمر على طائر من فصيلتها ! كان جميلا حقا مشهد الجهود التى بذلها ذلك الطائر المسكين إذ كان يصعب على صوته الناعم أن يتفق مع الألحان الرنانة التى يبعثها معلمه . ولكن يا للعجب ! نجح مسعاه إذ أصبح غناؤه غناء الكنارى تماماً .

تعلمين ياأمى ، من علمنى الغناء منذ طفولتى ، تعلمين أى أصوات خلبتنى والآن آمل أن أستطيع يوماً بالرغم من ضعفى أن أردد إلى الأبد أنشودة الحب التى كثيراً ما سمعت ألحانها الشجية توقع فى هذه الحياة الدنيا .

لكن أين أنا من سيرتى ؟ لقد أبعدتنى هذه التأملات كثيراً عن موضوعها فها أنا ذا أبادر إلى مواصلة الحديث عن حنينى إلى الترهب .

فى ٣١ أكتوبر سنة ١٨٨٧ توجهت مع والدى وحده إلى « بايو» والقلب يطفح أملا غيرأنى كنت أيضاً أضطرب كثيراً لفكرة مثولى فى دار الأسقفية . كان

(١٣) متى ، ١٨ : ٦ .

علىّ للمرة الأولى فى حياتى أن أقوم بزيارة دون أن تصحبنى اخوانى وكانت هذه الزيارة لمطران . أنا التى لم أشعر أبدا بحاجة إلى الكلام الا لأرد على الأسئلة التى كانت توجه إلى ، كان يلزمنى أن أتبسط فى شرح الأسباب التى تدعونى إلى التماس دخولى الكرمل وذلك لكى أثبت أن شوقى إلى الترهب قائم على أساس متين .

كم عانيت من جهد للتغلب على وجلى إلى ذلك الحد ! نعم ، « أن الحب لا يرى شيئاً محالاً إذ يظن كل شىء مستطاعاً جائزاً » (١٤) . ما أصدق هذه الكلمات ! وفى الحق فإن محبة يسوع وحدها كان فى استطاعتها أن تحملنى على مواجهة هذه الصعاب والتى تلتها ، إذ قدر لى أن أبتاع سعادتى بتجارب عظيمة . على أننى اليوم أرانى قد اشتريتها بأبخس الأثمان ! ولو لم أنل إلى اليوم هذه السعادة لكنت مستعدة فى سبيل بلوغها أن أتحمل من الصعاب ما يفوق ألف مرة تلك التى تكبدتها .

وكأن « كوى السماء قد تفتحت » لما وصلنا إلى دار الأسقفية . قابلنا الآب « رفرونى » النائب العام بكل ترحاب مع بعض الدهشة وكان هو بنفسه قد عين لنا تاريخ سفرنا . لحظ الدمع بترقرق فى عينى فقال : « ها أنى أرى الماسا ، فيجب عليك الا تريه لسيدنا المطران » .

اجتزنا حينئذ قاعات فسيحة كنت أرانى فيها كنملة صغيرة وأسأل نفسى ما عسانى أجرأ أن أقول . كان سيادة المطران يتمشى فى الرواق بصحبة كاهنين ورأيت النائب العام يبادله بعض الكلمات و يأتى معه إلى القاعة التى كنا ننتظره فيها . كانت هنالك ثلاثة مقاعد فخمة رتبت أمام المصطلى حيث تزفر نار متأججة .

لما دخل سيادة المطران ركع والدى بالقرب منه ليتقبل بركته ، ثم أجلسنا سيادته فقدم لى الأب رفرونى المقعد المتوسط فاعتذرت فى أدب فألح على داعيا

(١٤) الاقتداء ، ٣ : ٥ ــ ٤ .

ايـاى أن أبين مـا إذا كـنـت أعـرف الـطـاعة . فامتثلت فى الحال دون أدنى انتباه وخـجـلـت إذ رأيـتـه يـعـمـد إلى كرسى وأنا غائرة فى مقعد مهيب تتوفر فيه الراحة لأربعة مثلى ، بل أكثر مما كانت تتوفر لى إذ كنت بعيدة عنها كل البعد ، وكنت آمل أن يتكلم والدى ولكن طلب منى أن أوضح الغرض من زيارتنا ، فوضحته بأبلغ ما استطعت وأنا أعلم جيداً أن كلمة بسيطة من الرئيس تفيدنى أكثر من حججى ولكن وا أسفاه ! لم تكن معارضته لتدافع عن قضيتى .

سألنى سيادة المطران هل أرغب منذ أمد بعيد دخولى الكرمل . فأجبته : « أى نعم ، يا سيدنا ، منذ أمد بعيد » . فقال الآب رفرونى مبتسماً : على كل لا يمكن أن ترجع رغبتك هذه إلى أكثر من خمسة عشرة عاماً » . فقلت : « هذا صحيح ولكن عدد السنين الذى يجب حذفه ليس بكبير ، لأنى رغبت أن أهب نفسى إلى الله منذ سن الثلاث سنوات » .

حاول سيادة المطران افهامى أنه لا يزال على أن ألزم والدى بعض الزمن وكان يظن ذلك واقعاً منه موقع الرضى . فلا تسألى عن دهشة سيدنا واستحسانه لقدرة أبى الصالحة إذ رآه ينحاز إلى جانبى قائلا فى هيئة من فائق الرقة أننا سنذهب إلى روما مع من يحجونها من أبناء الأبرشية وأننى لن أتردد فى بسط أمرى على قداسة البابا إذ لم أنل الإذن المرغوب قبل سفرنا .

لكن رؤى أن لابد لسيدنا من مراجعة الأب الرئيس قبل أن يبلغنا أى قرار . لم يكن فى حيز الامكان أن أسمع ما يؤلمنى أشد من ذلك لأنى كنت أعلم معارضته الصريحة الحاسمة ، فلم أبال حينئذ بتوصية الآب رفرونى إذ ما فعلته كان أكثر من أن أرى سيدنا الماس دمعى . أعطيته منه ما هطل . شعرت أنه تأثر حقا فأخذ يلاطفنى ملاطفة يظهر أنه لم يمن بها على أى فتاة قبلى . قال لى : « ما انقطع كل أمل ، يا عز يزتى الصغيرة ، أنه ليسرنى جدا أن تسافرى إلى روما مع أبيك الصالح ، بذلك تزكين حنينك إلى الترهب . فبدلا من أن تبكى يلزمك أن تفرحى . وفوق ذلك فإنى ذاهب إلى ليز يو فى الأسبوع القادم وسأخاطب الرئيس بشأنك ولا ر يب أنك تتلقين ردى فى ايطاليا » .

ثم زافقنا سيدنا حتى الحديقة وأثار والدى جد اهتمامه إذ قص عليه أننى فى هذا الصباح عينه قد عمدت إلى رفع شعرى كى ألوح أكبر سنا مما أنا . لم تذهب قصته أدراج الرياح وأعلم أن اليوم لا يحدث سيدنا أحدا عن بنيته دون أن يروى له قصة شعرى ولكنى أقر بأننى أود لو لم يعرف خبره . ثم صحبنا النائب العالم إلى الباب وهو يقول أن أمرا كهذا لم يشاهد قط : والد يبادر إلى تقديم ابنته لله مبادرتها هى إلى تقديم نفسها له .

وحينئذ وجب علينا أن نقفل راجعين إلى ليزيو دون أن نظفر بأى جواب طيب ، لاج إلى أن مستقبلى قد تهدمت أركانه ولن تقوم له قائمة . كنت كلما أدنو من نهاية مساعى ، أرى أمرى يعرقل ولكن ما برحت أعماق نفسى فى سكينة عظيمة لأننى ما كنت أطلب الا مشيئة المولى .

الفصـــل الســـادس

السفر إلى روما ــ مقابلة البابا ليون الثالث عشر
رد صاحب السيادة اسقف بايو ــ انتظار ثلاث أشهر

بعد ثلاثة أيام من سفرنا إلى بايوكان علىّ أن أعمد إلى آخر أطول منه بكثير هو السفر إلى روما . انه أرانى ما يقوم عليه البطلان كل شىء زائل ! مع ذلك فقد شاهدت الأبنية الفخمة وتأملت عجائب الفن والدين بأسرها ، على الأخص وطأت نفسى الأرض التى وطأها الرسل ، الأرض التى أرواها دم الشهداء . فكبرت نفسى إذ اتصلت بتلك الآيات المقدسة .

إنى لسعيدة أن سافرت إلى روما ولكنى أفهم الذين كانوا يظنون والدى قائما بذلك السفر ليحول فكرى عن وجهة الدير إذ كان هناك بلا ريب ما يزعزع شوقاً إلى الترهب لم تتوطد أركانه .

أولا وجدتنى مع سيلين وسط فئة من علية القوم وكان جمع المسافرين الذين التحقنا به لا يتألف من سواهم أو يكاد . على أننا لم نفتن بأى لقب من ألقابهم الشرفية . لا وحقك ، فلم تبد فى ناظرنا الا دخانا بائداً بل فهمت الآية الواردة بكتاب الاقتداء بيسوع المسيح ! « لا تلحقوا بالخيال المدعو اسما كبيرا »[1]. فهمت أن العظمة الحقيقية لا تقوم فى الإسم بل فى النفس .

---

(١) الإقتداء ، ٣ : ٢٤ : ٢ .

يقول لنا أحد الأنبياء : « ان الرب يطلق اسما آخر على مختار يه » (٢) ، كذلك نقرأ فى كتاب القديس يوحنا : « ينال المنتصر حصاة بيضاء مكتوب عليها اسم جديد لا يعرفه غير من سمى به » (٣) . إذن لن نعلم إلا فى السماء ما نحوز من ألقاب الشرف . حينئذ « ينال كل من الله الثناء الذى يستحقه » (٤) . فمن اختار على الأرض حباً بالسيد المسيح أن يكون أفقر الناس وأقلهم ذكراً يكون هو ألهم وأوفرهم شرفا وغنى .

وأما الأمر الثانى الذى خبرته فيختص بالكهنة . كنت حتى ذلك الحين لا أستطيع أن أفهم الغرض الأول من التعديل فى قانون الكرمل . كانت الصلاة لأجل الخطأة تأخذ بمجامع قلبى ، أما الصلاة لأجل الكهنة ونفوسهم أطهر من البللور فى نظرى ، فكانت تبدو لى من الغرابة بمكان . أجل ، أننى أدركت فى إيطاليا معنى ترهبى وعندى أن مثل هذه المعرفة المجدية لأغلى من أن أكون قد اكتسبتها دون القيام بهذا السفر الطو يل .

التقيت بكثير من الكهنة الصالحين فى شهر من الزمن ، فتبين لى أنه ولو كانت رتبتهم السامية ترفعهم إلى ما فوق الملائكة الا أنهم مع ذلك بشر ضعيف سر يع السقوط . فما دام بعض الكهنة الصالحين الذين يدعوهم يسوع فى الانجيل المقدس بملح الأرض يظهرون أنهم فى حاجة إلى الصلاة . فماذا يجب أن نرى فيمن يصيب منهم الفتور؟ أما قال يسوع أيضاً : « إذا فسد الملح فبماذا يملح » (٥) .

ما أجمل الغرض الذى نقصد إليه فى الترهب ، يا أمى ! نحن أىّ الكرمل مطالبون بأن نحفظ ملح الأرض ! صلواتنا وتضحياتنا نقدمها لأجل رسل المسيح . يجب علينا نحن أن نكون رسلهم بينما هم يبشرون نفوس أخوتنا بالقول والعمل . حقاً ما أشرف رسالتنا ! لكن ينبغى على أن ألزم هذا الحد إذ أشعر بأن قلمى لا يقف إذا طرقت هذا الموضوع .

(٢) أشعيا ، ٦٥ : ١٥

(٣) رؤيا ، ٢ : ١٧ .

(٤) كورنتس الأولى ، ٤ : ٥

(٥) متى ، ٥ : ١٣ .

والآن ، يا أمى الحبيبة ،أقص عليك سفرى ببعض التفصيل .

فى الساعة الثالثة صباحا من يوم ٤ نوفبر كنا نجتاز مدينة ليز يو والليل لا يزال مخيما عليها . كم تأثرت نفسى بعوامل شتى ! كنت أشعر بأنى ذاهبة إلى سر المجهول . كنت أعلم أن أشياء خطيرة تنتظرنى هناك .

وصلنا إلى بار يس فأطلعنا والدى على كل بدائعها . أما أنا فلم ألق فيها الا واحدة : هى كنيسة « سيدة النصر » . ليس فى وسعى أن أصف ما شعرت به فى هيكلها . ان النعم التى وهبتنى اياها سيدة النصر لأشبه بالتى نلتها يوم مناولتى الأولى . كان السلام والبشر يغمرانى . « هنالك قالت لى جليا أمى العذراء مريم أنها هى التى ابتسمت لى وشفتنى » . لله ما كان أعظم تقواى وأنا أتوسل إلى السيدة العذراء أن تحرسنى على الدوام وتحقق أمنيتى وتوارينى فى مئزرها البتولى ، والتمست منها كذلك أن تبعد عنى كل أسباب الخطيئة .

ما كنت أجهل أننى فى أثناء سفرى ساشاهد أموراً كثيرة من شأنها أن تقلقنى . لم يكن لى أى علم بالشر ، فكنت أخشى أن أتبينه . لم أكن بعد قد اختبرت الحكمة القائلة : « فى نظر الأطهار كل شىء طاهر » (٦) . ان النفس العادمة التصنع الخالصة النية لا ترى الشر فى شىء لأن الشر لا يقوم الا فى القلوب المدنسة ، لا فى الأشياء ذاتها إذ هى عديمة الحس . وابتهلت أيضاً إلى القديس يوسف أن يرعانى وكان تعبدى له يمتزج منذ طفولتى بحبى للقديسة العذراء . كنت أصلى كل يوم هذه الصلاة : « أيها القديس يوسف ، يا أب العذارى وحاميهن . . » اذن كنت أرانى مصونة حقا وفى مأمن تام من الخطر .

بعد أن كرسنا أنفسنا إلى قلب يسوع فى كاتدرائية مونمارتر غادرنا بار يس فى ٧ نوفبر واستقر الرأى على أن يعرف كل ديوان من عربات السكة الحديد باسم قديس ، وأتفق على أن يسدى هذا الشرف إلى واحد من الكهنة الذين يقلهم الديوان وذلك باختيار اسم شفيعة أو شفيع رعيته .

---

(٦) طيطس ، ١ : ١٥ .

ولكن سمعنا بحضور جميع المسافرين اسم « القديس مرتين » يطلق على ديواننا فتأثر والدى كثيراً من هذه الرقة ، وذهب للحال يشكر سيدنا « لجو » نائب كوتانس العام ومدير الرحلة ومن ذلك الحين لم يدعه الكثيرون الا حضرة « القديس مرتين » .

كان الآب رفرونى يرصد كل أعمالى بانتباه . كنت ألمحه من بعيد وهو يرقبنى ، وحينما لم أكن أجلس أمامه على مائدة الأكل كان لا يعدم وسيلة للإنحناء نحوى كيما يرانى و يسمعنى ، ولا أخاله الا كان راضيا عن امتحانه لى ، أنه فى نهاية سفرنا أظهر حسن استعداده قبلى . وإنما أقول « فى نهاية » سفرنا لأنه فى روما كان بعيدا بمراحل عن الأخذ بناصرى كما سأبين ذلك عما قليل .

وقبل أن ندرك غايتنا من السفر اجتزنا سو يسرا بجبالها الشامخة التى تضمحل قممها الثلجية فى قلب الغمام ، سو يسرا بمياهها المتساقطة وأوديتها العميقة تكسوها أشجار الخنشار الباسقة والأر يق الوردية .

أمى الحبيبة ، كم أفادت نفسى هذه البدائع الطبيعية المنتشرة بتلك الوفرة ! كم رفعتها نحو الذى طاب له أن يلقى مثل هذه الطرائف على أرض منفى قدر لها ألا تدوم غير يوم واحد !

كان القطار يصعد بنا أحيانا حتى قمم الجبال فتنفغر تحت أقدامنا هوات لا يستطيع البصر أن يسبر غورها ، وكأنها تبغى ابتلاعها فنجتاز بعد ذلك بلدة جميلة بدورها القرو ية والبرج اللطيف الذى يأوى جرس كنيستها وقد تمايلت من فوقه فى رفق غيوم خفيفة . ثم بحيرة فسيحة الأرجاء بأمواجها الساكنة الصافية تمتزج زرقتها بأشعة الشمس المائلة للغروب .

كيف أصف انفعالى أمام تلك المناظر الشعر ية الجليلة ؟ كنت أستجلى من خلالها العجائب السماو ية .. بدت لى الحياة الرهبانية كما هى مع ما تفرض من الواجبات والتضحيات الصغيرة التى تؤتى فى الخفاء . أدركت كم يهون حينئذ على المرء أن يتراجع إلى ذاته وأن ينسى الغرض السامى من ترهبه . فقلت فى

نفسى ؛ « غدا ساعة التجربة حينما لا أستطيع وأنا فى الكرمل أن أرى الا ركنا صغيراً من السماء ، سأتذكر هذا اليوم . هذا المنظر سيستنهض همتى ، فلن أعتد بشؤونى التافهة بينما أتامل فى عظمة الله وسلطانه . سأحبه وحده ولن يكون من بؤسى أن أتعلق بالهشيم الآن وقد رأيت ما يعده لمن يحبونه » .

وبعد أن سرحت الطرف فى مبدعات الخالق استطعت أن أعجب كذلك بصنع مخلوقاته . كانت ميلان أول مدينة زرناها فى ايطاليا ، فغدت موضع اهتمامنا الخاص بكاتدرائيتها ذات الرخام الأبيض والتماثيل العديدة حتى أنه قد يتألف منها شعب بأسره .

تركنا أنا وسيلين السيدات الوجلات يخفين وجوههن فى أيديهن بعد أن ارتقين درجات البناء الأولى وتبعنا أشجع الزوار فبلغنا أعلى مرحلة من برج الأجراس وأتيح لنا سرور مشاهدتنا ميلان كلها تحت أقدامنا ، وكان سكانها يبدون كنمل صغير . ولما نزلنا من البرج بدأنا نزهاتنا مستقلين عربات ، وقد دامت شهراً وأشبعتنى إلى نهاية أيامى من التجول بلا تعب .

خلب لبنا « الحقل المقدس » (٧) بتماثيله الرخامية البيضاء منثورة فى حقل الأموات الفسيح الأرجاء على نوع من عدم العناية لا يخلو من جمال ، وكأن يد العبقرية أودعتها الحياة فيكاد يبدو للزائر أن يؤاسى من يحدقون به من الأشخاص الرمزيين ، إذا ما أصدق ملامح الألم الهادىء ، المسيحى الذى يشف عن وجوههم ! يا لها من طرائف ! هنا صبى ينثر الأزهار على قبر والده فينسى الرائى ثقل الرخام إذ تلوح وريقات الزهر الناعمة كأنها تنزلق بين أصابعه ! هناك تبدو البراقع الخفيفة التى تتستر بها الأرامل أو الشرائط التى تزين شعور الفتيات كأنها تتموج فى مهب الهواء .

كانت تعوزنا الألفاظ للإعراب عن إعجابنا ، واذ بفرنسى طاعن فى السن يقتنى أثرنا أينما ارتحلنا فى لهجة المتذمر وهو لا شك آسف لعدم استطاعته أن

---

(٧) المدافن .

يشاركنا شعورنا . « آه من الفرنسيين ، ما أشد هوسهم ! » فى ظنى أنه كان أفضل لهذا الرجل أن يلزم بيته . لم يسره قط سفره ، فما برح لسانه يرتفع بالشكوى ، كان يتململ من المدن ومن الفنادق ومن الناس ومن كل شىء .

وكثيراً ما حاول والدى أن يسرى عنه ، والدى الذى ما حل بمكان الا اطمأن اليه ، كان طبعه وطبع هذا الجار الكدر على طرفى نقيض . عنى والدى بأن يقدم له محله فى العربة وغيرها وعمد بما عرف عنه من كبر النفس إلى أن يريه الأمور من وجهها الحسن ، ولكن لم يكن شىء ليزيل عبوسه . كم تبينا من التفاوت فى طباع البشر ، وما أجدر درس العالم باثارة الاهتمام إذ يباشر المرء هذا الدرس وهو على وشك أن يغادر العالم !

فى البندقية تبدلت المناظر تماماً . هناك بدلا من ضجة المدن الكبيرة لا يسمع المرء فى وسط السكون غير صوت النوتية وهدير المياه تحت قرع المجاذيف . حقاً أن لهذه المدينة جمالا خاصاً ولكنها تبعث الكآبة . سراى الأمراء ذاتها على كل فخامتها تبعث الكآبة . قباتها الرنانة لا تردد منذ زمن بعيد صوت الحكام يصدرون قضاءهم بالحياة أو بالموت فى تلك القاعات التى طفنا بها . لقد كف عن العذاب هؤلاء التعساء المقضى عليهم أن يدفنوا أحياء فى ظلمات السجون .

حسبتنى فى عهد الشهداء وأنا أزور تلكم الحبوس المريعة . هذا المسكن المظلم كنت قد اخترته عن طيب خاطر لوجوب على أن أحل به جزاء اقرارى بايمانى . ولكن ما لبثت أن بدد صوت الدليل تخيلاتى هذه . ثم عبرت جسر التنهدات ، وانما سمى كذلك اشارة إلى تنهدات الفرح التى كان يبعثها المساجين التعساء اذ يرون أنفسهم قد نجوا من هول الديناميس وكانوا يؤثرون عليها الموت .

وبعد أن ودعنا البندقية كرمنا فى « بادو » لسان القديس انطونيوس وفى لوليتيا جثمان القديسة كاترينا التى لا تزال قبلة الطفل يسوع مرتسمة على محياها .

كنت سعيدة أن أراني فى طريقى إلى « لوريت » . وكم أحسنت القديسة البتول إذ اختارت هذا المكان لتستودعه بيتها المبارك . فى لوريت كل شيء حقير بسيط قديم ، نساؤها لا يزلن يحافظن على الزى الإيطالى الظريف ، فما أتخذن أزياء باريس كنساء المدن الأخرى . وقصارى القول ، فتنت بلوريت .

ماذا أقول عن البيت المقدس ؟ ولكم تأثرت إذ رأيتنى تحت السقف عينه الذى ظلل العائلة المقدسة ، إذ تأملت الجدران التى حدق فيها السيد المسيح بنظره الإلهى . إذ وطأت الأرض التى أرواها القديس يوسف من عرقه . ذلك البيت الذى فيه حملت مريم يسوع على ذراعيها بعد أن حملته فى أحشائها البتولية . شاهدت غرفة البشارة ، تلكم الغرفة الصغيرة ، ووضعت مسبحتى فى طاسة الطفل يسوع . فيالها من ذكريات فاتنة !

أما أكبر تعزية لنا فكانت أن نتقبل يسوع فى بيته وأن نصبح بذلك هيكله الحى فى نفس المكان الذى شرفه بحضوره الالهى . هناك تبعاً للتقاليد الرومانية لا يحفظ سر الافخارستيا فى كل كنيسة الا على مذبح واحد ، فلا يوزعه الكهنة على المؤمنين الا من ذلك المذبح . ففى لوريت هذا المذبح كائن فى الكنيسة الكبرى التى تتضمن البيت المقدس ، فكأنه الماسة كريمة فى علبة من الرخام الأبيض . لم تكن هذه التقاليد لتلائم رغبتنا . فى الألماسة لا فى علبتها كنا نود أن نتقبل خبز الملائكة . لذلك بينما كان والدى يقتفى أثر الزائرين بدماثته المعهودة ، كانت بنتاه العاصيتان تتجهان إلى « البيت المقدس » .

وكان هناك بامتياز خاص كاهن يتأهب أن يقيم القداس فأنهينا اليه رغبتنا . وفى الحال طلب هذا الكاهن المغيار برشامتين صغيرتين ووضعهما على صينية الكأس . تدركين يا أماه ، ما حل بنا لدى هذه المناولة من سعادة لا توصف ! ان اللسان لأعجز عن تبيانها . فما عساها تكون يوم نتناول مدى الأبدية ملك السماوات فى بيته ؟ حينئذ لن ترى سعادتنا تؤول إلى الزوال ، لن يكدرها حزن الفراق ! لن تدعونا الحاجة إلى أن نخدش فى غفلة من النظار تلك الجدران المقدسة

بحضور الله ، كما فعلنا لدى مغادرتنا لها ، إذ أن بيته سيكون بيتنا مدى الأزمان . لا يريد أن يعطينا بيته على الأرض ، بل يكتفى بأن يرينا اياه ليحملنا على إيثار الفقر والحياة المتوارية . إنما البيت الذى يعده لنا سراى مجده ، حيث لن نعود نراه خلال حجاب قائم فى صورة طفل أو قطعة خبز ، كما هو فى بهاء سنائه غير المتناهى !

والآن أحدثك عن روما ، روما التى كنت أظننى لاقية فيها التعزية والتى لقيت فيها الصليب واحر باه ! وصلناها ليلا وكنت قد رقدت فى القطار ،فأيقظنى صوت الموظفين فى المحطة يردده الزائرون بحماس : « روما ، روما » . لم يكن ذلك حلماً . كنت فى روما !

اليوم الأول ولعله أرغد أيامنا فيها ، قضيناه خارج أسوارها ، حيث تحتفظ جميع الآثار بطابعها القديم . أما فى قلب المدينة أمام الفنادق والمخازن فقد يخيل إلى المرء أنه فى باريس .

هذه النزهة فى الحقول الرومانية تركت فى نفسى تذكاراً ذكيا خاصاً . كيف أعرب عن انفعالى إذ وقفت واجبة القلب أمام « الكوليزيه « ؟ كنت أشهد إذن بعد طول الانتظار ذلك الميدان الذى جاد فيه آلاف الشهداء بدمهم لأجل يسوع ! وقد تأهبت لأن أقبل تلك الأرض التى قدسها جهادهم المجيد ، ولكن يا للخيبة ! كان مستواها قد ارتفع فحل الميدان الحقيقى فى عمق ما يقرب من ثمانية أمتار . ونظراً إلى أعمال الحفر لم يكن وسطه إلا أكواماً من الأنقاض محاطة بسياج لا يتجاوز، كان يمنع المرء عن دخوله فضلا عن أنه لا يجرأ أحد على التوغل فى هذه الخرائب لما يحف بها من الأخطار .

هل كان مقدراً لى أن أجىء إلى روما دون أنزل إلى « الكوليزيه » ؟ كلا ، ذلك محال . لدى هذه الفكرة لم أعد أصغى إلى شرح الدليل . لم يسترع خاطرى غير أمر واحد هو أن أنزل إلى ذلك الميدان !

● دير وفناء الكرمل بليز يو حيث قضت القديسة تر يزا حياتها الرهبانية

« ما جئت أصنع فى الكرمل ، صرحت به فى الإمتحان الاحتفالى السابق للفظى النذور الرهبانية :

جئت لكى أنقذ النفوس ، ولا سيما لكى أصلى من أجل الكهنة » .

« القديسة تر يزا »

جاء فى الإنجيل المقدس أنه لما « ظلت مريم المجدلية مقيمة فى جانب القبر الالهى انحنت » المرة تلو المرة لتنظر ما فى داخله ، « فرأت أخيراً ملاكين » (٨) . ومثلها ظللت أنحنى فرأيت لا ملكين بل ضالتى المنشودة ، فصحت فى فرح قائلة لسيلين : « هلمى اتبعينى سيتسنى لنا المرور» . وللحال أطلقنا نتسلق الخرائب ، وكانت تنهار تحت أقدامنا ، بينما والدى يدعونا من بعيد مندهشا من جرأتنا ، ولكن لم نكن نسمع شيئاً .

وكما أبطال الوغى يشعرون بشجاعتهم تتضاعف وسط المخاطر كنا نزداد فرحا كلما تعبنا وما نواجه من الخطر لبلوغ غايتنا .

رأيت سيلين أكثر تبصراً منى ، إذ كانت قد أصغت إلى الدليل . فتذكرت أنه أشار منذ هنيهة إلى بلاط صغير متشابك باعتباره المكان الذى جاهد فيه الشهداء ، فذهبت تتفقد هذا البلاط وما لبثت أن لقيته فجثونا على هذه الأرض المباركة وامتزجت نفسانا فى صلاة واحدة .. كان قلبى يخفق بشدة وأنا أدنى شفتى من التراب الذى صبغه دم المسيحيين الأولين . سَألت المولى أن ينعم على بأن أستشهد أنا أيضا فى سبيل يسوع ، وشعرت فى أعماق نفسى أن طلبى أستجيب .

تم كل هذا فى برهة وجيزة جداً . ثم التقطنا بعض الأحجار وتوجهنا إلى الأسوار لنقتحم ثانية خطر مسعانا ، ولما رأى والدى ما بدا من سعادتنا لم يسعه أن يؤنبنا بل لاحظت أنه كان فخوراً بشجاعتنا .

وبعد الكوليزيه زرنا « السراديب » التى كان يأوى اليها المسيحيون الأولون . هناك وجدت سيلين وتر يزا سبيلا للاضطجاع جنبا إلى جنب فى قبر القديسة سيسيل القديم منحدرتين حتى قاعة ، وقد أخذنا شيئاً من التراب الذى قدسته رفاتها المباركة .

---

(٨) يوحنا ، ٢٠ : ١١ .

قبل هذه السفرة لم أكن أكرم القديسة سيسيل بأى نوع خاص ، ولكنى لما زرت بيتها والمكان الذى استشهدت فيه وعلمت أنه نودى بها « ملكة الموسيقى » للنشيد البتولى الذى اسمعته من أعماق قلبها لعريسها السماوى ، شعرت نحوها بما يتجاوز حد التكريم ، شعرت حقاً بحنو الصداقة . أصبحت قديستى المختارة ونجيتى الحميمة . والذى كان يفتننى منها على الأخص هو استسلامها وثقتها غير المتناهية مما أتاح لها أن تحمل على التبتل نفوساً لم تطلب قط إلا فرح الحياة الحاضرة . فالقديسة سيسيل أشبه بعروس النشيد . أرى فيها « انتظام صفوف فى معسكر » [٩] . لم تكن حياتها الا نشيداً شجياً حتى فى أشد التجارب .. ولا غرو « فقد كان الانجيل المقدس مستقراً على صدرها » [١٠] . وكان عريس العذارى ثاويا فى قلبها .

وكذلك طابت لى كثيراً زيارتى لكنيسة القديسة أغنييس . هناك لقيت صديقة من صديقات الطفولة ، وعبثاً حاولت أن أحصل على ذخيرة من ذخائرها لأجىء بها إلى أمى الصغيرة أغنييس للطفل يسوع . ولما رفض البشر طلبى تدخل الله فى الأمر ، إذ انفصلت رخامة صغيرة حمراء من مجموعة أحجار متلونة فاخرة يرجع عهدها إلى أيام الشهيدة الوديعة ، فسقطت عند قدمى . ألم تكن هذه مصادفة جميلة ؟ ان القديسة أغنييس نفسها أعطتنى تذكاراً من بيتها ! .

قضينا ستة أيام نمتع الطرف بالبدائع الرومانية وفى اليوم السابع رأيت أكبرها كلها ألا وهى لاون الثالث عشر . هذا اليوم كنت أصبو اليه وأخشاه معاً ، إذ كان ترهبى يتوقف عليه . لم يكن قد وصلنى أى رد من سيادة المطران ، فكان اذن الحبر الأعظم أملى الوحيد . ولكن لأحصل على الاذن ، كان يلزمنى أن أطلبه ، كان يلزمنى أن « أجرأ على محادثة البابا » أمام كثير من الكرادلة ورؤساء الأساقفة والأساقفة . مجرد هذه الفكرة ، كان يرعبنى .

فى صباح الأحد ٢٠ نوفمبر دخلنا معبد الحبر الأعظم فى الفاتيكان وفى الساعة

---

(٩) نشيد ، ٧ : ١ .

(١٠) فرض القديسة سيسيل

الثامنة كنا نحضر قداسة . أثناء قيامه بالذبيحة الالهية أرانا بتقواه الحارة الجديرة بنائب السيد المسيح ، أنه حقاً الأب الأقدس .

جاء فى انجيل ذلك اليوم هذه الكلمات الخالدة « لا تخف ، أيها القطيع الصغير ، فقد سر أبوكم أن يعطيكم الملكوت » (١١) . فاستسلم قلبى إلى ثقة ما من بعدها ثقة . كلا ، ما كنت خائفة ، بل كنت آمل أن أمتلك عن قريب ملكوت الكرمل . ما فطنت حينئذ إلى كلمات يسوع الأخرى هذه : « فأنا أعد لكم الملكوت كما أعده لى أبى » (١٢) . يريد بذلك أننى أحفظ لكم صلباناً ومحنا و بذلك تصبحون أهلا لتملكوا ملكوتى . « أما كان ينبغى للمسيح أن يتألم هذه الآلام ثم يدخل إلى مجده ؟ » (١٣) . إذا اشتهيتما الجلوس بالقرب منه « فعليكما أن تشربا الكأس التى شربها هو ذاته » (١٤) .

عقب قداس الحبر الأعظم قداس فعل الشكر وتلته المقابلة . كان لاون الثالث عشر جالساً على كرسى مرتفع يرتدى فى بساطة ثوبا أبيض ومندلا من اللون ذاته . يحف بقداسته بعض الأحبار وذوى المقامات الكنسية العالية . تبعاً لأصول التشريفات ، كان كل زائر يجثو بدوره فيلثم أولا قدم الحبر الأعظم فيده ، ثم يتناول بركته . و بعد ذلك يلمسه اثنان من الحرس الشرفى بالأصبع مشيرين اليه أن ينهض فينتقل إلى قاعة أخرى تاركا محله لمن يتبعه .

لم يكن أحد يتفوه بكلمة ولكنى عزمت عزماً أكيداً على التكلم ، و إذا بالأب رفرونى ، وكان جالساً عن يمين قداسته ، ينبهنا إلى أنه « ينهانا كل النهى » عن مخاطبة الأب الأقدس . فالتفت إلى سيلين أستطلع رأيها بنظرة وقلبى يكاد ينفطر لشدة خفقاته ، فقالت لى : « تكلمى » .

و بعد هنيهة كنت عند قدمى البابا . لثمت حذاءه فقدم لى يده ، وحينئذ رفعت اليه الطرف وقد أغرورقت عيناى دمعاً ، فتوسلت اليه قائلة : « أيها الأب

---

(١١) لوقا ، ١٢ : ٣٢ .
(١٢) لوقا ، ٢٢ : ٢٩ .
(١٣) لوقا ، ٢٤ : ٣٦ .
(١٤) متى ، ٢٠ : ٢١ .

الأقدس ، التمس منك نعمة عظمى » . فللحال أحنى رأسه نحوى حتى كاد وجهه يلمس وجهى ، وكأنى بعينيه السوداوين العميقتين تبغيان الولوج حتى صميم نفسى .

فأعدت الكرة قائلة : « أيها الأب الأقدس ، ألا أسمح اكراما ليوبيلك أن أدخل الكرمل وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى ؟ » .

فما لبث نائب بايو العام ، أن قال مندهشاً مستاءا : « أيها الأب الأقدس هذه فتاة ترغب الدخول إلى الكرمل ، ولكن أمرها الآن تحت البحث لدى الرؤساء » .

فقال لى قداسته : « إذن ، يابنيتى ، افعلى ما يقرره الرؤساء » . فضممت يدى واسندتها إلى ركبتى قداسته وقلت باذلة جهدى الأخير : « أيها الأب الأقدس ، إذا قلتم نعم ، فكل من يعنيهم الأمر يرضون كل الرضاء » .

فحدق فى ولفظ الكلمات الآتية موضحا كل مقطع منها بصوت نافذ مؤثر : تجملى ... تجملى ... ستدخلين إذا أراد الله ذلك » .

همست بمواصلة الكلام واذا باثنين من الحرس الشرفى يدعوانى إلى النهوض ، ولما رأيا أن ذلك لا يكفى ، جذبانى من ذراعى وأعانها الأب رفرونى على إنهاضى ، لأنى لبثت مضمومة اليدين أسندهما إلى ركبتى قداسته . وبينما هم ينقلوننى هكذا وضع الأب الأقدس الحنون يده على شفتى برفق ، ثم رفعها ليباركنى وشيعنى بنظره طويلا .

تكدر والدى جدا إذ رآنى أسكب الدمع أثر مقابلة للحبر الأعظم لأنه مر قبلى فلم يكن يعلم شيئاً عن محاولتى . أما هو فقد أظهر له النائب العام كل لطف إذ قدمه للاون الثالث عشر بوصفه والد راهبتين كرمليتين . فوضع الأب الأقدس يده على رأسه الوقور عنواناً لعطفه الخاص وكأنه يسمه بوسم خفى باسم المسيح نفسه .

الآن وهو فى السماء هذا الأب والد « أربع كرمليات » ، فاليد التى تستقر على جبينه ليست يد نائب المسيح تتنبأ له بالألم ، بل يد عروس العذارى ملك

السماوات . وهذه اليد لن تنسحب أبداً من الجبين الذى مجدته .

كانت تجربتى كبيرة ولكننى قمت تمام القيام بكل ما يتوقف على لأجيب الله إلى ندائه ، لذلك يلزمنى أن أقر بأنى رغم دموعى كنت أشعر فى سويداء القلب بسلام عظيم . على أن هذا السلام استقر فى أعماقه إذ كانت المرارة تملأ نفسى حتى أطرافها وكان يسوع صامتا فكأنه غائب : لم يكن شىء لينبئنى عن حضوره .

وفى ذلك اليوم أيضاً « لم تجرأ الشمس أن تتلألأ » . سماء إيطاليا سماؤها الجميلة كانت متلبدة بالغيوم مكفهرة فلم تبرح تشاركنى البكاء ، أواه ، كان الأمر قد قضى ! لم يعد لسفرى أى بهجة فى عينى اذ فاتتنى الغاية منه . ومع ذلك كان يجب على أن أتأس بكلمات الأب الأقدس كأنها نبوءة صادقة . وفعلا بالرغم من كل العقبات « تمت مشيئة الله » . لم يسمح للخلائق أن يفعلوا ما يشاؤون ، بل ما يشاء .

كنت منذ حين قد وهبت نفسى للطفل يسوع لأكون « ألعوبته الصغيرة » ، فقلت له الا يستخدمنى كألعوبة ثمينة يكتفى الأولاد بأن يسرحوا فيها الطرف دون أن يقدموا على لمسها ، بل كأنى كرة لا قيمة لها على الإطلاق يسعه أن يلقيها إلى الأرض ، أو يركلها برجله ، أن يثقبها ، أن يتركها فى ركن من الأركان أو أن يضعها إلى قلبه إذا طلب له ذلك . وقصارى القول : « أردت أن ألهى الطفل يسوع وأن أستسلم إلى أهوائه الصبيانية » .

وكان إذ ذاك قد استجاب طلبى ! فى روما « ثقب » يسوع العوبته الصغيرة .. « أراد بلا شك أن يتبين ما فى داخلها » ... ثم سر مما اكتشف فترك كرته الصغيرة تهوى ورقد . ماذا فعل أثناء رقاده العذب وماذا غدت الكرة المخذولة ؟ رأى يسوع فى منامه أنه لايزال يلهو بها . فتارة يتناولها وأخرى يتركها . رأى أنه يقذفها فتتدحرج بعيدا جداً وأخيراً يضمها إلى قلبه دون أن يسمح بأن تبتعد عن يده الصغرى .

تدركين ، يا أمى ، حزن الكرة الصغيرة إذا رأت نفسها ملقاه على الأرض ولكنها ما برحت ترجو حيث لا مرتجى !

بعد بضعة أيام من ٢٠ نوفبر ذهب والدى يزور الأخ سيمون ــ مؤسس مدرسة القديس يوسف ومديرها ــ فالتقى فى ذلك المعهد بحضرة الأب رفرونى وعاتبه فى لطف على عدم مساعدته اياى فى مهمتى الشاقة ثم قص الحكاية على الأخ سيمون فاستمع هذا الشيخ الصالح إلى حديثه بمزيد من الاهتمام ، بل دون بعضه وقال فى لهجة الانفعال : « هذا ما لا يشاهد بإيطاليا » .

وفى اليوم التالى للمقابلة المعهودة وجب علينا أن نرحل الى نابولى و بومبى واحتفاء بنا أطلق « الفيزوف » طلقات مدفع عديدة وفوهته تلفظ عمودا من الدخان الكثيف . أن آثاره فى « بومبى » لمريعة فهى تظهر قدرة الله تعالى إذ « يرمق الأرض فيجرفها و يلمس الجبال فيسحقها » (١٥) . ووددت أن أسير وحدى بين الطلول أتأمل ما يطبع العالم من سرعة الزوال ولكن لم يتسن لى أن أطلب تلك العزلة .

بنابولى ذهبنا فى نزهة جميلة إلى دير القديس مارتينس ، وهو قائم على أكمة عاليه تشرف على المدينة بأسرها . لكن فى العودة جمحت جيادنا ، ولا أحسبنا وصلنا سالمين إلى فندقنا الفاخر الا برعاية ملائكتنا الحراس . كلمة فاخر هذه ليست بزائدة ، فقد نزلنا طول سفرنا فى فنادق أليق بالأمراء فما أحاطنى قط مثل هذا الزهو من قبل . صدق المثل فى هذا المقام : ليست السعادة سعة العيش ! لوأنى سكنت تحت سقف من القش ومع أمل الدخول إلى الكرمل لألفيتنى ألف مرة أسعد منى بين الجدران المصفحة بالخشب المذهب ، أو بين السلالم الرخامية والطنافس الحرير ية مع المرارة فى قلبى .

أجل ، ليس النعيم فيما يحيط بنا من متاع الحياة ، بل فى صميم النفس ، قد اختبرت ذلك جد الاختبار. يستطيع المرء أن يلقاه فى عمق سجن مظلم كما فى

---

(١٥) مزمور ، ١٠٣ : ٣٢ .

قصر من قصور الملوك . مثال ذلك أنى أسعد فى الكرمل حتى وسط التجارب الداخلية والخارجية مما كنت فى العالم حيث لم يعوزنى شىء ، ولا سيما النعمى فى دار أبى .

كان الحزن يملأ نفسى ، ومع ذلك حجبته عن الظهور خارجيا إذ كنت أحسب طلبى إلى الأب الأقدس سراً مكتوما وما لبثت أن اقتنعت بالعكس . بقينا يوما ما أنا وسيلين وحدنا فى عربة السكة الحديدية بينما نزل باقى الزوار إلى المقصف ، فرأيت سيادة المطران لرويتجه إلى النافذة ، و بعد أن تفرس فىّ ملياً قال مبتسماً : « كيف حال راهبتنا الكرملية الصغيرة ؟ » فأدركت حينئذ أن سرى قد ذاع بين جميع الزوار ، فضلا عن أنى استدللت على ذلك من بعض نظرات تنم عن العطف ، ولكن لحسن الحظ لم يفاتحنى أحد فى هذا الشأن .

قد حدث لى حادث صغير فى « أسيز » . فبعد أن زرت الأمكنة التى عطرتها فضائل القديس فرنسيس والقديسة كلير ، فقدت فى الدير شوكة محزمى ، فقضيت من الوقت فى البحث عنها ووضعها مكانها من الشر يط ما أخرنى عن موعد الرحيل . فلما وصلت إلى الباب كانت العربات كلها قد احتجبت عن الأنظار ما عدا واحدة هى عربة حضرة نائب بايو العام ! أكان يلزمنى أن أعدو وراء العربات بعد أن توارت عنى فأعرض نفسى لأن يفوتنى القطار ، أم أن أطلب محلا فى عربة سيادة الأب رفرونى ؟ عزمت على اتباع الرأى الأخير وكان الأصوب .

حاولت أن أبدو كأن حيرتى بسيطة مع أنها بلغت أقصاها ، فعرضت عليه أمرى الحرج وأوقعته هو نفسه فى حيرة لأن عربته كانت ملأى تماماً ، الا أن واحدا من هؤلاء السادة خف إلى النزول من محله فأصعدنى اليه ، وذهب يجلس فى تواضع جنب السائق وأنا أشبه بسنجاب وقع فى فخ ! لم أكن مرتاحة قط بين هؤلاء القوم الكبار وأنا جالسة تماماً « قبالة أشدهم هيبة » . غير أنه لاطفنى كثيراً إذ كان يقاطع الحديث من وقت إلى آخر ليكلمنى عن الكرمل ، وقد وعدنى أن يفرغ جهده ليحقق أمنيتى : أن أدخل الدير فى الخامسة عشرة من عمرى .

كانت هذه المقابلة بلسما لجرحى ولكنها مع ذلك لم تدفع عن الألم .. كنت قد فقدت الثقة بالمخلوق فلم أستطع أن أعتمد الا على الله وحده .

لكن حزنى لم يمنعنى من الاهتمام جد الاهتمام بما زرنا من الأماكن المقدسة . ففى « فلورنسا » كنت سعيدة أن أتأمل القديسة مادلين دى باتزى وسط جمع من الراهبات الكرمليات . رغب كل الزوار أن تلمس سبحاتهم قبر القديسة ولكن يدى وحدها كانت صغيرة إلى حد أن تتخلل أثقاب الحاجز . لذلك رأيتنى أكلف هذه المهمة النبيلة وقد طالت جدا وأكسبتنى فخراً جزيلاً .

لم تكن هذه أول مرة أختص فيها ببعض الامتياز . بروما فى كنيسة صليب أورشليم المقدس كرمنا عدة قطع من الصليب الحق مع شوكتين وواحد من المسامير المقدسة . ورغبة منى فى تأملها على هون ، سلكت بحيث بقيت الأخيرة ، وكان الراهب المكلف بالمحافظة على هذه الكنوز الثمينة يتهيأ لارجاعها إلى الهيكل ، فسألته هل يجوز لى أن ألمسها ، فرد بالإيجاب ، وكأنه يرتاب فى أو أوفق إلى ذلك . وحينئذ أولجت أصبعى الصغيرة فى فتحة من صندوق الذخائر ، وهكذا أستطعت أن ألمس المسمار الثمين الذى خضبه يسوع بدمه . كنت كما يرى أعامله كأنى طفلة تحسب كل شىء مباحاً لها وتعتبر كنوز أبيها كأنها كنوزها .

وبعد أن مررنا ببيزا وجنوى عدنا إلى فرنسا عن طريق من أبدع الطرق . كنا نسير أحياناً على شاطىء البحر وفى يوم من الأيام هبت عاصفة فدنا البحر من القطار حتى خيل الينا أن الأمواج تدركنا . ثم اجتزنا سهولا تكسوها أشجار الليمون والزيتون والنخيل الظريف وفى المساء كانت الموانىء البحرية العديدة تتلألأ بأنوارها الزاهرة ، بينما تلمع فى القبة الزرقاء كواكبها الأولى . هذا المنظر الفتان ، كنت أتتبع زواله بلا أسف إذ كان قلبى ينزع إلى بدائع أخرى .

غير أن والدى عرض على أيضا سفراً إلى أورشليم ، ولكنى بالرغم من ميلى الطبيعى إلى زيارة الأماكن التى قدسها مرور السيد المسيح ، كنت قد مللت السياحة على الأرض فلم أطلب الا جمال السماء ، ولكى أهبه الى النفوس كنت

أتوق إلى أن أصبح سجينة فى أقرب مهلة .

وا أسفاه ! قبل أن تفتح لى أبواب سجنى المبارك كان لا يزال علىّ أن أجاهد وأتألم . مع ذلك فإن ثقتى ما نقصت ، إذ كنت آمل أن أدخل الدير فى ٢٥ ديسمبر أى ــ يوم عيد الميلاد ــ .

عقب عودتنا إلى « ليز يو» كانت ز يارتنا الأولى لدير الكرمل . فيالها من مقابلة ! انك لتذكر ينها ، يا أمى . قد استسلمت اليك تماما بعد أن كنت من جهتى قد عمدت إلى جميع الوسائل . أشرت علىّ بأن أكتب إلى سيدنا المطران لأذكره بوعده فامتثلت للحال ، ولما ألقيت كتابى فى صندوق البر يد ظننت أننى سأنال بلا أدنى تأخير الاذن فى أن أطير إلى الكرمل . واحسرتاه ! كان كل يوم يجدد خيبتى . أقبل عيد الميلاد و يسوع لا يزال راقداً ، ترك كرته الصغيرة ملقاة على الأرض دون أن يرمقها ولو بنظرة !

كانت هذه التجر بة عظيمة جداً ، لكن الذى كان قلبه ساهراً أبداعلمنى أن النفس التى يبلغ « إيمانها حبة خردل » (١٦) فحسب ، يصنع لها العجائب لكى يثبت إيمانها مهما ضعف . وأما لأخصائه ، بل لوالدته ، فلم يصنع العجائب قبل أن يختبر ايمانهم . أو لم يترك لعازر يموت مع أن « مرتا ومريم أرسلتا اليه تقولان أنه مر يض ؟ » (١٧) . فى عرس قانا الجليل طلبت القديسة العذراء إلى يسوع أن ينجد رب البيت ، أفلم يجيبها أن « ساعته لم تأت بعد ؟ » (١٨) ولكن ما كان أجمل الجزاء بعد الاختبار! تحول الماء إلى خمر وقام لعازر من القبر. كذلك عامل يسوع الحبيب صغيرته تر يزا : بعد أن ابتلاها طو يلا ، حقق جميع أمانيها .

هديتى من يسوع فى أول يناير سنة ١٨٨٨ كانت صليبه أيضاً . فقد كتبت إلى الأم مارى دى جونزاج أنها تناولت رد سيادة المطران منذ ٢٨ ديسمبر « عيد الأطفال الشهداء » وأن هذا الرد يسمح لى بالدخول حالا إلى الكرمل ، ولكنها

---

(١٦) متى ، ١٧ : ٢٠ .

(١٧) يوحنا ، ١١ : ٣

(١٨) يوحنا ، ١١ : ٤ .

عزمت الا تفتح لى أبوابه الا بعد الصوم الكبير، فلم استطع حبس دموعى لدى تأملى هذا الأجل المديد.

كان لتلك التجربة تأثير خاص علىّ. رأيت روابطى بالعالم تنفصم، واذا بالفلك المقدس يا أبى أن يأوى الحمامة الصغيرة المسكينة.

كيف انقضت هذه الأشهر الثلاثة الحافلة بالألم لنفسى؟ وكانت مع ذلك أحفل بشتى النعم فى بادىء الأمر. فكرت ألا أضايق نفسى وأن أعيش عيشة أقل انتظاماً مما تعودت، ثم أفهمنى الله عز وجل النعمة القائمة فيما يتخلف لى من الوقت، فوطنت النفس على أن أعمد إلى حياة أملأ من ذى قبل رصانة وتقشفاً.

وإذا آنوه بالتقشف لا أعنى تقشف القديسين. أين أنا من النفوس الجميلة التى تمارس أنواع الاماتات منذ صغرها؟ كنت أرمى إلى أن تقوم إماتات نفسى فى قهر الإرادة، فى الامتناع عن جواب غير مرض، فى إسداء خدمات صغيرة حولى دون إظهار قيمتها، وفى أمور عديدة من هذا القبيل. تأهبت بممارسة هذه الطفائف لأن أصبح عروس يسوع، وليس فى وسعى أن أبين كم زادنى هذا الانتظار استسلاماً إلى الله وتواضعاً إلى غير ذلك من الفضائل!

الفصل السابع

دخول تريزا الفلك المبارك ـ التجارب الأولى
الخطبة الإلهية ـ ثلوج ـ ألم فادح

قد اختير يوم الاثنين ٩ ابريل سنة ١٨٨٨ موعدا لدخولى الدير. فى هذا اليوم كان يحتفل الكرمل بعيد البشارة وقد أرجىء إلى ذلك التاريخ بسبب الصوم الكبير. ففى المساء السابق لليوم المذكور اجتمعنا كلنا حول المائدة التى كنت أجلس اليها للمرة الأخيرة. لله هذا الوداع ما كان أوجعه! فى الساعة التى يرغب المرء فيها أن يرى نفسه نسياً منسياً تنبعث من جميع الشفاة أشد الكلمات حناناً كأنها تبغى أن تزيد الحضور شعور بتضحية الفراق.

ففى الصباح بعد أن ألقيت نظرة أخيرة على « البو يسونية » ، عش طفولتى الظريف توجهت إلى الكرمل حيث حضرت القداس محاطة كما فى الأمس بأقربائى الأحباء ، عند المناولة حين نزل يسوع فى قلوبهم لم أسمع الا نحيباً. أما أنا فلم أسكب الدمع ولكن بينما كنت أسير إلى باب السور فى طليعة الجميع كان قلبى يخفق بشدة حتى أنى سألتنى هل دنا أجلى. يا لها من لحظة! يا له من نزاع! لابد للمرء أن يعاينه ليدركه.

قبلت أهلى كلهم فركعت أمام والدى لأتناول بركته وركع هو فباركنى باكياً. لا ريب أن الملائكة ابتسمت لمشهد ذلك الشيخ يقدم إلى الرب ابنته وهى لا تزال فى ربيع الحياة. وأخيراً أغلقت على أبواب الكرمل وهناك عانقتنى الاختان الحبيبتان اللتان قامتا عندى مقام والدتى. عانقتنى أسرة جديدة لا يخطر على بال العالم مقدار اخلاصها وحنانها.

إذن تحققت فى النهاية أمانى . شعرت نفسى بسلام عذب عميق إلى حد أنى لا يسعنى الاعراب عنه . هذا السلام الدفين لا يزال نصيبى منذ ثمانى سنوات ونصف . لم يفارقنى حتى فى أعظم التجارب .

كل شىء فى هذا الدير بدا لى خلابا . حسبتنى قد انتقلت إلى صحراء .

فتنت على الأخص بغرفتى الصغيرة . أكرر القول أن سعادتى كانت هادئة . المياة الساكنة التى كان يجوبها زورق الصغير لم يموجها أى نسيم . سمائى الصافية لم يحجبها أى غمام . حقا لقد جوزيت كل الجزاء عن جميع تجاربى . ما كان أعظم فرحى وأنا أردد فى نفسى هذه الكلمات : « الآن أقيم هنا إلى نهاية الأجل » .

لم تكن هذه السعادة سعادة يوم . ما قدر الله أن تزول مع أمان كاذبة بعد الأيام الأولى . الأمانى الكاذبة ! وقتنى رحمة الله منها . فقد ألفيت الحياة الرهبانية كما تصورتها . لم تدهشنى أى تضحية ومع ذلك تعلمين ، يا أمى ، أن خطواتى الأولى صادفت من الشوك ما يربو على الورود .

أولا لم يكن لنفسى من قوت يومى الا « جفانا روحيا » (١) مر المذاق . ثم سمح الرب أن تعاملنى أمنا بشدة ولو على غير علم منها . ما كنت ألتقى بها دون أن توبخنى . أتذكر أنى تركت مرة فى رواق الدير نسيج عنكبوت ، فقالت لى أمام الراهبات كلهن : « يظهر جلياً أن أروقتنا تكتسبها بنت خمس عشرة سنة . هذا مما يؤسف له . فاذهبى وانزعى نسيج العنكبوت هذا وكونى فى المستقبل أشد عناية » .

كذلك فى أوقات الإرشاد النادرة إذ كنت أجلس اليها مدة ساعة ، فكانت توبخنى طول هذه المدة أو تكاد . وكان الأدعى إلى ألمى ، أننى ما كنت أفهم كيف أصلح عوجى مثل ابطائى فى عملى وقلة اجتهادى فى خدمتى .

---

(١) هو فى عرف المؤلفين الكنسيين عدم التنعم المحسوس بالصلاة وما إلى ذلك من أعمال التقوى .

قلت فى نفسى ذات يوم أن أمنا ترغب بلا ريب أن ترانى أكرس للعمل أوقات الفراغ التى تشغل عادة فى الصلاة . فأرسلت ابرتى الصغيرة تكد ، دون أن أرفع بصرى ، الا أنى أردت أن أقيم على عهدى فلا أعمل الا تحت أنظار يسوع فلم يعلم أحد البتة بما صنعت .

ابان تلمذتى هذه ، كانت معلمتنا ترسلنى فى الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر لأقتلع عشب الحديقة . كان ذلك يشق على كثيراً ولا سيما أنى كنت أوقن أو أكاد أنى سألتقى فى طريق بالأم مارى دى جونزاج . قالت فى إحدى هذه المناسبات : « إذن هذه البنت لا تفعل شيئاً على الإطلاق . أى تلميذة تلك التى يجب أرسالها كل يوم إلى النزهة ؟ » . كانت تعاملنى على هذا المنوال فى كل شىء .

أمى الحبيبة ، كم أشكر الله على أنه هيأ لى تربية شديدة ثمينة كتلك ! يا لها من نعمة لا تقدر ! .. فاذا كنت أصبحت لوأنى صرت كما ظن أهل العالم « لعبة » الراهبات ؟ فربما لم أرى اذن فى رئيساتى الا بشرا بدلا من أن أرى فيهن السيد المسيح . فقلبى الذى حفظ جيد الحفظ فى العالم ، كان حينئذ قد أحب فى الدير محبة بشرية . لحسن حظى وقيت هذه البلية الحقة .

أجل ، بوسعى أن أقول ذلك لا فى شأن ما ذكرت فحسب ، بل فى شأن تجارب أخرى أشد وطأة . مد لى العذاب ذراعيه منذ دخولى فعانقته بحب . ما جئت أصنع فى الكرمل ، صرحت به فى الامتحان الاحتفالى السابق للفظى النذور الرهبانية : « جئت كى أنقذ النفوس ولا سيما كى أصلى لأجل الكهنة » (٢) إذا رمى الإنسان إلى غاية وجب عليه أن يتخذ لها وسائلها . أفهمنى يسوع أنه سيعطينى نفوساً بواسطة الصليب فكلما لقيت صلبانا زاد شوقى إلى العذاب . هذا السبيل كان سبيلى مدة خمس سنوات الا أنى كنت أعرفه وحدى . تلك هى الزهرة المجهولة التى أردت أن أقدمها ليسوع ، الزهرة التى يفوح عبيرها إلى نحو السماء .

---

(٢) فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٠ .

وبعد شهرين من دخولى دهش حضرة الأب بيشون (٣) نفسه مما فعل الله فى نفسى . كان يحسب تقواى صبيانية محضة وسبيلى هينا جداً . لولا ما كنت القى من الصعوبة القصوى فى المكاشفة بسرائرى لجلب لى حديثى مع هذا الأب الصالح تعزية عظيمة . ومع ذلك اعترفت له اعترافاً عاما ، قال لى فى نهايته : « أمام الله والقديسة العذراء والملائكة وجميع القديسيين أعلن أنك لم ترتكبى أبدا خطيئة مميتة واحدة . فاشكرى الرب على ما صنعه لك بلا مقابل ولا أى استحقاق منك » .

بلا أى استحقاق منى ! . لم أجهد نفسى لأصدق ذلك ! كنت أشعر كم أنا ضعيفة ناقصة . ما ملأ قلبى الا الامتنان . خوفى أن أكون قد لوثت رداء عمادى الناصع كان يؤلمنى كثيراً . فهذا التأكيد الصادر من فم مرشد كما تريده أمنا القديسة تريزا أى مرشد « يقرن العلم إلى الفضيلة » بدا لى صادراً من الله ذاته . قال لى أيضا هذا الأب الصالح : « يا بنتى ، فليكن الرب أبدا رئيسك والمعلم الذى يتولى أمرك فى بدء ترهبك » . فكان بالفعل ، كان أيضاً مرشدى . لا أعنى بذلك أننى حجبت نفسى عن رؤسائى . لم أخف عنهم أميالى قط ، بل بالضد حاولت دائما أن أكون لهم كتاباً مفتوحاً .

كانت معلمتنا (٤) قديسة حقاً وأكمل مثال للكرمليات الأوليات . لم أفارقها لحظة واحدة لأنها كانت تعلمنى تأدية عملى . عطفها على لا يوصف . كنت أحبها وأقدرها كثيراً ومع ذلك ما فرحت نفسى . كنت لا أعرف كيف أعرب عما يخالجنى إذ لا أهتدى إلى الكلمات الموفقة الدالة على حالى فأصبحت الجلسات

(٣) هو من رهبنة الآباء اليسوعيين . شهد هذا الكائن المفضال فى قضية التطويب . وكانت خدماته الرسولية الحافلة تقوم على الأخص فى ترتيب رياضات للجمعيات الرهبانية . فقد وعظ فى هذه الرياضات حتى سنة ١٩١٥ فى فرنسا وفى كندا . فأثمرت نعماً وافرة كان ينسبها إلى عبادته لقلب يسوع الأقدس .

سأل الله بشفاعة « صغيرته تريزا » أن يقيم الأسرار الالهية حتى آخر يوم من حياته . فات فى صباح ١٥ نوفمبر ١٩١٩ عن ٧٧ عاماً وهو يتهيأ للصعود إلى الهيكل .

وإذا رغب الدخول فى « شركة ضحايا الحب الإلهى الرحيم » تلا فعل التقدمة الذى ألفته تريزا .

(٤) هى الأخت مارى للملائكة . كانت وقتئذ نائبة الرئيسة ومكلفة أمر الثياب ، أستدعيت للشهادة فى دعوى التطويب .

التى أتلقى فيها الإرشاد تؤلمنى ، بل تعذبنى جد العذاب .

وكأن إحدى أمهاتنا القديمات أدركت يوما ما كنت أشعر به . فقالت لى أثناء النزهة : « يبدو إلى من المؤكد ، يا بنيتى ، أنه ليس لديك أمور عامة تعرضينها على رؤسائك » . فقلت : « وما دعاك إلى ذلك الظن ، يا أمى ؟ » . فقالت : « دعانى إليه أن نفسك بسيطة للغاية ، ولكنك حينما تكونين كاملة تصبحين أبسط حتى مما أنت عليه الآن » .

كانت هذه الأم الحنون على حق . غير أنى ألفيت الصعوبة التى أعانيها فى بث شعورى محنة حقة مع صدورها عن بساطتى . وأما اليوم فإنى أعرب عن فكرى بسهولة عظيمة مع بقائى بسيطة .

قلت أن يسوع قام عندى مقام مرشد . فما لبث حضرة الأب بيشون أن يعتنى بنفسى حتى أرسله رؤساؤه إلى كندا . فاضطرت الزهرة الصغيرة التى نقل غرسها إلى الكرمل ألا تتناول منه غير خطاب واحد كل عام فسرعان ما ولت وجهها نحو مرشد المرشدين . فزهت فى ظل صليبه متخذة نداها المنعش من دموعه الالهى ، وشمسها المشعة من معبود وجهه .

ما كنت إلى ذلك الحين قد سبرت غور الكنوز المدفونة فى الوجه الأقدس . امى الصغيرة هى التى علمتنى أن أتعرفها (٥) . كما أنها فيما مضى سبقت أخواتها الثلاث إلى الكرمل ، كذلك كانت الأولى فى إدراك ما يخفيه وجه عروسنا من أسرار المحبة . كشفتها لى إذ ذاك ففهمتها . فهمت المجد الحقيق فهما ما أجدت مثله أبدا من قبل . ذاك الذى « مملكته ليست من هذا العالم »(٦) . أرانى أن المملكة

---

(٥) ان الأم المحترمة أغنيسيس ليسوع هى التى كانت قد جمعت هذه الصلوات التقوية من الأم المكرمة جنفياف للقديسة تريزا ، مؤسسة دير الكرمل « بليز يو » . وفى عام ١٨٤٧ كانت قد عرفت أن سيدنا يسوع المسيح أوحى هذه الصلوات للأخت مارى للقديس بطرس التى ماتت برائحة القداسة فى يوليو ينة ١٨٤٨ بدير كرمل « تور » ، وكانت هذه الصلوات عزيزة عند عائلة مارتان وفى تلك الآونة كانت قد ترعرعت هذه العبادة فى قلب القديسة تريزا ليسوع الطفل بواسطة التأملات فى سفر أشعيا النبى الذى كان يغذى تقواها ابان التجارب الكبرى التى جاربها والدها المحبوب أثناء مرضه .

(٦) يوحنا ، ١٨ : ٣٦ .

الوحيدة التى تستحق البقاء تتمثل فى « ارادة المرء أن يجهل فلا يحسب له أى حساب (٧) . وفى أن يطلب الفرح من احتقار نفسه » (٨) آه ، كم كنت أود أن « يوارى وجهى عن جميع العيون وألا يعرفنى أحد على الأرض » (٩) أن يوارى وجهى كما كان وجه يسوع ! كنت متعطشة إلى أن أتعذب وأنسى .

ما أرحم السبيل الذى قادنى منه المعلم الإلهى دائما . لم يحملنى قط على ابتغاء شىء دون أن يمنحنى اياه . لذلك استعذبت كأسه المرة .

عاودت التجربة أسرتنا فى آخر مايو سنة ١٨٨٨ بعد العيد الجميل المتمثل باليوم الذى لفظت فيه مارى كبرى أخواتنا النذور الرهبانية ، مارى التى ناولت تريزا وهى « بنيامين » أسرتنا حظوة تكليلها فى يوم عرسها الرمزى . كنا نلاحظ أن والدنا الصالح يتولاه التعب سريعاً منذ انتابته نوبة الشلل الأولى . وكثيراً ما رأيت وجهه فى سفرة روما ينم عن الضنى والألم . غير أن الذى أثر فى بنوع خاص تقدمه المثير للعجب فى سبيل القداسة . توصل إلى أن يحجم جماح طبعه الحاد وكاد لا يعير حطام الدنيا أدنى التفاتة .

اسمحى لى ، يا أمى ، أن أسوق اليك فى هذا الصدد مثلا عن فضيلته : كان النهار والليل يطولان على المسافرين فى السكة الحديد أثناء رحلتنا ، فنراهم يعمدون إلى لعب الورق وكان يستثيرهم أحياناً . ففى بعض الأيام رغب الينا اللاعبون أن نشاركهم لعبهم فتنحينا بحجة أننا قليلو الدراية فى الأمر ، إذ ما كنا نرى الوقت طويلا مثلهم ، بل قصيرا جدا لنتملى نظر المشاهد البديعة التى تتجلى لأعيننا . فسرعان ما بدا الاستياء عليهم . فتكلم والدى بهدوء يدافع عنا ملمحا إلى أن الصلاة لا تشغل من وقتنا شطرا كافيا ، إذ نحن فى حجة . فصاح واحد من اللاعبين بلا روية ، ناسياً ما يحق للشعر الأبيض من واجب الاحترام : « ان الفريسيين لحسن الحظ قليلون » . فلم يجب والدى بكلمة ، بل بدا عليه فرح

(٧) الاقتداء ، ١ ، ٢ : ٣ .

(٨) الاقتداء ، ٢ ، ٤٩ : ٧ .

(٩) أشعياء ، ٥٢ : ٣ .

« أنا بنت الكنيسة المقدسة .. أحب الكنيسة أمى .

أنا سعيدة أن أحسنى صغيرة ، ضعيفة فى حضورك ، فيبقى قلبى فى سلام » .

« القديسة تريــزا »

القديسين . و بعد قليل من الزمن وجد سبيلا لمصافحة هذا الرجل مصحباً عمله الرقيق بكلمة ظريفة قد تحمل على الظن ان الإهانة لم تصل إلى سمة أو على الأقل أنها طواها النسيان .

ولكن تعلمين أن عادته الصفح هذه لم تكن بنت اليوم إذ بشهادة والدتنا وجميع من عرفوه لم يلفظ أبدا كلمة لا تتفق مع محبة القريب .

كذلك كان إيمانه وكرمه أبعد من أن تنال منها أى تجربة . انظرى كيف أنبأ أحد أصدقائه برحيلى : « تريزا ملكتى الصغيرة دخلت الكرمل أمس . لله وحده الحق أن يتطلب مثل هذه التضحيةولكنه يمدنى بعون قوى حتى أننى وسط دموعى يطفح قلبى فرحاً » .

كان لا بد لهذا الخادم الأمين جزاء جدير بفضائله : ذلك الجزاء طلبه بنفسه إلى الله . هل تذكرين ، يا أمى ، زيارته لنا فى قاعة المقابلات بالدير إذ قال لنا « أى بنيتى ، أننى عائد من « النسون » حيث نلت فى كنيسة السيدة العذراء من عظيم النعم والتعازى ما دفعنى أن أتقدم إلى الله بالصلاة الآتية : « ربى ، هذا فوق الكثير . نعم هنائى مفرط ، فليس فى المقدور أن يذهب الإنسان إلى السماء على ذلك المنوال ، أريد أن أتألم بعض الألم من أجلك . ثم قدمت نفسى . . » وتفانت على شفتيه كلمة « ضحية » . لم يجسر على لفظها أمامنا ولكننا قد فهمنا ! الحاصل ، يا أمى ، أنك تذكرين كل أتراحنا . هى ذكريات مبرحة لا أرى بى حاجة إلى سرد تفاصيلها .

أزف الوقت لارتدائى ثوب الرهبنة وشق والدى الصالح على غير أمل من نوبة ثانية . وقد عين سعادة المطران تاريخ ١٠ يناير لهذه الحفلة . طال انتظارى ولكن ما كان أجمل العيد ! لم ينقصه شىء حتى ولا منظر « الثلوج » .

هل حدثتك ، يا أمى ، عن ايثارى لها ؟ كان بياضها الناصع يفتننى وأنا صغيرة . من أين أتانى هذا الميل اليها ؟ لعلها تروقنى لأنى زهيرة من زهيرات الشتاء فكان وشاحها الأبيض أو حلية رأيتها تجمل الأرض .

لذلك وددت لو ألفيت الطبيعة مزينة مثلى بحلة بيضاء يوم ارتدائى ثوب الرهبنة . غير أنه فى اليوم السابق له كان الجو دافئاً حتى ليخيل للمرء أنه فى فصل الربيع ، فما عدت آمل تساقط الثلوج . وفى صباح ١٠ يناير لم يتغير الجو فطرحت جانباً أملى الصبيانى هذا المتعذر تحقيقه وغادرت الدير .

وكان والدى ينتظرنى على باب السور فاتجه نحوى وعيناه مملوءتان دمعاً فضمنى إلى قلبه صائحاً : « آه : ها هى ملكتى الصغيرة » (١٠) . ثم قدم لى ذراعه ودخلنا الكنيسة فى هيئة احتفال . كان هذا اليوم يوم انتصاره وعيده الأخير فى هذه الحياة إذ أتم تقديم قربينه كلها فغدت أسرته لله (١١) . ذلك أن سيلين أسرت اليه أنها ستعتزل العالم لتدخل الكرمل . فأجابها هذا الوالد المنقطع النظير فى هزة من الفرح : « تعالى نقف معا أمام القربان المقدس فنشكر الرب على النعم التى يسديها لأسرتنا وعلى الشرف الذى يخصنى به إذ يختار عرائس له فى بيتى . أجل أن لله عز وجل يحبونى شرفاً عظيماً بطلبه بنانى ولو أن ملكت شيئاً أثمن لبادرت إلى تقديمه لربى : « هذا الشىء الأثمن كان هو بعينه » واستقبله الله بوصفه قربان ذبيحة ومحضه كالذهب فى البوتقة فألقاه جديراً به » (١٢) .

ولما عدت إلى الدير عقب الاحتفال الخارجى ، أخذ سيادة المطران يرتل نشيد الشكر « اللهم نمدحك » . فلفت كاهن نظره الى أن هذا النشيد لا يرتل الا يوم اعلان الرهبنة ولكنه كان قد استرسل فيه فاستمر النشيد حتى النهاية . أو ما كان

---

(١٠) رغبة من السيد مارتان أن يكرم يسوع الملك الإلهى لذى كانت ملكته الصغيرة على أهبة أن تغدو عروسه أراد أن تلبس ثوبا من المخمل الأبيض مرسوم عليه طائر « الأردف » ومحلى بأنواع التخارم المشهورة بتخارم النسون . وكانت خصل شعرها الأشقر متهدلة على كتفيها والزنابق تكون حليتها البتولية . (جزىء مخمل ثوبها على شكل النجوم وزهر الزنبق وهو اليوم يزين حلل الجوخ المذهب التى أعدت للتطويب) .

(١١) دخلت ليوفى رهبنة الكلاريس ولما كانت قوانين هذه الرهبنة صارمة جداً لها بالنظر إلى نحافة صحتها ، اضطرت أن تعود إلى والدها وقد قبلت بعد ذلك فى رهبنة الزيارة بمدينة كان ، حيث لفظت نذورها باسم الأخت فرنسواز تريز . ماتت فى ١٦ يونيو سنة ١٩٤١ .

(١٢) سفر الحكمة ، ٣ : ٥

ينبغى أن يكمل هذا العيد ما دام قد جمع كل الأعياد الأخرى ؟

فى اللحظة التى اجتزت فيها السور توجه نظرى إلى يسوع الجميل الصغير(١٣) . فكان يبتسم لى وسط الزهر والنور ثم التفت إلى ساحة الدير فرأيتها « مكسوه ثلجاً » ! . يا لرقة يسوع ! أعطى خطيبته الصغيرة ذلك الثلج ليحقق جميع أمانيها . أى انسان يستطيع مهما أوتى من الحول أن يسقط من السماء كرة ثلج واحدة ارضاء لمحبوبته ؟

اندهش الكل من سقوط الثلج باعتباره فى الحقيقة حادثاً غير منتظر لأن الجو لم يكن يهيئه . واعلم أنه من ذلك اليوم كثيرا ما تحدث جمع غفير ممن علموا بأمنيتى عن « الأعجوبة الصغيرة » التى اقترنت بارتدائى الثوب وكان رأيهم أن حنينى إلى رؤية الثلج ينم عن ذوق غريب . هذا مما أغبطنى عليه إذ يزيد فى إظهار المجاملة الفائقة الإدراك التى قد يبديها عروس العذارى ، من يحب الزنابق البيضاء كالثلج !

دخل سيادة المطران بعد الاحتفال وتولانى بجميع أنواع التعطفات الأبوية فذكرنى أمام كل الكهنة الذين يحفون به زيارتى إلى بايو وسفرى إلى روما ولم ينس قصة « الشعر المرفوع » ، ثم أحاط رأسى بيديه ودللنى طويلا . وحينئذ جعلنى السيد الرب أتأمل ضروب الموالاة التى عما قريب يجود بها علىّ أمام القديسين جميعهم أتأملها فى بشر لا يوصف . فغدت لى هذه التعزية كمذاق متقدم لطعم المجد السماوى .

سبق فقلت أن يوم ١٠ يناير كان يوم النصر لوالدنا الصالح وأنى لأشبه هذا العيد بدخول يسوع إلى أورشليم فى أحد الشعانين . مجده القصير الأجل عقبته الآلام كمجد السيد المسيح . وكما أن عذاب يسوع نفذ فى قلب والدته الالهية كذلك حلت فى قلوبنا جراح ذلك الذى كان أحب مخلوق الينا فى هذه الدنيا ، جراحه ومذلته .

(١٣) كلفت حتى مماتها أن تزين تمثال الطفل يسوع هذا .

أذكر أنه فى شهر يونيه سنة ١٨٨٨ إذ بتنا نخشى اصابته بشلل فى المخ أدهشت معلمتى بقولى لها : « أتألم ، يا أمى ، ولكن أشعر أنه فى استطاعتى التألم حتى أكثر من ذلك » . ما فكرت حينئذ فى التجربة التى كانت وشيكة الحلول بنا . ما كنت أعلم أنه فى يوم ١٢ فبراير(١٤) أى بعد شهر من ارتدائى الثوب سيرتوى والدنا المبجل من كأس تلك مرارتها . أواه ، لم أقل حينئذ أنه فى استطاعتى أن أتألم أكثر من تألمى إذ ذاك ! ان الكلام لأعجز عن وصف مخاوفنا فلا أحاول تبيانها .

بعد زمن ما سيطيب لنا فى السموات أن نتحدث عن هذه الأيام القاتمة ، أيام منفانا على الأرض . أجل أن السنوات الثلاث التى تعذب فيها والدنا مر العذاب تبدو لى أحب زمن فى حياتنا كلها وأحفلها نعماً ، فلا أرضى أجل أنواع السعادة بدلا منها . أن قلبى ليصبح شاكراً أمام هذا الكنز الذى لا يقوم بثمن : « فلتكن مباركا ، يا الهى ، لأجل سنى النعم هذه التى قضيناها فى الأتراح(١٥) .

أمى العزيزة ، ما كان أثمن صليبنا « وأحلاه » ، صليبنا ذا تلك « المرارة » ما دامت قلوبنا كلها لم تبعث الا تنهدات المحبة والشكر ! فقد بتنا لا نسير بل نعدو بل نطير فى مناهج الكمال .

لم تغد ليونى وسيلين من العالم مع بقائهما وسط العالم . كانت رسائلهما الينا فى ذلك العهد مطبوعة بتسليم يثير العجب . لله مقابلاتى مع سيلين العزيزة فى الدير ! حواجز الكرمل لم تكن لتفرقنا ، كلا ، بل كانت توثق عرى اتحادنا . كنا نحيا من خواطر واحدة ، من رغائب واحدة ، من حب واحد ليسوع . لم يمتزج حديثنا أبداً بكلمة عن حطام الدنيا . كما فى « البويسونية » قديماً كنا نرسل لا أبصارنا مثلما فى ذلك العهد بل قلوبنا إلى ما وراء الزمن والمدى . ولكى نتمتع عن قريب بالنعيم الأبدى كنا نختار على الأرض الألم والهوان .

---

(١٤) فى ذلك اليوم ترك السيد مارتان « ليزيو » ودخل فى المصحة واستمر هناك مدة ثلاث سنوات . أخيراً اتسع عنده مرض الشلل ، واستطاعت سيلين أن تعود به إلى « ليزيو » حيث عاش أيضا أكثر من سنتين . ومات عند نسيبه فى ٩ يوليو سنة ١٨٩٤ .

(١٥) مزمور ، ٨٩ : ١٥ .

رغبتى فى الألم كانت قد تحققت تماماً ولكن حنينى اليه ما نقص . لذلك شاطرت النفس الفؤاد محنته . زادت اليبوسة فما كنت ألقى تعزية لا من السماء ولا من الأرض ، ومع ذلك ففى لجج المحنة التى طلبتها بكل جوارحى كنت أسعد الخلائق .

وهكذا انقضى زمن خطبتى وما كان أطوله بالقياس إلى منای . وفى آخر العام قالت لى أمنا ألا أفكر فى لفظ نذورى الاحتفالية وأن حضرة الرئيس يعترض على ذلك صريح الاعتراض . فاضطرت إلى الانتظار ثمانية أشهر أخرى وفى أول الأمر شق على أن أرضى بمثل هذه التضحية ولكن ما لبثت أن تخلل نفسى ضوء الإله .

كنت وقتئذ أتأمل فى مواعظ كتاب الأب سوران « أسس الحياة الروحية » . ففهمت يوما أثناء صلاتى الصامتة أن رغبتى الشديدة تلك فى لفظ نذورى الاحتفالية كان يشوبها كثير من حب الذات . فما دمت ملكا ليسوع كأننى « ألعوبته الصغيرة » ، أواسيه وأفرحه ، كان على ألا أضطره إلى اتمام مشيئتى بدلا من مشيئته . وفهمت فوق ذلك أن الخطيبة لا تعجب خطيبها إذا لم تتزين بفاخر الحلى يوم زفافها وما كنت بعد قد سعيت لتلك الغاية . حينئذ قلت للرب : « ما عدت أسألك أن ألفظ نذورى الاحتفالية . ما شئت . ولكنى لا أطيق أن يرجأ قرانى بك لذنب منى ، فأنا سأبذل كل جهدى لأصنع لى حلة يوشحها الماس والأحجار الكريمة كافة . فعندما تجد هذه الحلة من البهاء ما يكفى ، فيقينى أنه لن يمنعك شىء من اتخاذك لى عروساً » .

فأكببت على العمل بنشاط جديد وكنت منذ ارتدائى الثوب قد نلت وافر الإرشاد عن كمال الحياة الرهبنية ولا سيما عن نذر الفقر . وفى أبان تلمذتى كنت سعيدة أن أحظى بأشياء متقنة فيما استعمل وأجد تحت يدى ما يلزمنى . كان يسوع يتحمل ذلك صابراً لأنه لا يريد أن يظهر للنفس كل شىء فى آن واحد ، فلا يمنح ضوءه فى الغالب الا قليلا قليلا .

فى بدء حياتى الروحية حوالى الثلاث عشرة أو الأربع عشرة من سنى كنت أسألنى ماذا أكسب فى المستقبل . كنت حينذاك أظن من المحال أن أفهم أن الكمال أحسن مما كنت أفهمه ولكن سرعان ما عرفت أنه كلما سار المرء فى هذه الطريق رأى نفسه بعيدا عن الغاية . والآن أرضى صابرة أن أرانى دائماً ناقصة بل إن ذلك ليسرنى .

فلأعد إلى الدروس التى ألقاها على السيد المسيح . ذات مساء بعد صلاة النوم تفقدت مصباحاً على الرف المعد له ولكن بلا جدوى وكان الوقت وقت الصمت الكامل فلا سبيل إلى طلب المصباح ، فقلت فى نفسى على حق أن أختا قد ذهبت به ظنا أنه مصباحها . ولكن هل كان يلزمنى أن أقيم ساعة كاملة فى الظلام لهذا الخطأ ؟ وكنت فى ذلك المساء بالذات أنوى عملا طويلا ولولا ضوء النعمة الداخلى ، لاشتكيت فى نفسى بلا مراء فمن أجلها فرحت بدل أن أتكدر ، إذ فكرت أن الفقر يقوم فى أن يرى الإنسان نفسه محروما لا من الأشياء السارة فحسب ، بل من الأشياء الضرورية . ففى الظلمة الخارجية ألفيت نفسى تستفيض نوراً الهيا .

وفى ذلك العهد تولانى شغف حقيق بأكثر الأشياء قبحاً وأقلها جلباً للراحة . فقد سررت لما رأيتنى حرمت من الابريق الصغير الظريف الذى كان بحجرتنا فأعطيت بدلة ابريقاً ضخماً متخدشاً . وكنت أيضاً أبذل جهوداً كبيرة لكيلا أبرر نفسى وكان ذلك يشق على جدا ولا سيما نحو معلمتنا إذ كنت أود ألا أخفى عنها شيئاً .

إن انتصارى الأول لم يكن عظيما ولكنه كلفنى كثيراً . كان اناء وراء النافذة لا أعرف من تركه هناك . فانكسر وظننت معلمتنا أننى مذنبة لتركى اياه فى غير موضعه فأوصتنى أن أكون أشد اعتناء فى مناسبة أخرى وقالت أن النظام ينقصنى تماماً والخلاصة أنها بدت مستاءة ، فلم أقل شيئاً بل قبلت الأرض ووعدت أن أكون أكثر التفاتاً إلى النظام فى المستقبل . ونظراً لقلة فضائلى كانت هذه الأعمال

الطفيفة تكلفنى كثيراً ، كما قلت : فكان يعوزنى التفكير فى أنه يوم الدينونة كل شىء سوف يظهر .

وكنت أجتهد على الأخص للقيام بأعمال صغرى من أعمال الفضيلة على أن أخفيها تماماً ، فكان يسرنى أن أطوى المآزر التى نستها الأخوات وكنت أبحث عن ألف مناسبة لأسديهن بعض الخدمات . وكذلك من الله على بالشوق إلى التقشف ولكن لم يسمح لى بشىء أرضى به شوقى . فكانت الأماتة الوحيدة التى يؤذن لى بها تقوم فى اماتة حبى لذاتى ، مما كان يفيدنى أكثر من التقشفات الجسدية .

وفى هذه الفترة كانت القديسة العذراء تساعدنى على إعدادى ثوب روحى ، فحالما تم تلاشت العقبات وتحدد يوم ٨ سبتمبر سنة ١٨٩٠ للفظ نذورى الاحتفالية ، كل ما سبق لى قوله بتلك الكلمات القليلة يتطلب عدة صفحات ولكن هذه الصفحات لن تقرأ على الأرض أبداً .

الفصـــل الثـــامن

العرس الإلهى ــ رياضة حافلة بالنعم
آخر دمعة لقديسة ــ وفاة والدها
كيف حقق الرب جميع رغائبها ــ ضحية من ضحايا الحب

أيلزمنى ، يا أماه ، أن أحدثك عن الرياضة التى تقدمت لفظ نذورى الاحتفالية ؟ لم أتعزقط بل بالضد . كان نصيبى اليبوسة فى أتم أنواعها بل أوشكت أن تكون الخذلان بعينه . كان يسوع لا يبرح راقداً فى زورقى الصغير . آه ، لا أرى النفوس الا فيما عز وندر تدعه يرقد بها مطمئناً ! أجهدت هذا المعلم الحنون مساعيه التى لا يبرح يتودد بها الينا فبادر إلى اغتنام ما أتحت له من فرصة ليرقد . هو بلا ريب لن يتيقظ قبل الرياضة الكبرى التى سأخلد اليها فى الأبدية ولكن ذلك يسعدنى جد السعادة بدل أن يكدرنى .

حقاً ، أنا بعيدة عن القداسة وفى مجرد ما تقدم من الشعور ما يقيم البرهان على ذلك . إذ يلزمنى ألا أفرح من يبوستى ، بل أن أعزوها إلى فتور تعبدى وقلة ولائى . يلزمنى أن أتأوه لسباتى أحياناً كثيرة إبان تأملاتى وتأديتى صلاة الشكر ولكنى لا أتأوه . أعتقد أن الأطفال يقرون عيون والديهم وهم نيام بقدر ما يقرونها وهم فى يقظة .. أعتقد أن الأطباء يخدرون مرضاهم ليعملوا فيهم مشارطهم وأخيراً أعتقد « أن الرب يرى وهننا و يتذكر أننا لسنا سوى تراب » (١) .

إذن كانت الرياضة التى تقدمت لفظ نذورى الاحتفالية رياضة يابسة جداً كالتى سبقتها ولكن تبين لى حينذاك بجلاء على غير شعور منى أى الوسائل نعجب الله بها ونمارس الفضيلة . وكثيراً ما لاحظت أن يسوع لا يريد أن

(١) مزمور ، ٢ . ١ : ١٤ .

يهيء لى زاداً فهو يقوتنى كل آن بقوت أجده فى نفسى دون أن أعرف كيف حل . أظنه يسوع بعينه وحسب ، يسوع المتوارى فى قرار قلبى الصغير يعمل فى سرا و يلهمنى كل ما يرغب أن أفعل فى الساعة الحاضرة .

وقبل بضع ساعات من لفظ نذورى الاحتفالية وصلتنى بركة الأب الأقدس من روما بواسطة الأخ المحترم سيميون وكانت بركة ثمينة جداً أعانتنى بلا ريب على اجتياز أشد عاصفة فى حياتى .

وفى السهرة التى تتقدم فجر اليوم الأعظم وتقضى فى الصلاة أعذبها فى غالب الأحيان ! رأيت شوقى إلى الترهب يبدو لى فجأة كأنه حلم أو خيال . وسوس إلى الشيطان وسواس اليقين ــ اذا كان ذلك فعل الشيطان ــ أن حياة الكرمل لا تلائمنى على الاطلاق وأنى أخدع رؤسائى بتقدمى فى سبيل لست مدعوة لسلوكها . فحلك ظلامى إلى حد أنى لم أفهم سوى أمر واحد وهو أنه ما دام ينقضى الشوق إلى الحياة الرهبنية يجب على أن أعود إلى العالم .

آه ، كيف أصف هواجسى ؟ ماذا أفعل فى مثل هذه الحيرة ؟ عمدت إلى أفضل السبل وهو أن أكاشف معلمتنا بهذه التجربة دون إبطاء . فرغبت اليها أن تخرج من الخورس وبحت لها بحالة نفسى فى خجل عظيم . ولحسن الحظ كانت أشد بصيرة منى فاكتفت بأن ضحكت من مناجاتى لها وسكنت روعى تماماً . هذا وأن فعل التواضع الذى أتيته بذلك هرب الشيطان فى الحال . انما أراد أن يمنعنى من كشف اضطرابى فيوقعنى بذلك فى حبائله ولكنى أوقعته فى الشرك بدورى فلكى استكمل تذللى أردت أيضاً أن أقول كل شيء لأمنا فتتمم جوابها المعزى تبديد ظنونى .

ومنذ بكرة ٨ سبتمبر غمرنى من السلام وفى هذا السلام « الذى يفوق كل فهم »(٢) لفظت نذورى المقدسة . ما أكثر النعم التى طلبتها ! شعرت بأنى الملكة حقاً فاعتنمت اكتسابى هذا اللقب لأنال من الملك عوارفه كلها على رعاياه

(٢) فيليبس ، ٤ : ٧ .

الجاحدين . فلم أنس أحداً . أردت أن يهتدى فى ذلك اليوم كل من على الأرض من الخطأة فلا يحوى المطهر أسيراً واحداً وضممت أيضاً إلى قلبى الرقعة الآتية المنطوية على ما أرتجيه لنفسى :

« يا يسوع ، يا عروسى الالهى ، أسألك ألا يتدنس أبدا ثوب عمادى ! خذنى بدل أن تتركنى فى هذه الحياة الوث نفسى بارتكابى أقل الذنوب عمداً . أسألك ألا أطلب وألا أجد الاك أنت وحدك . أسألك ألا تكون الخلائق لى شيئاً وألا أكون لها شيئاً . أسألك ألا يقلق سلامى أى شىء من الأرض .

« يا يسوع لا التمس منك الا السلام ، السلام وعلى الأخص « الحب » بلا حد ولا نهاية . أسألك يا يسوع أن أموت شهيدة لأجلك . وفقنى إلى أن استشهد بالقلب أو بالجسد ، لا ، بل وفقنى إلى الاثنين كليهما ، أسألك أن أقوم بتعهداتى فى تمامها ، ألا يعنى أحد بى ، أن أوطأ بالأقدام ، أن أنسى كأنى ذرة تراب ، أقدم لك نفسى ، يا حبيبى ، لكى تنفذ فى تماماً مشيئتك المقدسة دون أن تستطيع الخلائق أبداً اعاقتك عن ذلك » .

وفى نهاية هذا اليوم الجميل وضعت حسب العادة اكليل ورودى على قدمى القديسة العذراء وما وضعته فى حزن اذ كنت أشعر أن الزمن لن يودى بسعادتى ...

عيد ميلاد مريم ! يا له من عيد جميل ، حرى بأن أغدو فيه عروس يسوع ! كانت القديسة العذراء « الصغيرة » بنت يوم هى التى قدمت زهرتها « الصغيرة » إلى يسوع « الصغير » . فى هذا اليوم كان كل شىء « صغيراً » ما عدا النعم التى نلتها ، ما عدا سلامى وغبطتى إذ تأملت لدى المساء نجوم الفلك الجميلة واذ فكرت أننى « عن قريب » سأطير إلى السماء لأجتمع بعروسى الالهى فى سعادة أبدية .

وفى يوم ٢٤ من ذلك الشهر اتخذت حجاب الرهبنة . حجبت الدموع هذا العيد كله . كانت علة والدى تقعده عن المجىء ليبارك ملكته وفى اللحظة الأخيرة منع بعض الأعذار سيادة المطران هوجونان نفسه من أن يرأس الحفلة كما كان المقرر. وأخيراً لعدة ظروف أخرى طبع كل شىء بطابع الحزن والمرارة . ومع هذا الفيت السلام ، السلام دائماًفى قاعى كأسى . ذلك اليوم سمح يسوع ألا أستطيع حبس دمعى وهذا الدمع ما أدرك معناه ... فى الواقع كنت تحملت بلا بكاء محنا تفوق هذه كثيراً غير أن نعمة قو ية كانت تساعدنى إذ ذاك ، أما فى يوم ٢٤ فقد أسلمنى يسوع إلى قواى الخاصة وأظهرت كم كانت قليلة .

و بعد ثمانية أيام من اتخاذى الحجاب ، تزوجت ابنة خالى جان جيران من الدكتور لانيل . وفى يوم المقابلة الذى تلا قرانها سمعتها تتحدث عما تحيط به زوجها من ضروب الاكرام ، فشعرت بقلبى يهتز وقلت فى نفسى : « لن يقال أن أمرأة وسط العالم تعمل لزوجها ، وما الا بشر ، أكثر مما أعمل ليسوعى المحبوب » . فتولتنى حمية جديدة واجتهدت اجتهادا ما عرفته من قبل ، لأعجب بأعمالى العروس السماوى ملك الملوك الذى تفضل علىّ فرفعنى حتى اقترانه الالهى بى .

و وقع بصرى على الكتاب المعلن لزفافها فأسليت النفس بأن ألفت الدعوة الآتية ، وقد تلوتها على المبتدئات كى أنبههن إلى ما أثربى ذلك التأثير الشديد وهو كم مجد القران فى هذا العالم أوضح بالقياس إلى الألقاب التى تكتسبها عروس ليسوع :

« الاله القدير على كل شىء » خالق السماء والأرض ،الملك المهيمن على العالم « ومريم العذراء الكلية المجد » ، ملكة البلاط السماوى يتفضلان أن يعلناكم بالزواج الروحى بين ابنها الجليل « يسوع » ملك الملوك وسيد السادات و بين الصغيرة « تر يزا » وهى الآن سيدة وحاكمة المملكتين اللتين وهبها اياهما عروسها الالهى بوصفهما مهرا وهما طفولة يسوع وآلامه وقد استخلصت منهما لقبها الشر يف « تر يزا ليسوع الطفل والوجه الأقدس » .

« هذا ولم يكن مستطاعا دعوتكم إلى العرس الذى احتفل به على جبل

الكرمل فى ٨ سبتمبر سنة ١٨٩٠ لاقتصاره على البلاط السماوى ومع ذلك فأنتم مدعوون للاشتراك فى معاودة افراحه غداً يوم الأبدية حين يأتى يسوع ابن الله على سحب السماء فى أبهة عظمته ليدين الأحياء والأموات .

« وأما الساعة فهى غير معلومة إلى الآن لذلك يريدكم الداعيان على أن تظلوا مستعدين وساهرين » .

وفى السنة التى تلت لفظ نذورى الاحتفالية نلت نعماً عظيمة أثناء رياضتى العامة . (٣) . ان الرياضة التى يتخللها الوعظ تؤلمنى جد الألم . غير أنه فى تلك المرة لم يكن الأمر كذلك . تأهبت لهذه الرياضة بتساعية حارة التقوى وكنت أظننى سأتلم كثيراً . قالوا أن حضرة الأب الواعظ أخبر فى رد الخطأة منه فى حمل النفوس المتدينة على التقدم فى التقوى . إذن أنا خاطئة كبيرة لأن الله تعالى استخدم هذا الكاهن الصالح ليعزينى .

كنت أعانى حينذاك أتراحا دخيلة من كل نوع رأيتنى أعجز عن المصارحة بها ولكن نفسى تفتحت تماماً ففهمنى بفطنة رائعة ، بل حزر ما بى ، رفعنى على أمواج الثقة والمحبة ناشرة شراعى ، تلك الأمواج التى كانت تجتذبنى اجتذابها القوى دون أن أجرأ على خوضها . صرح لى أن هفواتى لم تكن لتحزن الله تعالى وأردف بقوله : « فى هذه اللحظة أنا أحل محله ازاءك فأؤكد لك من قبله أنه راض عن نفسك جد الرضى » .

ما كان أسعدنى اذ تلقيت هذه الكلمات المواسية ! ما كنت قد سمعت أبدا أن من الهفوات ما لا يحزن الله تعالى . ملأنى هذا التوكيد سروراً وجعلنى أتحمل بصبر منفى الحياة على أنه كان تماماً صدى شعورى الخفى . نعم كنت أعتقد من زمن بعيد أن الرب أشد حناناً من أم ، وأنا أعرف حق المعرفة قلوب أمهات عديدة ! أعلم أن الأم مستعدة دائماً أن تصفح عما يجرح مشاعرها من الهفوات

---

(٣) قد أعطيت من ٨ إلى ١٥ أكتوبر ١٨٩١ بواسطة الأب اليكس برو الفرنسيسكانى وهذا الراهب القديس مات فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩١٤ .

الصغيرة التى يرتكبها ابنها بلا قصد . كم من مرة قد اختبرت ذلك و يالها من خبرة عذبة ! تعطف واحد منك يحدث بى من الأثر ما لايستطيع أى تأنيب . من طبعى أن الرهبة تؤدى بى إلى التقهقر ولكنى بدافع الحب لا أتقدم فحسب بل أنى لأطير .

بعد شهر ين من هذه الر ياضة المباركة غادرت مؤسسة ديرنا الأم جنفييف للقديسة تر يزا كرملنا الصغير لتدخل كرمل السماوات(٤) .

لكن قبلما أحدثك عن شعورى ساعة وفاتها ، أرغب يا أماه ، أن أبين لك سعادتى لقضائى عدة سنوات بجانب قديسة ليس من المحال الاقتداء بها ، بل بقديسة قدستها فضائل مستورة عادية ، وقد أولتنى أكثر من مرة تعازى كبيرة .

ففى يوم أحد دخلت قاعة الاستشفاء كى أؤدى لها ز يارتى القصيرة . ألفيت معها أختين قديمتين فعدت أدراجى خشية التطفل . ولكنها نادتنى قائلة فى هيئة من حل به الوحى : « انتظرى ، يا بنيتى . كلمة واحدة أقولها لك . تسألينى دائماً باقة من الأزهار الروحية وها أنى اليوم أعطيك هذه : « أخدمى الله فى سلام وفرح . تذكرى ، يا بنيتى ، أن الهنا اله السلام » .

بعد أن شكرتها فى بساطة خرجت منفعلة حتى أننى كدت أبكى . خرجت واثقة أن الله تعالى كشف لها حالة نفسى ، إذ كنت فى ذلك اليوم أعانى تجر بة فادحة . أوشكت أن أكون حز ينة .. كنت فى حالك من الليل لا أعرف فيه هل يحبنى الله . ولكنك تحز ين ، يا أمى الحبيبة ، ما حل مكان هذا الظلام من فرح وتعز ية .

وفى الحد التالى أردت أن أعرف ماذا ألهمت الأم جنفييف ، فأكدت لى أنها لم تتلق أى وحى ، فازداد اعجابى حتى عما كان إذ رأيت إلى أى حد بعيد يحيا بها يسوع و يوحى اليها ما تعمل وما تقول . هذه القداسة تبدو لى أحق قداسة ، بل

---

(٤) ٥ ديسمبر سنة ١٨٩١ .

وأقدسها . هى التى أتوق اليها إذ لا وهم يشوبها .

و يوم غادرت هذه الأم المبجلة منفاها تقصد الوطن ، نلت نعمة خاصة بى تماماً .. كانت تلك المرة الأولى التى أحضر فيها سكرة الموت . حقاً ، كان مشهد يأخذ بمجامع القلب . غير أنه أثناء الساعتين اللتين قضيتهما بالقرب من سر ير القديسة وهى تحتضر ، تولانى نوع من عدم الحس كان يدركنى واذا بحالتى الداخلية تتحول كل التحول فى اللحظة عينها التى ولدت فيها أمنا للسماء . فى طرفة عين ، شعرت أنى ممتلئة مما يفوق الوصف من الفرح وحرارة التقوى كأن روح أمنا القديسة . روحها الهنيئة أعطتنى فى هذه اللحظة بعض النعيم الذى كان قد حل بها ، إذ يقينى أنها ذهبت إلى السماء تواً .

قلت لها يوما فى حياتها : « أيتها الأم ، أنت لن تذهبى إلى المطهر . فقالت لى فى هدوء ــ آمل ذلك » . لا ر يب أن الله لم يستطع أن يخيب رجاء ملؤه مثل هذا التواضع وكل ما نلنا من عوارف بشفاعتها مصداق لما تقدم .

بادرت كل أخت إلى طلب أثر من أمنا المبجلة . تعرفين ، يا أمى ، الأثر الذى أحافظ عليه كل المحافظة . لاحظت أثناء احتضارها أن دمعة تتلألأ على جفنها كالماس . هذه الدمعة ، أخرى الدموع التى ذرفتها على الأرض ، ولكنها لم تقع . رأيتها لا تزال تلمع لما عرض جثمان الأم جنفييف فى الخورس ، حينئذ تناولت نسيجاً خفيفاً واجترأت أن أدنو فى المساء دون أن يرانى أحد ، وها أن لى اليوم سعادة الحظوة بآخر دمعة لقديسة .

لست أعلق على الأحلام أى قدر ، فضلا عن أنى أرى نادراً من رؤى المنام ما ينصرف إلى معنى . بل أسأل نفسى كيف وأنا أفكر فى الله طول النهار هو لا يشغل ذهنى أكثر من ذلك فى رقادى . تنطوى أحلامى عادة على مشاهد الغابات والأزهار والجداول والبحار . أعى دائماً أطفالا صغاراً ملاحاً . أقبض على فراش وطيور ما رأيت مثلها أبدا . فإذا كان لأحلامى ظواهر شعر ية ، يا أمى ، أنها بعيدة عن المعانى الروحية .

ولكنى رأيت ليلة فى منامى بعد وفاة الأم جنفييف رؤية أدعى إلى العزاء من هاته . كانت تلك الأم القديسة تعطى كل واحدة منا أثراً مما امتلكت . ولما جاء دورى ظننتنى لن أنال شيئاً إذ كانت فارغة اليدين . وحينئذ نظرت إلى بحنان وقالت لى ثلاثاً : « أما أنت فأترك لك قلبى » .

بعد هذه الوفاة ــ وما كان أثمنها فى نظر الله ــ أى فى الأيام الأخيرة من عام ١٨٩١ تفشت حمى الأنفلونزا فى الرهبنة ولم تصبنى الا إصابة خفيفة فلبثت على قدمى مع أختين أخريين . من المحال أن يتصور الإنسان الحالة المحزنة التى تحول اليها كرملنا فى أيام الحداد هذه . كانت أشد الأخوات مرضاً تعتنى بهن اللواتى كن يقوين على السير بكل عناء .. سطا الموت فى كل مكان . ولما كانت إحدى اخواتنا تلفظ النفس الأخير، كان يتحتم علينا ، و يا للأسف ! مغادرتها فى الحال .

اليوم الذى بلغت فيه التاسعة عشر سنة طبع على الحزن بوفاة أمنا وكيلة الرئيسة . أسعفتها مع الممرضة ساعة احتضارها . وعما قليل لحقت هذه الوفاة اثنتان أخريتان . كنت وحدى فى الموهف « السكرستيا » وأنى لأسائلنى كيف استطعت أن أكفى للقيام بكل تلك الخدمات .

فى صباح يوم لدى الاشارة المنبهة من النوم أوجست أن الأخت مادلين قد فارقت الحياة .. كان الممشى الذى تؤدى اليه حجر الرهبات فى ظلام مطبق ولم تكن أحداهن تخرج منها . عزمت مع ذلك دخول حجرة الأخت مادلين و بالفعل ألفيتها مرتدية ثوبها ومضطجعة على فراشها فى سكون الموت . لم أخف على الإطلاق ، بل أسرعت إلى الموهف و بادرت إلى الإتيان بشمعة ووضعت على رأسها اكليلا من الورد . فى وسط هذا الخذلان كنت أشعر بيد الله تعالى معنا ، أشعر بقلبه يرعانا ! كانت اخواتنا العزيزات ينتقلن بدون مشقة إلى حياة أفضل . فرح سماوى باتت سيماؤه تنطبع على وجوههن ، فكأنهن مستقرات فى عذب من الرقاد .

أثناء هذه الأسابيع الطويلة ، أسابيع التجارب ، أستطعت أن أحظى بما جلبه لى تناولى القربان المقدس يومياً من تعزية لا توصف . آه ، ما كان أعذبها ! تعطف على يسوع زمناً طويلا ، أطول مما خصصه لقرياناته الأمينات . وبعد وباء الأنفلونزا ، أراد أن يظل يأتينى بضعة أشهر أخرى دون أن تشاركنى الرهبنة فى سعادتى هذه . ما طلبت ذلك الاستثناء ، على أنى كنت سعيدة جداً لاتحادى كل يوم مع حبيبى .

كنت أيضاً سعيدة جداً لاستطاعتى أن ألمس الأوانى المقدسة وأن أجهز اللفائف الصغيرة المعدة لاستقبال يسوع . شعرت أنه يجب على أن أتعبد جدا التعبد الحار وكثيراً ما تذكرت هذه الكلمة الموجهة إلى شماس صالح : « كن قديساً ، يا من تلمس أوانى الرب » (٥) .

ماذا أقول لك ، يا أماه ، عن صلواتى لشكر الله ، صلواتى فى ذلك العهد وفى كل عهد . ما من زمن أتعزى فيه أقل مما أتعزى إذ ذاك ! . ولكن أليس هذا طبيعياً ما دمت لا أرغب أن يزورنى الله ارضاء لى ، بل له ليس الا ؟

أتمثل نفسى أرضاً خالية والتمس من القديسة العذراء أن ترفع عنها الخرائب وما تلك الا نقائصى . وبعد ذلك أتوسل اليها أن تقيم هى نفسها سرادقاً فسيحاً يليق بالسماء فتزينه بحلاها الخاصة . ثم أدعو اليه جميع الملائكة والقديسين لينشدوا أناشيد الحب ، فيخيل إلى حينئذ أن يسوع مسرور إذ يرى أنه أستقبل هذا الاستقبال الفخم وأنا أشاركه فى سروره .

عل أن كل ما تقدم لا يمنع تشتت الفكر والنعاس من الحلول بى فاضجارى . لذلك يندر أن أعتزم الدأب فى صلاة الشكر طول النهار حين أوديها تلك التأدية الناقصة فى الخورس .

ترين ، يا أمى العزيزة ، أنى بعيدة عن السير مدفوعة بعامل الرهبة . أعرف دائماً سبيل السعادة والاستفادة من بلوأى . الرب يشجعنى على نهج هذه الطريق .

(٥) أشعياء ، ٥٢ : ١١ .

الانجيل هو الذى يقوتنى فوق كل شىء ، ما كنت الى ذلك الحين قد سبرت غور الكنوز المدفونة فى الوجه الأقدس .

« القديسة تريــزا »

كنت مضطربة على غير عادتى وأنا أتقدم إلى المائدة المقدسة . منذ عدة أيام كانت قطع البرشام غير كافية ، فلا أتناول الا بعض واحدة .. فى ذلك الصباح ، حدثت نفسى قائلة على غير حق : « اذا أنا لا أتناول الا نصف برشامة سيحدو بى ذلك أن أظن يسوع آتياً إلى قلبى غير مختار» . فتقدمت و يا للسعادة ! وقف الكاهن فناولنى برشامتين منفصلتين تماماً ! . ألم يكن ذلك جواباً عذباً ؟

أماه ، كم لدى من دواعى الشكر لله ! . اليك نجوى أخرى مع ما يطبعها من السذاجة : أظهر لى الرب نفس الرحمة التى أظهرها للملك سليمان . تحققت كل رغائبى لا رغائب الكمال فحسب ، بل كذلك الرغائب التى كنت أفهم بطلانها دون اختباره . قد اعتبرتك دائماً مثالى الأعلى ، فأردت أن أتشبه بك فى كل شىء . رأيتك تصور ين صوراً صغيرة رائعة وتنظمين قصائد جميلة ، فقلت فى نفسى أننى أكون سعيدة أن أتعلم التصو ير أيضاً (٦) وأن أستطيع الاعراب عن خواطرى بالشعر وأن أصنع الخير من حولى . ولكنى لو خيرت لما طلبت هذه المواهب الطبيعية ، فظلت منای مخفية فى صميم قلبى .

كان يسوع مخفيا كذلك فى قلبى المسكين الصغير وطاب له أن يظهر لهذا القلب مرة أخرى ما يزول . أتقنت عدة صور ونظمت ما نظمت من القصائد وسمح الله أن أفيد بعض النفوس وكان ذلك مثار الدهشة فى الرهبنة . وكما أن سليمان « التفت إلى صنع يديه الذى عانى فى اتمامه عناء ، ذلك نصيبه من عدم الفائدة ، فرأى كل شىء تحت الشمس باطلا يجلب الكآبة للروح » (٧) . كذلك أيقنت عن خبرة أن السعادة الوحيدة على الأرض قائمة فى تستر الإنسان و بقائه

---

(٦) هذه الرغبة كانت تر يزا تكنها منذ طفولتها . قالت فيا بعد : « كان لى من العمر عشر سنوات لما أنبأ والدى سيلين أنه هيأ لها أن تتعلم التصو ير . كنت حاضرة أغبطها على سعادتها ، فقال لى والدى : « وأنت ، يا ملكتى الصغيرة ، هل يسرك كذلك أن تتعلمى الرسم ؟ » هممت بأن أجيب نعم فى فرح عظيم ، واذا بمارى تلاحظ أننى لم أنل ما وهبت سيلين من حسن الاستعداد وسرعان ما انتصر رأيها .

أما أنا فرأيت فى هذا الظرف مناسبة صالحة لأقدم تضحية كبيرة ليسوع فلزمت الصمت . كنت أود أن أتعلم الرسم إلى حد أنى لا أزال أسائل نفسى كيف قو يت على السكوت .

(٧) سفر الحكمة ، ٢ : ١١ .

يجهل الخلائق كل الجهل . أدركت أنه بدون الحب ليست الأعمال كلها الا باطلا حتى أمجدها . عوارف الله على عوارفه الغزيرة تجذبنى اليه بدل أن تؤذينى وتجرح نفسى . أراه وحده لا يتحول ، وحده قادراً على أن يحقق رغائبى العظيمة .

وما دمت فى صدر رغائبى ، أقول أنه كان لى بعض أمان من نوع آخر طاب كذلك للمعلم الإلهى أن يحققها ، هى أمان صبيانية شبيهة برغبتى فى سقوط « الثلج » يوم ارتدائى ثوب الرهبنة . تعلمين ، يا أماه ، كم أحب الزهر ، واذا سجنت نفسى فى سن الخامسة عشرة من عمرى ، ضحيت بسعادة الطواف فى الحقول تزينها كنوز الربيع . ولعمرى ، ما ملكت أبداً من الأزهار أكثر مما ملكت منذ دخولى الكرمل !

عاد أهل العالم أن يقدم الخطيب لخطيبته باقات جميلة من الزهر . لم ينس يسوع ذلك . نلت لتزيين مذبحه وافر الترنجان والخشخاش والأقحوان الكبير إلى كافة ما أراه أبهج الأزهار . لم تتخلف عن الحضور إلا زهيرة واحدة من صديقاتى الأزهار وهى حبة البركة . كنت أشتاق كثيراً إلى رؤيتها وها أنها أتتنى مؤخراً تبتسم لى وتظهر لى أنه فى أقل الأشياء قدراً كما فى أجلها يعطى الله تعالى النفوس التى غادرت كل شىء حبا به بدل خير « مئة ضعف هذه الحياة الدنيوية » (٨) .

لم تبق لى الا رغبة واحدة وهى أدخل الرغبات من نفسى وأعسرها تحقيقاً لعدة أسباب : أعنى دخول سيلين كرمل « ليزيو » . ولكننى ضحيت بهذه الأمنية كل التضحية مسلمة إلى الله وحده مصير أختى الحبيبة . رضيت أن نذهب إلى طرف المعمورة لو اقتضى ذلك ، غير أنى كنت أتوق أن أراها مثلى قرينة يسوع . آه ، كم تعذبت لعلمى أنها معرضة فى العالم لأخطار ما عرفتها ! يمكننى قولى أن محبتى الأخوية لها أشبهت بالأحرى حبة الوالدة . كنت ممتلئة نحو نفسها غيرة وحناناً . اضطرت ذات يوم أن تحضر اجتماعا من اجتماعات العالم مع امرأة وبنات خالى ولا أعلم لماذا بلغ ألمى حينئذ أشده . ذرفت وابلا من الدمع متوسلة إلى الله تعالى أن يمنعها من الرقص .. وهذا ما تم بالذات ! . لم يسمح بأن تستطيع

(٨) متى ، ١٩ : ٢٩ .

خطيبته الصغيرة الرقص فى ذلك المساء ولو أنها عادة تقبل الدعوة اليه فى غير تردد فترقص بظرف ، بل أن من دعاها للرقص رأى ذاته أعجز عنه . إذ لم يستطع الا « أن يماشى آنستنا فى تخشع عظيم » مما أدهشنى الحضور دهشة كبيرة . وانسل بعدئذ هذا الرجل المسكين فى مزيد من الخجل ولم يجسر أن يعود للظهور فى تلك السهرة . هذا الحادث الفريد فى بابه زاد ثقتى و بين لى فى وضوح أن سيماء يسوع طبعت أيضاً على جبين أختى الحبيبة . وفى ٢٩ يوليو من العالم المنصرم استدعى الله اليه والدنا الحنون . وما كان أعظم تجاربه وقداسته ! أبقاه خالى عنده السنتين اللتين تقدمتا وفاته باذلا له فى شيخوخته الأليمة كافة أنواع الالتفاف والعناية . ولكن بسبب علته وعجزه لم نره الا مرة واحدة فى غرفة الاستقبال طيلة مرضه . آه ، يا لها من مقابلة ! . تذكرينها ، يا أماه . ساعة الفراق إذ كنا نقول له :

« إلى الملتقى » ، رفع بصره مشيراً بأصبعه إلى السماء وظل كذلك زمنا ليس بقصير ولم يجد ليعرب عن فكره غير هذه الكلمة التى لفظها بصوت ملؤه الدموع : « فى السماء !!! » .

لما غدت السماء نصيبه انقطعت الصلات التى كانت تربط بالأرض « ملاكه المعزى » . على أن الملائكة لا تمكث على الأرض ، فإذا أتمت مهمتها عادت للحال تولى وجهها نحو الله . لذلك أعطيت أجنحة ! . حاولت سيلين إذن أن تطير إلى الكرمل ولكن واحسرتاه ! ، كان يلوح أن العقبات لن تذلل . وفى ذات يوم إذ بات أمرها يزداد تعقيداً ، قلت للرب على أثر مناولتى : « تعلم ، يا يسوع ، كم رغبت أن تقوم لوالدى محنته مقام المطهر . آه ، كم أود أن أعلم هل استجيب دعائى ! . لا أطلب منك أن تكلمنى . أطلب منك دليلا ليس إلا . تعلم معارضة الأخت .. لدخول سيلين الكرمل . فإذا كفت من الآن عن إقامة العوائق ، كان ذلك ردك ، فأنبأتنى هكذا أن والدى ذهب إلى السماء تواً » .

يا لها من رحمة لا تحد ! . ياله من تعطف لا يوصف ! . ان الله الذى يقبض بيده قلوب الخلائق و يوجه ميولها كيف شاء غير استعداد هذه الراهبة . كانت

هى نفسها أول من قابلت بعد صلاة الشكر فنادتنى والدمع يترقرق فى عينيها . حثتنى عن دخول سيلين الدير غير مظهرة لى الا رغبة شديدة أن تراها بيننا . وعما قليل حل سيادة المطران المشاكل الأخيرة ، فسمح لك ، يا أمى ، بلا أى تردد أن تفتحىَ أبوابنا للحمامة الصغيرة المنفية (٩) .

والآن رغبتى الوحيدة أن أحب يسوع حتى الجنون ! . نعم . « الحب وحده يجذبنى . ما عدت أرغب الألم ولا الموت ومع ذلك أحبهما كليهما ! . وطالما ناديتهما بوصفهما من رسل الفرح ، نلت الألم فظننتنى مدركة شاطىء السماء ! . ظننت منذ أحدث أيام طفولتى أن « الزهرة الصغيرة » ستقطف فى الربيع . أما اليوم فلا يقودنى الا الاستسلام . ليس لى من بوصلة سواه . ما عدت أعرف أن أطلب بحرارة الا أن تتم على الاطلاق مشيئة الله فى نفسى . يمكننى أن أردد هذه الكلمات الواردة فى نشيد أبينا القديس يوحنا للصليب :

« شربت فى قبو النبيذ .. القبو الداخلى لحبيبى .
ولما خرجت ،
ما عدت أعرف شيئاً فى كل هذا السهل ،
وأضعت القطيع الذى كنت أتبعه .
دابت نفسى فى خدمته بكل وسائلها ،
ما عدت أرعى قطيعاً .
وما عاد لى مهمة أخرى ،
إذ الآن « كل عملى أن أحب » .

أو هذه الكلمات أيضاً :

« منذ اختبرت « الحب » ،
وجدته قديراً فى أعماله .
إلى حد أنه يعرف الاستفادة من كل شىء ،

---

(٩) كان ذلك فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٩٤ ، غدت سيلين الأخت جنفياف للوجه الأقدس .

من كل ما يلقاه بى خيراً أو شراً ،
يعرف كيف يحول نفسى اليه » .

ما أحب سبيل « الحب » ، يا أمى ! . لا شك أن المرء معرض للزلة والخيانة ولكن الحب يعرف « أن يستفيد من كل شىء » فسرعان ما يبيد بناره كل ما من شأنه ألا يروق يسوع ، فلا يترك فى أعماق القلب الا سلاماً متواضعا عميقاً .

ما أوفر التعاليم التى استخلصتها من كتب القديس يوحنا للصليب !لم يكن لى من غذاء سواه فى سن السابعة عشرة والثامنة عشرة من سنى . ولكن فيما بعد لم يؤثر أى كاتب من الكتاب الروحانيين فى نفسى وأنا لا أزال على تلك الحالة . إذا فتحت كتاباً حتى أجل الكتب وأشدها وقعا انقبض قلبى على الفور فقرأت دون أن أستطيع الفهم أو إذا فهمت جمد ذهنى ولم يستطع التأمل .

فى ذلك العجز ينجدنى الكتاب المقدس وكتاب الاقتداء بالسيد المسيح . أجد فيهما منا خفياً ، قوياً ، نقياً . ولكن هو الانجيل الذى يقوتنى فوق كل شىء فى صلواتى العقلية . أغترف منه كل الضرورى لنفسى المسكينة الصغيرة . أكتشف فيه دائماً تعاليم جديدة ومعانى خفية سرية ، أفهم وأعلم عن اختبار « أن ملكوت الله فى داخلنا » (١٠) . ليس يسوع بحاجة إلى الكتب أو الجهابذة لتعليم النفوس . هو جهبذ الجهابذة يعلمها بلا ضجة من الألفاظ . لم أسمعه يتكلم أبدا ولكنى أعلمه بى فى كل لحظة يرشدنى و يلهمنى . ألمح أضواء ما كنت أعرفها وذلك فى اللحظة عينها التى أحتاج فيها إلى تلك الأضواء . فى أغلب الأحيان لا تلمع أمام عينى وقت الصلاة ، بل وسط مشاغلى فى بحر النهار .

أما يمكننى ، يا أمى ، بعد هذا القدر من النعم أن أرتل مع صاحب المزامير « أن الله حنون وأن رحمته أبدية » (١١) . يبدو لى أنه إذا نالت كل الخلائق نفس هذه النعم ، فلن يخش الله أحد ، بل يحبه الكل فوق الحد . حينئذ لن ترتكب نفسى أقل هفوة مقصودة وذلك عن حب لا فى ارتجاف .

---

(١٠) لوقا ، ١٧ : ٢١ .

(١١) مزمور ، ١١٧ : ١ .

على أنى أفهم أنه ليس فى الإمكان أن تتماثل النفوس كلها ، بل يجب أن تكون مختلفة الطبائع لكى تكرم بنوع خاص كلا من الكلمات الالهية . أما أنا فقد أعطانى الله « رحمته غير المتناهية » . أنى أتأمل صفاته الأخرى فى وسط هذه المرآة الفائقة الوصف . حينئذ تبدو لى هذه الصفات كلها مشعة « حبا » . العدل نفسه يظهر لى فى ثوب من الحب أكثر من الصفات الأخرى . ما أعذب هذه الفكرة ، أن الله عادل أى أنه يقيم اعتباراً لضعفنا و يعلم تمام العلم أن طبيعتنا سر يعة الزلل ! . فم أخاف إذن ؟ ان الله تعالى ذا العدل الغير المتناهى يتنازل أن يغفر للابن الشاطر (الضال) خطاياه بهذا القدر من الرحمة ، فيجب أن يكون كذلك « عادلا » نحوى أنا « التى لا أفارقه أبداً » (١٢) .

فى سنة ١٨٩٥ أنعم الله علىّ بأن أفهم أحسن من ذى قبل كم يرغب يسوع أن يكون محبوباً . فكرت يوماً فى النفوس التى تقدم ذواتها ضحايا لعدل الله كى تدفع عن الخطأة القصاص المعد لهم ، فتحوله اليها . ألفيت هذه التقدمة كبيرة كريمة ، غير أنى كنت بعيدة جداً عن الشعور بالاستعداد للقيام بها .

فصحت فى أعماق قلبى : « يا معلمى الالهى ، هل عدلك وحده يتقبل ذبائح المحرقات ؟ أما يحتاج اليها كذلك « حبك الرحيم » ؟ انه مجهول منبوذ فى كل مكان . ان النفوس التى تبغى أنت أن تبذله لها ، تولى وجهها نحو الخلائق تسألها الهناء بحب حقير لا يلبث أن يزول ، وذلك بدل أن ترتمى بين ذراعيك وتقبل اضطرامها اللذيذ بحبك الغير المتناهى .

« ربى ، هل يبقى فى قلبك حبك المحتقر ؟ يبدو لى أنه لو وجدت نفوسنا تقدم ذواتها « كضحايا محرقات لحبك » ، فسرعان ما تحرقها . يبدو لى أنك تكون سعيداً ألا تحبس ما بك من لهيب محبة لا حد لها .

« إذا كان عدلك وهو لا ينبسط الا على الأرض يحلو له أن يحط حمله ، فكم بالأحرى يبغى حبك الرحيم أن يحرق النفوس ما دامت « رحمتك تسمو حتى

(١٢) لوقا ، ١٥ : ٣١ .

السماء » (١٣) . يا يسوع ، فلأكن أنا هذه الضحية السعيدة . أحرق ذبيحتك الصغيرة بنار حبك الالهى » .

يا أمى ، أنت التى مكنتنى أن أقدم نفسى هكذا إلى الله تعالى . تعلمين ما غمر نفسى من اللهيب أو بالأحرى من بحار النعم على أثر ما أعطيته فى ٩ يونيو ١٨٩٥ ... آه ، أن الحب يلجنى ويحيط بى من ذلك اليوم ، هذا الحب الرحيم يجددنى فى كل لحظة و يطهرنى ولا يترك فى نفسى أى أثر من الخطيئة . كلا ، لا يمكننى أن أخشى المطهر . أعلم أنى لا أستحق حتى أن أدخل مكان التكفير هذا مع النفوس القديسة . ولكنى أعلم أيضاً أن نار الحب أكثر تقديساً من نار المطهر . أعلم أن يسوع لا يمكنه أن يريد لنا عذابا لا فائدة منه وأنه ما كان يلهمنى الرغائب التى أشعر بها لو لم يرد أن يجيبنى اليها ...

هذا ، يا أمى الحبيبة ، كل ما أستطيع أن أقول لك عن حياة صغيرتك تر يزا . تعلمين بنفسك أحسن منى ما هى وماذا فعل يسوع لها . لذلك تغفر ين لى اختصارى كثيراً ترجمة حياتها الرهبنية .

كيف تنتهى هذه الترجمة « ترجمة زهرة صغيرة بيضاء » ؟ ..

قد تقطف الزهرة الصغيرة فى نضرتها أو قد ينقل غرسها إلى شواطىء أخرى ، أجهل ذلك ولكن الذى أنا واثقة منه أن رحمة الله تعالى ستصحبها دائماً وأنها لن تكف عن مباركة الأم التى أعطتها ليسوع .

ستغتبط على الدوام أن تكون زهرة من أزهار تاجها . ستنشد على الدوام مع هذه الأم الحبيبة أنشودة الحب والحمد التى لن تبلى جدتها .

---

(١٣) مزمور ، ٣٥ : ٦ .

الفصـــل التاســع

« المصعد » الالهى ــ أولى الدعوات إلى الأفراح الخالدة
الليلة الدامسة ــ مائدة الخطأ
كيف يفهم هذا الملاك الأرضي المحبة الأخوية
انتصار كبير ــ جندى هارب

أمى المبجلة(١) ، أبديت لى رغبتك أن أتم معك التغنى برحمة الرب . لا أريد أن أجادلك ولكنى لا أستطيع أن أتمالك من الضحك ، إذ أعود فأتناول القلم لأروى لك أشياء تعلمينها مثلى . على كل حال ها أنا أطيعك ، لا أريد أن أبحث عما قد يترتب على هذا المخطوط من فائدة . لا أكتمك ، يا أماه ، أنك لو أعدمته حرقا تحت بصرى حتى قبل أن تقرئيه ، لما تذكرت لذلك أدنى كدر .

تظن الراهبات على العموم ، أنك عاملتنى بكافة أنواع المدالاة منذ دخولى الكرمل . غير أن « الانسان لا يرى الا الظاهر . هو الله يقرأ ما فى أعماق القلوب(٢) . أماه ، أشكر لك أنك لم تراعينى ، كان يعلم يسوع حق العلم أنه لابد لزهرته الصغيرة من ماء المذلة المحيى . كانت أضعف من أن تتأصل جذورها بغير هذه الوسيلة واليك يرجع الفضل فيما نالته من هذا الصنيع الذى لا يقوم بثمن .

منذ بضعة أشهر غير المعلم الالهى تماماً سبيله فى انماء زهرته الصغيرة . لا شك أنه يراها مروية إلى حد الكفاية ، فهو يتركها الآن تنمو تحت أشعة فائقة الحرارة ، أشعة الشمس الزاهية . عاد لا يريد لها الا ابتسامته التى يعطيها إياها بواسطتك أيضاً ، يا أمى المبجلة . هذه الشمس اللطيفة لا تذبل الزهرة الصغيرة ، بل بالضد

---

(١) هذا الفصل والذى يليه موجهان إلى الأم المحترمة مارى دى جونزاج .

(٢) سفر الملوك الأول ، ١٦ : ٨ .

فإنها تنميها إنماء عجيباً . فى قرارة كمها تحفظ قطرات الندى الثمينة التى تقبلتها فيما مضى . هذه القطرات النفيسة تذكرها دائماً أنها صغيرة ضعيفة . لو أحنت عليها الخلائق بأسرها معجبة بها تكيل لها المدح ، فما كان ذلك ليضيف أقل سبب من أسباب السرور الباطل إلى الفرح الحقيق الذى ينعم به قلبها إذ لترى نفسها فى نظر الله عدما ، صغيرا ، حقيرا ليس إلا .

وحين أقول أن جميع ما قد يوجه إلى من آيات المدح لا يؤثر بى ، لا أقصد ، يا أماه ، ما تظهر ينه لى من محبة وثقة ، فإنها بالضد تقعان منى موقعا عظيما . ولكنى أشعر أنه ليس لى داع لأى خوف . ففى استطاعتى أن أتمتع الآن بهما كما أود ، ناسبة إلى الرب ما أراد أن يودعنى من خير ، فإذا طاب له أن يجعلنى أبدو أفضل مما أنا ، فذلك لا يعنينى إذ هو حر أن يفعل ما يشاء .

ربى ، ما أعظم تباين السبل التى تسلكها النفوس ! . تقرأ فى تار يخ القديسين أن كثيراً منهم لم يترك أى أثر بعده ، لا أقل ذكرى ولا أقل كتاب . ومنهم بالضد ، مثل أمنا القديسة تر يزا ، من زادوا ثروة الكنيسة بتعاليم السامية غير هائبين أن « يكشفوا أسرار الملك » (٣) ، لكى تزداد معرفة النفوس به ومحبتها له : فأى السبيلين أحب إلى الرب ؟ يبدو لى أنهما فى ارضائه سواء .

كل أحباء الله انقادوا للروح القدس إذ ألهم أشعيا النبى أن يكتب : « قولوا للصديق أن كل شىء حسن » . نعم ، كل شىء حسن حينما لا يطلب الإنسان الا مشيئة الله . لذلك أنا الزهرة المسكينة الصغيرة أطيع يسوع عندما أحاول أن أرضى التى تمثله على الأرض .

تعلمين ، يا أماه ، أنى تمنيت دائماً أن أصبح قديسة . ولكن ، وا أسفاه ! فقد تبين لى دائماً إذا قارنتنى بالقديسين أن بينى و بينهم نفس الفرق الذى نشاهده فى الطبيعة بين جبل توارت قمته فى السحب و بين حبة رمل حقيرة يطأها المارة بأقدامهم .

---

(٣) طوبيا ، ١٢ : ٨ .

فبدل أن تفتر همتى قلت فى نفسى : « لا يلهم الله أشواقاً محالة التحقيق . إذن يمكننى من صغرى أن أتوق إلى القداسة . من المحال أن أكبر ! . يلزمنى حينئذ أن أتحمل نفسى كما أنا مع نقائصى التى لا يحصرها العد ولكنى أريد أن أحاول الذهاب إلى السماء عن طريق صغيرة ، قديمة تماماً ، قصيرة جداً ، طريق صغيرة جديدة صرفا . نحن فى عصر الاختراعات . اليوم لا يكلف المرء نفسه مشقة الصعود على درج السلم . يستفيد الأغنياء استبداله بالمصعد . أنا أيضاً بودى أن أجد « مصعداً » يرفعنى حتى يسوع لأنى أصغر من أن أستطيع الصعود على سلم الفضيلة المضنى » .

حينئذ طلبت من الكتب المقدسة أن ترشدنى إلى « المصعد » الذى أتمناه فقرأت الكلمات الآتية المنبعثة من فم الحكمة الأزلية نفسه : « من كان صغيرا جداً فليأتنى » (٤) . اقتربت إذن من الله شاعرة جد الشعور أننى اكتشفت ما كنت أطلب . أردت أن أعلم كذلك ما هو صانع « للصغير جداً » فواصلت مباحثى واليك ما وجدت : « كما تدالى الأم ابنها ، كذلك أواسيكم وأحملكم على صدرى وأهدهدكم على ركبتى (٥) .

آه . ما جاءت أبداً تفرح نفسى كلمات أكثر حناناً وألطف نغماً من تلك . إنما « المصعد » الذى يرفعنى حتى السماء ذراعاك ، يا يسوع ! لأجل ذلك لست بحاجة أن أكبر . يلزمنى بالضد أن أبقى صغيرة ، أن أزداد صغراً . يارب لقد جاوزت أملى وأنا أريد أن أتغنى بمراحمك . « لقد علمتنى منذ صباى ، وإلى الآن أشدت بآياتك وسأدوم على نشرها حتى أقصى الكبر » (٦) .

ماذا يكون لى هذا الكبر ؟ يلوح لى أنه قد يكون الأوان الحاضر كما قد يكون ما بعده ، إذ ليس ألفا عام فى نظر الرب أكثر من عشرين عاماً بل من يوم واحد .

---

(٤) أشعياء ، ٣ : ١٠ .
(٥) أشعياء ، ١٦٦ : ١٣ .
(٦) مزمور ، ٧٠ : ١٨ .

ولكن لا تظنى ، يا أمى ، أن ابنتك تود أن تغادرك تقديراً منها أن الموت فى فجر الحياة نعمة أكبر من الموت فى الغروب . ما تقيم له اعتباراً ، ما تتوق اليه وحده أن تروق يسوع ، أما وقد بدا الآن أنه يقترب منها ليجتذبها إلى مقر المجد فإن قلبها فرح . أجل أن الله لا يحتاج إلى أحد ليصنع الخير على الأرض . الله أقل حاجة اليها منه إلى سواها . تعلم هذا وتفهمه .

وفى انتظار ذلك اليوم أعلم ارادتك ، يا أمى المبجلة : ترغبين أن أقوم قربك بمهمة ما أعذبها علىّ وما أسهلها ! . هذه المهمة سأتمها فى أعلى السماوات .

قلت لى كما قال يسوع للقديس بطرس : « أرعى خرافى » (٧) . أما أنا فقد دهشت . ألفيتنى أصغر من القيام بذلك ، فتوسلت اليك أن ترعى بنفسك خرافك الصغيرة وأن تمنى علىّ بأن تبقينى معها . أجبتنى بعض الإجابة إلى رغبتى المبنية على حق ، فعينتنى القرينة الأولى لتلميذاتك بدلا من تعيينى معلمتهن (٨) . غير أنك أمرتنى أن أقودهن إلى المراعى الخصبة الظليلة وأن أرشدهن إلى أفضل الأعشاب وأكثرها تقوية ساهرة على أن أريهن الأزهار الزاهية ولكنها مسممة ، تلك الأزهار التى ينبغى عليهن ألا يلمسنها الا لكى يسحقنها بأقدامهن .

كيف لم تخفك ، يا أمى ، حداثة سنى وقلة خبرتى ؟ كيف لا تخشين أن أترك خرافى تضل الطريق ؟ لعلك تذكرت إذ فعلت ذلك أنه يطيب للرب أن يعطى الأصاغر حكمته .

إن النفوس التى لا تقيس قدرة الله بمعيار أفكارها القاصرة ، فهى قليلة جداً على الأرض . يقرأ الناس عن طيبة خاطر بأن كل شىء على وجه البسيطة يحتمل الاستثناء وكأن الله وحده لا يحق له فى نظرهم أن يأتى استثناء . أعلم أنه منذ القدم يجرى الناس على قياس الخبرة بعدد السنوات إذ غنى الملك داود فى صباه يخاطب الرب « أنا حديث السن محتقر » (٩) . على أنه فى المزمور نفسه لا يخشى أن يقول : « أصبحت أفطن من الشيوخ لأنى طلبت ارادتك . انما كلمتك المصباح

(٧) يوحنا ، ٢١ : ١٥ .

(٨) كانت تؤدى وظيفة معلمه للمبتدئات دون أن يطلق عليها هذا اللقب . (٩) مزمور ، ١١٨ : ١٤١ .

الذى أستنير به فى السير. أنا مستعد أن أنفذ أوامرك ولا أضطرب لشىء ما » .

لا بل أنك لم ترى من عدم الفطنة أن تقولى يوما لى أن المعلم الإلهى يضىء روحى و يعطينى خبرة السنين المديدة . أنا الآن أصغر من أن يتولانى الغرور. أنا لا أزال أصغر من أن أعرف تنميق الألفاظ لأحمل الناس على اعتقاد أنى متواضعة جداً . أوثر أن أعترف ببساطة أن « القدير صنع بى عظائم » (١٠) وأعظمها أنه أظهر لى صغرى وعجزى عن أتيان أى خير.

فى الصيامُ الأربعينى للعام الماضى ألفيتنى أقوى منى فى أى زمن مضى . استمرت هذه القوة تماماً حتى الفصح ، مع أنى حفظت الصيام فى كل صرامته ، وإذا بيسوع فى الساعة الأولى من يوم الجمعة العظيمة يمنينى بأن أذهب عما قليل فألحق به فى جميل سمائه . لله ما أحب إلى هذه الذكرى ! .

يوم الخميس مساء لم أنل الإذن أن أبقى الليل كله جنب القبر المقدس ، فعدت إلى حجرتى فى منتصف الليل . وما أن وضعت رأسى على الوسادة حتى شعرت بسائل يصعد إلى شفتى فى غليان . طننتنى على وشك الموت فانفطر قلبى فرحا . لكنى كنت قد أطفأت منذ هنيهة مصباحنا الصغير ، فقهرت حتى الصباح رغبتى فى استطلا الأمر ونمت بسلام .

فى الساعة الخامسة ، لما حلت الإشارة المنبهة من الرقاد ، فكرت على الفور أن لدى خبراً مفرحا أتلقاه . دنوت من النافذة وما لبثت أن تحققته إذ وجدت منديلى ممتلئا دماً . يا أمى ، يا له من رجاء ! كنت موقنة فى قرارة نفسى أن حبيبى ، فى عيد موته هذا ، يسمعنى نداءه الأول ، نداء أشبه بهمس عذب بعيد ينبئنى بسعيد قدومه .

حضرت الصلاة الأولى ، ثم صلاة الخورس بتعبد عظيم . كنت استبطىء ميعاد ارتمائى على ركبتى أمى لأنبئها سعادتى . ما كنت أشعر بأقل تعب أو أقل

---

(١٠) لوقا ، ١ : ٤٩ .

ألم ، فنلت بسهولة الإذن أن أتم صيامى كما بدأته . وفى الجمعة العظيمة هذه ، اشتركت فى تقشفات الكرمل كافتها دون أقل راحة . آه ، ما استعذبت هذه التقشفات أبدا مثلما استعذبتها حينذاك ! ... كنت لرجائى الذهاب إلى السماء أتهلل فرحا .

فى مساء ذلك اليوم السعيد ، عدت إلى حجرتى ممتلئة سروراً كنت على أهبة الرقاد بهناء ، لما أعطانى يسوع الحنون كما فى الليلة السابقة نفس الدليل على دخولى الحياة الأبدية عن قريب . كنت أنعم حينذاك بإيمان قوى صاف إلى حد أن سعادتى كلها كانت تقوم فى فكرة السماء . ما كان بوسعى أن أعتقد أن هناك ملحدين لا إيمان لهم . وكنت أحسب أنهم بلا شك يقولون مالا يضمرون إذ ينكرون العالم الآخر .

فى أيام الفصح ، وما كان أضوأها ، أفهمنى يسوع أن هنالك حقاً نفوساً لا إيمان لها ولا رجاء ، نفوساً لا تأبه بنعم الله ، فتفقد بهذين الكنزين الثمينين المصدر الأوحد للأفراح الطاهرة الحقة . سمح أن يجتاح نفسى أكثف الظلمات ، أن تصبح لى فكرة السماء باعثاً على النضال والألم ، وما كان أعذبها علىّ منذ طفولتى الأولى ! . لم تقتصر هذه التجربة على بضعة أيام أو بضعة أسابيع ، فها أنى أعانيها منذ شهور ولا أزال أنتظر ساعة الخلاص و بودى لو استطعت أن أعرب عن شعورى ولكن ذلك محال . لا بد للمرء أن يكون قد اجتاز هذا النفق الدامس ليفهم ظلامه . على أنى محاولة أن أشرح ذلك عن طريق التشبيه .

أفرض أنى ولدت فى بلد يحيط به ضباب كثيف وأنى لم أشهد أبدا منظر الطبيعة الزاهى ولم أر على الإطلاق شعاعاً واحداً من أشعة الشمس . صحيح أنى سمعت الناس يتحدثون عن هذه الآيات منذ طفولتى وأن البلد الذى أسكنه ليس وطنى وأن هناك بلداً آخر يلزمنى ألا أكف عن النزوع اليه . ليس ذلك حكاية قد اخترعها بعضهم من سكان الضباب ، بل ذلك حقيقة لا ريب فيها ، إذ أن ملك الوطن ذى الشمس الزاهية حل ثلاثاً وثلاثين سنة فى بلد الظلام ..

واحسرتاه ! .. « والنور يضيء فى الظلمة والظلمة لم تدركه » (١١) .

لكن ابنتك ، يارب ، قد فهمت ضوءك الإلهى هذا . هى تطلب عن أخوتها الملحدين . هى ترضى أن تأكل خبز الألم ما شئت . هى تجلس حبا بك على هذه المائدة المليئة مرارة ، حيث يتناول الخطأة المساكين طعامهم ، والتى لا تريد هى أن تبرحها قبل أن تدعوها إلى ذلك بإشارة من يدك . لكن أما يمكنها أن تقول باسمها وباسم اخواتها الخطأة : « اللهم ، ارحمنا نحن الخطأة المساكين » (١٢) . ارجعنا مبررين وهب جميع من لايغيرهم مشعل الإيمان أن يروه مضيئاً فى آخر الأمر ! . يا الهى ، إذا كان لابد من تطهير المائدة التى دنسوها ، تطهيرها بواسطة نفس تحبك ، أنى أرضى بطيب خاطر أن آكل عليها وحدى خبز الدموع الى أن يحلو لك أن تدخلنى ملكوتك الساطع . انما النعمة التى التمسها منك ألا أسيئك أبداً ! .

قلت لك ، يا أمى ، أننى تلقنت منذ طفولتى يقينى أن أذهب يوما بعيداً عن بلدى المظلم . ما كنت أعتقد ذلك لما سمعت فحسب ، بل كنت أيضاً أشعر بقلبى يحدثنى ، تحت تأثير نزعات دخيلة عميقة ، أن هناك أرضاً أخرى ، منطقة أجمل استقر فيها يوما من الأيام . كنت أحس ذلك كما كان كريستوف كولومبس يحس وجود عالم جديد بالهام عبقريته . واذا بالضباب الذى يحيط بى يلج بغته فى نفسى و يساورنى إلى حد أنه لم يعد فى وسعى أن أجد بى صورة وطنى الفائقة العذوبة . كل شيء قد اختفى ! ...

وعندما أعمد إلى قلبى المتعب من محيط ظلامه لأريحه بذكرى الحياة المقبلة الأبدية ، تلك الذكرى المنعشة ، فإن عذابى يزداد . وكأن الظلام يستخدم لسان الملحدين فيقول ساخراً منى : « أنت تحلمين بالضوء بوطن معطر . أنت تحلمين بأن تمتلكى إلى الأبد خالق هذه الآيات . تظنين أنك خارجة يوما من الظلام الذى يضيئك . تقدمى ! .. تقدمى ! ... الليل ، هو ليل العدم ! .. » .

---

(١١) يوحنا ، ١ : ٥ . (١٢) لوقا ، ١٨ : ١٣ .

أمى الحبيبة ، هذه الصورة لمحنتى ناقصة مثل الرسم الأولى إذا قورن بأصله . على أننى لا أبغى أن أزيد على ما كتبت وذلك خوف التجديف .. بل أخشى أن أكون قد قلت أكثر مما يليق . فليسامحنى الله ! . يعلم جد العلم أنى مع عدم تنعمى بإيمانى ، أجتهد أن أعمل أعمال الإيمان . لقد رددت خلال حياتى كلها . فى كل مناسبة جديدة للقتال حينما يعمد خصمى أن يتحدانى ، أسلك سلوك الشجعان ، أعلم أن المبارزة ضرب من ضروب الجبن فأدير ظهرى لخصمى دون أن أنظر اليه وجهاً لوجه . ثم أهرع إلى يسوع قائلة له : أنى مستعدة أن أهرق دمى كله للاعتراف بأن فى الوجود سماء . أقول له بأنى سعيدة ألا يكون فى استطاعتى أن أتأمل بعين النفس هذه السماء الجميلة التى تنتظرنى وذلك ليتنازل فيفتحها إلى الأبد للملحدين المساكين .

بالرغم من هذه التجربة التى تسلبنى كل عاطفة من عواطف النعيم ، لا يزال فى وسعى أن أهتف : « يارب ، أنت تسبغ على الفرح بكل ما تصنع » (١٣) إذ هل من فرح أجل من التألم حبا بك ؟ كلما اشتد الألم وخفى عن عيون البشر دعاك إلى التبسم ، يا ربى ! وإذا فرضت من باب المحال أنك نفسك تجهل ألمى ، أكون أيضاً سعيدة أن أتألم على أمل أنى قد أستطيع بدموعى أن أمنع خطيئة واحدة ضد الإيمان أو أكفر عنها .

لا ريب ، يا أمى الجليلة ، أنك تظنينى مغالية بعض المغالاة فى وصفى ليل نفسى ، فإذا حكمت فى هذا الشأن بناء على ما نظمت من القصائد ذلك العام ، لابد أن أبدو لك كأن أنواع المواسات تغمرنى أو كطفلة كاد يتمزق أمام عينها حجاب الإيمان . مع ذلك لم يعد هناك حجاب ، بل حائط مرتفع حتى السماء يخفى القبة الزرقاء ونجومها ! .

حينما أتغنى بنعيم السماء و بامتلاك الله إلى الأبد ، لا أشعر بأى سعادة لأنى لا أتغنى الا « بما أريد أن أؤمن به » . وفى بعض الأحيان يضىء ليلى المدلهم شعاع

---

(١٣) مزمور ، ٩١ : ٥ .

صغير جداً ، فتزول التجربة إلى حين . أقر بذلك ولكن ذكرى هذا الشعاع بدل أن تواسينى تزيد ظلامى كثافة حتى عما قبل .

أواه ، ما أجدت الشعور أبدا بأن الله حنون رحيم مثلما أجدت حينذاك . لم يرسل الى هذا الصليب الثقيل الا فى الوقت الذى كان فى استطاعتى أن أحمله ، واعتقادى الأكيد أنه لو أرسل إلى من قبل ، لأسلمنى إلى القنوط . أما الآن فلا يترتب عليه الا أمر واحد ، هو أن ينزع كل ارتياح طبيعى يقترن بحنينى الى الوطن السماوى .

أماه ، يلوح إلى أنه الآن لا يمنعنى شيء من أن أطير ، إذ لم يعد لى رغائب كبيرة سوى أن أحب حتى أموت حبا . أنا حرة لا أهاب شيئاً حتى ما كنت أخافه أشد الخوف ، وهو أن أظل مريضة زمناً طويلا . فأكون عالة على الرهبانية . أرضى بطيب خاطر أن أرى حياتى تطول سنوات عديدة فى الآلام الجسدية والنفسية إذا راق ذلك الله . كلا ! . لا أخشى حياة طويلة ، لست آبى النضال . « الرب هو الصخرة التى ارتفع عليها ، هو يدرب يدى على القتال وأصابعى على المحاربة ، هو مجنى وموضع رجائى » (١٤) لم أطلب أبداً من الله أن أموت فى مقتبل العمر . صحيح أنى لم أبرح ، أعتقد أن الأمر سيكون هكذا ولكن دون أن أسعى لذلك .

كثيراً ما يكتفى الرب بالرغبة فى العمل لمجده . أما رغائبى فى هذا الصدد ، فتعلمين ، يا أمى ، أنها كانت كبيرة جداً . تعلمين أيضاً أن يسوع قدم لى أكثر من كأس مر يرغبيا يتصل بأخواتى الحبيبات ! . آه ، كان الملك داود الصالح على حق إذ أنشد : « ما أحب إلى الأخوة وما أعذب عليهم أن يقيموا معا فى تمام الاتحاد » (١٥) . ولكن يجب أن يتم هذا الاتحاد على الأرض فى وسط التضحيات . كلا ، ما أتيت هذا الكرمل المبارك لأعيش مع أخواتى ، بل بالضد كنت أعلم جيداً أن ذلك لابد مدعاة لآلام عظيمة ، إذ لم يرض الإنسان أن يسلم بشيء إلى

---

(١٤) مزمور، ١٤٣ : ١ ــ ٢ .   (١٥) مزمور، ١٤٢ : ١ .

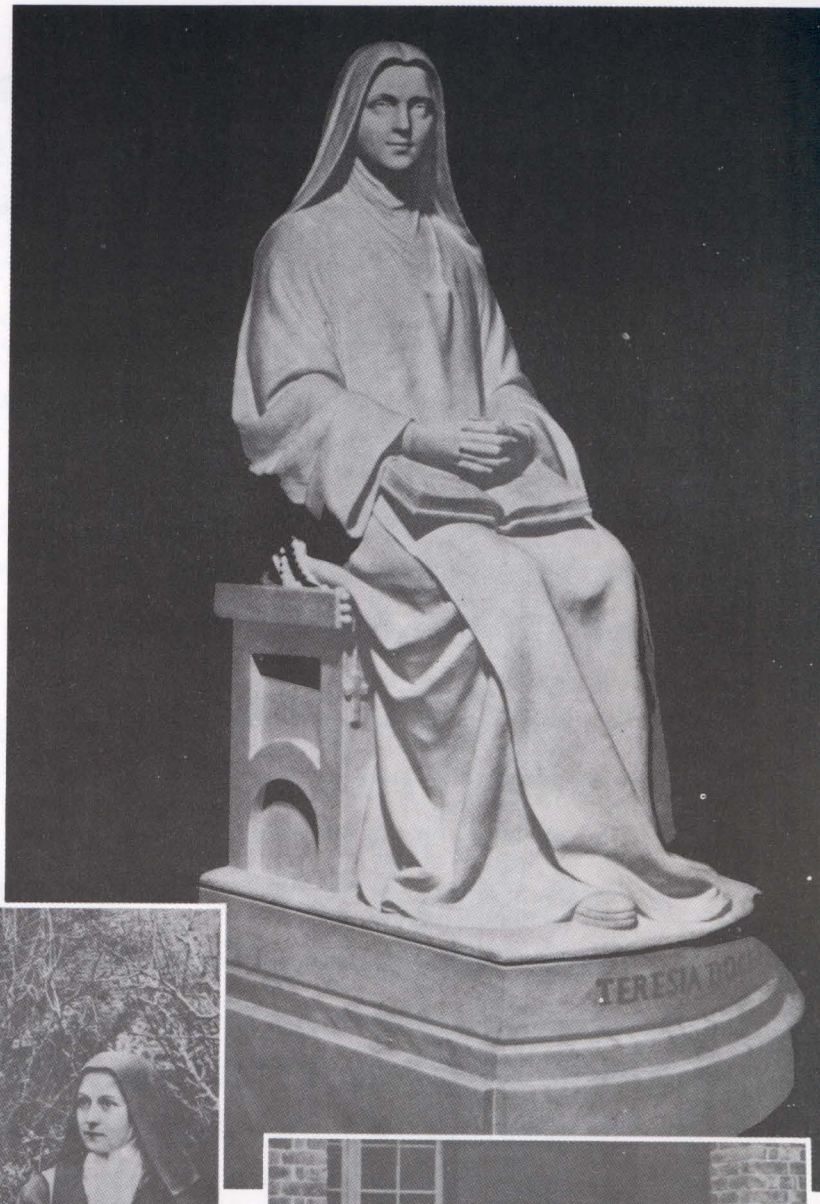
TERESIA

« لم أطلب منه تعالى أبدا أن أموت شابة ، والآن انى متأكدة أنى أتم مشيئة الله فى » .

« القديسة تريزا »

الطبيعة . كيف يمكن القول بأن الابتعاد عن الأهل أقرب إلى الكمال ؟ فهل لام أحد أخوة لأنهم يناضلون فى ميدان واحد و يطيرون معا إلى اجتناء غار الاستشهاد ؟ نرى بحق أنهم يشجعون بعضهم بعضاً ولكن نرى أيضاً أن استشهاد كل منهم يصبح استشهاد الجميع .

والأمر كذلك فى حياة الترهب التى يسميها اللاهوتيون بعض الاستشهاد . لا يفقد القلب حنانه الطبيعى إذ يهب الله نفسه ، بل بالضد فإن هذا الحنان يزداد و يصبح أكثر طهارة وألوهية . انما أحبك بهذا الحنان ، يا أمى ، أنت واخواتى . نعم ، أنى سعيدة أن أجاهد فى أسرتى لمجد ملك السماوات . لكنى مستعدة أيضاً أن أطير إلى ميدان آخر إذا أبدى لى القائد الإلهى هذه الرغبة . لا أحتاج حينئذ إلى أمر يصدر بذلك ، بل يكفينى مجرد نظرة أو إشارة .

منذ دخولى الكرمل ما برحت أعتقد أنه إذا لم يبادر يسوع فيخطفنى إلى السماء ، صرت إلى ما صارت اليه حمامة نوح الصغيرة ، أى أن الرب يفتح نافذة الفلك ذات يوم فيأمرنى أن أطير بعيداً بعيداً إلى أقطار من لا يؤمنون به ، حاملة اليهم غصن الزيتون . فكان من شأن هذه الفكرة أن أحلق فوق كل مخلوق .

أدركت أن الفراق ممكن حتى فى الكرمل . فأردت أن أسكن السماوات مقدماً ، فرضيت النفى وسط شعب مجهول لا لنفسى فحسب ، بل لاخواتى . وكان ذلك مؤلماً لى جداً . و بالفعل ، فإن كرمل « سايجون » الذى أسسه ديرنا ، قد طلب اثنتين منهن . وفى وقت من الأوقات اتجهت النية اتجاهاً جدياً إلى إرسالهما هناك . آه ، ما كنت لأريد أن أقول كلمة واحدة قصد ابقائهما هنا مع أن قلبى انفطر لفكرة ما كان ينتظرهما من التجارب .

الآن مضى كل ذلك . فإن الرؤساء أقاموا فى سبيل رحيلهما عقبات لا تذلل . وعلى هذا ما كان من هذه الكأس الا أن تبللت فيها شفتاى وقتا لم يطل الا بالقدر الذى يسمح لى أن أذوق مرارتها .

دعينى ، يا أمى ، أن أقول لك لماذا أود أن أجيب نداء أمهاتنا فى « هانوئى » إذا شفتنى القديسة العذراء . يظهر أنه لابد من دعوة سماو ية خاصة لتستطيع الواحدة منا أن تعيش فى أديرة الكرمل بالخارج . نفوس عديدة تظن أنها مدعوة إلى تلك الحياة دون أن يكون الأمر كذلك . قلت لى ، يا أمى ، أننى نلت هذه الدعوة ، لكن صحتى تمنعنى عن اجابتها .

آه . لو وجب على يوماً أن أغادر مهدى الرهبنى ، فلن أغادره بلا جزع . ليس لى قلب عديم الحس ، فإنه يستطيع أن يتألم كثيرا وهذا هو بالذات السبب الذى من أجله أر يد أن أعطى يسوع كل ما يستطيع هذا القلب أن يتحمل من أنواع الألم . أنا هنا محبوبة منك ، يا أمى ، ومن جميع اخواتى وما أعذب هذه المحبة الى . لذلك أحلم بدير أكون فيه مجهولة . بدير يلزمنى فيه أن أعانى منى الفؤاد . إذا غادرت كل شىء عز يز علىّ ، فلن يكون ذلك رغبة منى فى أن أخدم كرمل « هانوئى » كلا . أعلم عجزى كل العلم . يكون إذ ذاك غرضى الوحيد أن أتمم مشيئة الله وأن أضحى بذاتى لأجله وفق رغائبه . أحس جيداً أنه لن يخيب لى رجاء إذ متى توقع المرء ألما خالصاً فأقل فرح أدعى الى استغرابه ، فضلا عن أن الألم نفسه يصبح أعظم فرح حين يطلبه المرء بوصفه كنزاً ثميناً . ولكنى الآن مر يضة ولن أشفى ، غير أنى أظل فى سلام . ما عدت ملكاً لنفسى من زمن بعيد . سلمت نفسى كل التسليم إلى يسوع . فهو حر أن يصنع بى ما يشاء . شوقنى إلى النفى التام . سألنى هل أرضى أن أشرب من هذه الكأس ، فأردت فى الحال أن أتناولها ولكنه سحب يده مظهرا لى أن مجرد رضاى يكفيه .

لله ، كم من ضروب القلق ينجو المرء منها إذ ينذر الطاعة ! . ما أعظم هناء الراهبات البسيطات . بوصلتهن الوحيدة مشيئة رؤسائهن . لذلك هن دائما على يقين أنهن فى السبيل القويم ، فلا داعى أن يخشين الخطأ ، حتى لو بدا لهن من المحقق أن الرؤساء على خطأ . ولكن حينما تكف النفس عن الرجوع إلى البوصلة التى لا تخطىء ، لا تلبث أن تتوه فى سبيل يابسة حيث ينقصها ماء النعمة .

أنت ، يا أمى ، البوصلة التى أعطانى يسوع اياها لتقودنى بأمان إلى الشاطىء الأبدى . ما أحب الى أن أشخصك ، ثم أتمم مشيئة الرب ! سمح المعلم الإلهى أن أعانى تجارب الشك فى حقائق الإيمان . على أنه اذ فعل ، زاد فى قلبى كثيراً روح الإيمان الذى يرينى الآن الرب حيا فى نفسك ومبلغاً الى بواسطة أوامره المباركة . أعلم جيداً ، يا أمى ، أنك تجعلين لى عمل الطاعة لطيفاً خفيفاً ، ولكن يلوح الى وفقا لشعورى الداخلى أنه لو طاب لك أن تعامليني بالشدة ، فلن يتغير سلوكى ولن يصيب حنانى البنوى أى نقصان ، لأنى إذ ذاك أرى أيضاً مشيئة ربى منجلية على صورة أخرى تحقيقاً لخير الأعظم .

بين ما نلت فى هذا العام من نعم لا يحصرها العد ، لا أرى أصغرها تلك التى هيأت لى أن أفهم واجب المحبة للغير فى كل متناوله . ما كنت أبداً قد أمعنت النظر فى كلمة الرب : « والثانية (أى الوصية) التى تشبهها : أحبب قريبك كنفسك » (١٦) . وجهت عنايتى على الأخص أن أحب الله وما كشفت سر هذه الكلمات الآتية الا عن طريق حبه : « ليس كل من يقول لى يا رب ! يارب ! يدخل ملكوت السماوات ، لكن الذى يعمل إرادة أبى الذى فى السماوات يدخل ملكوت السماوات » (١٧) .

هذه الإرادة عرفنى يسوع اياها فى العشاء السرى الأخير إذ أعطى « وصيته الجديدة » ، فقال لرسله « أن يحبوا بعضهم بعضاً كما أحبهم هو» (١٨) فجعلت أبحث كيف أحب يسوع رسله ، فرأيت أنه لم يحبهم لفضائلهم الطبيعية . ظهر لى أنهم كانوا جهلاء ، ممتلئين بالأفكار الدنيوية . ومع ذلك فهو « يدعوهم أصدقاءه وأخوته » . يرغب أن يراهم قربه فى ملكوت أبيه ولكى يفتح لهم هذا الملكوت يريد أن يموت على الصليب قائلا : « ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يبذل نفسه عن أحبائه » (١٩) .

---

(١٦) متى ، ٢٢ : ٣١ .
(١٧) متى ، ٧ : ٢١ .
(١٨) يوحنا ، ١٣ : ٣٤ .
(١٩) يوحنا ، ١٥ : ١٣ .

تأملت فى هذه الكلمات الإلهية ، فتبين لى كم كان حبى لأخواتى ناقصاً . أدركت أنى لا أحبهن كما يحبهن يسوع . آه ، أفهم الآن أن المحبة الحقيقية قائمة فى أن يتحمل المرء كل نقائص الغير وألا يدهش لزلاته وأن يقتدى بأقل فضائله . علمت على الأخص أنه يجب ألا تبقى المحبة مدفونة فى قرار القلب إذ ليس « أحد يوقد سراجاً و يضعه تحت المكيال ، لكن على المنارة لكى ينير جميع من فى البيت (٢٠) . يظهر لى ، يا أمى ، أن هذا السراج يمثل المحبة التى يجب أن تنير وتفرح لا جميع من أعزهم فحسب ، بل أيضاً « جميع من فى البيت » .

فى العهد القديم لما كان الرب يأمر شعبه أن يحب الغير كما يحب نفسه ، لم يكن قد نزل إلى الأرض . لعلمه كم يحب المرء نفسه ، لم يكن فى وسعه أن يطلب أكثر من ذلك . ولكن حينما يعطى يسوع رسله « وصية جديدة » ، « وصيته هو» (٢١) . فلا يتطلب من المرء أن يحب غيره كما يحب نفسه فحسب ، بل كما يحبه هو. كما يحبه إلى دهر الداهرين .

يا يسوع ! اعلم أنك لا تأمر بشىء محال . تعرف أكثر منى ضعفى ونقصى . تعرف جيداً أننى لن أصل أبدا أن أحب اخواتى كما تحبهن أنت نفسك ، يا مخلصى الصالح ، ان لن تحبهن أيضاً « فى » . انما أعطيت وصية جديدة لأنك تريد أن تمنحنى هذه النعمة . آه ، كم أحب هذه الوصية ما دامت تؤكد لى أن مشيئتك أن « تحب فى » من تأمرنى بحبهم .

أجل ، حينما أحب الغير ، أشعر بأن يسوع وحده هو الذى يحركنى . بقدر ما أزداد اتحاداً معه ، ازداد محبة لجميع اخواتى . فإذا أردت أن أذكى فى قلبى هذه المحبة وحاول الشيطان أن يعرض أمام عينى نقائص أخت ما ، فأنى أبادر إلى البحث عن فضائلها وصالح رغباتها . أقول فى نفسى أننى إذا رأيتها تزل مرة ، فقد تكون انتصرت على نفسها عدة مرات وهى تخفى هذه الانتصارات عن تواضع . بل أن ما يبدو لى هفوة ، قد يكون حقا عملا من أعمال الفضيلة بالنظر إلى نية فاعله . ومما يهون على اعتقادى ذلك أننى اختبرت الأمر بنفسى .

---

(٢٠) متى ، ٥ : ١٥ .　　(٢١) يوحنا ، ١٥ : ١٢ .

فى ذات يوم وقت التنزه جاءت البوابة تطلب أختا لقضاء عمل معين . فاشتقت إلى القيام به شوقاً أشبه بشوق الأطفال ووقع الاختيار على بالذات . فشرعت للحال أطوى شغلى ولكنى طويته على مهل بحيث أهيىء لجارتى أن تطوى شغلها قبلى . فكنت أعلم أنى أفرحها إذ أتركها تحل محلى . وإذا بالأخت التى طلبت هذه المعونة تقول مبتسمة إذ رأت قلة استعجالى : « كان قلبى يحدثنى حقا أنك لن تضمى هذه الدورة إلى تاجك إذ كنتُ تبطئين جداً » وظننت الرهبانية كلها أننى فعلت هذا بالطبع .

لا أستطيع أن أقول كم أستفدت من هذا الحادث الصغير وكم صيرنى متسامحة ! . منعنى كذلك من الغرور حينما يظن بأعمالى خيراً . إذ أقول فى نفسى ما دامت أعمالى الصغيرة تبدو كأنها بعض النقائص ، يمكن المرء كذلك أن يخطىء بأن يصف بوصف الفضيلة ما ليس الا نقيصة . وحينئذ أردد قول القديس بولس « أعبأ قليلا بأن تحاكمنى أى محكمة بشرية ، بل أنا لا أحاكم نفسى ، انما الرب يحاكمنى » (٢٢) .

أجل ، هو الرب ، هو يسوع يدينني . ولكن أحله أن يحكم لى أو بالأحرى لكيلا أدان على الإطلاق ، أريد دائماً أن تكون خواطرى منطوية على حب الغير ، إذ قال : « لا تدينوا فلا تدانوا » (٢٣) .

أعود إلى الإنجيل المقدس حيث يشرح الرب جلياً فيم تقوم « وصيته الجديدة » . جاء فى انجيل متى : « قد سمعتم أنه قيل : أحبب قريبك وابغض عدوك . أما أنا فأقول لكم : « أحبوا أعداءكم واحسنوا إلى من يبغضكم وصلوا لأجل من يعنتكم و يضطهدكم » (٢٤) .

---

(٢٢) كورنتس الأولى ، ٤ : ٣ .
(٢٣) لوقا ، ٦ : ٣٧ .
(٢٤) متى ، ٥ : ٤٣ .

بالطبع فى الكرمل لا تجد الواحدة منا عدوة . على أنها لها بعض الميول الخاصة ، تشعر بنفسها منجذبة إلى أخت معينة فى حال أن أختاً أخرى تضطرها أن تعمد إلى طريق غير مباشر لكى تتجنب الالتقاء بها . الا أن يسوع يقول لى أن هذه الأخت يجب أن أحبها ، أن أصلى لأجلها ولو أن سلوكها يجعلنى على الاعتقاد أنها لا تحبنى . « فانكم ان أحببتم من يحبكم ، فأية منة لكم فأن الخطأة يحبون من يحبهم » (٢٥) . على أنه لا يكفى أن نحب ، بل يجب أن نبرهن عن حبنا . بالطبع يطيب للمرء أن يفرح صديقاً له ولكن لا تقوم المحبة للغير فى هذا . فإن الخطأة أيضاً يصنعون ذلك .

اليك ما يعلمنى يسوع كذلك : « وكل من سألك فاعطه ، ومن أخذ مالك فلا تطالبه به » (٢٦) . أن يعطى المرء جميع من يسألونه أقل عذوبة عليه من تقديم شىء من تلقاء نفسه بدافع القلب . هذا وحينما يطلب شىء فى لطف ، فلا يكلفك اعطاؤه أى عناء . ولكن إذا عمد الطالب لسوء الحظ إلى كلمات قليلة الرقة ، فلا تلبث أن تثور إذا لم تتأصل فى المحبة للغير ، المحبة الكاملة . حينئذ تجد ألف سبب لرفض ما يطلب اليها على هذه الصورة ، فلا تعمد الا بعد أن تثبت على السائلة عدم ذوقها الى التبرع باجابة طلبها أو إسدائها خدمة صغيرة تقضى فى اتمامها زمنا أطول عشرين ضعفاً مما يلزم لتأديتها . وذلك بينما تقيم من الصعوبات وتبدى من الحقوق ما يدخل فى باب الخيال .

إذا شق على المرء أن يعطى كل من يسأله ، فأشق عليه كثيراً « أن يترك المرء غيره يأخذ ماله ولا يطالبه به » . أماه ، أقول أن ذلك شاق وأحرى أن أقول أن ذلك يلوح شاقاً « لأن نير الرب لين وحمله خفيف » (٢٧) . فما أن يقبله حتى يشعر بلينه .

أقول أن يسوع لا يريد أن أطالب بما هو ملكى ، يجب أن يبدو ذلك إلى أمراً طبيعياً ، إذ فى الحقيقة لا أمتلك شيئاً خاصاً بى . يلزمنى حينئذ أن أفرح حينما

---

(٢٥) مزمور ، ٦ : ٣٣ .
(٢٦) لوقا ، ٦ : ٣٠ .
(٢٧) متى ، ١١ : ٣٠ .

يحدث لى أن أشعر بالفقر الذى نذرته رسمياً . كنت أظننى فيما مضى غير متمسكة بأى شىء ، ولكن منذ تجلت لى كلمات يسوع على حقيقتها ، أرانى ناقصة جدا . فإذا عمدت مثلا إلى التصوير فوجدت الريش غير مرتبة ، إذا لم ألق مسطرة أو مقشطاً يكاد صبرى يخذلنى و يلزمنى أن أمسكه بكلتا يدى لكيلا أطلب بكدر ما ينقصنى .

ما من فرح يوازى الفرح الذى يذوقه المسكين بالروح حقيقة . إذا طلب بنزاهة شيئاً ضرورياً ، أنكره الناس عليه ، بل حاولوا أخذ ما هو له ، فإنه يتمشى على مشورة السيد المسيح القائل : « من أراد أن يخاصمك و يأخذ ثوبك فاترك له رداءك أيضاً » (٢٨) .

فترك الرداء يعنى ، على ما أرى ، التجرد عن آخر حق لخادمة الرب معتبرة نفسها أمة بل عبدة للغير . ذلك لأنه عندما يتخلى الإنسان عن ردائه ، يسهل عليه أن يسير و يسرع . على هذا أضاف يسوع : « ومن سخرك ميلا فامش معه اثنين » (٢٩) . أجل ، أنه لا يكفينى أن أعطى من يسألنى ، يجب أن أتعرف أنا رغائبه مظهرة انى مشرفة بتقديمى خدمة للقريب ، كما أنه إذا أخذ منى شىء استخدمه ، على أن أظهر فى كل حين ارتياحى إلى ذلك ، كأنى تخلصت من حمل أحمله .

لا أستطيع أن أتمم أقوال الانجيل حرفياً . قد تبدو ظروف أرانى بها مضطرة أن أرفض شيئاً ما على اخواتى . لكن متى تثبت أصول المحبة فى النفس ، فلا بد من ظهورها للخارج . وقد لا نحرم وسيلة لطيفة بها نرفض ما ليس بوسعنا أن نعطيه ، فيسر السائل كما لو كان قد أجيب إلى سؤاله . أجل ، قد يسهل تكليف الذين يظهرون استعدادهم المتواصل لخدمة الغير ومع ذلك ، بحجة أنى مضطرة أن أرفض ، يجب على أن لا أبتعد عن الراهبات اللواتى يطلبن خدمى بدون صعوبة ، لأن المعلم الالهى قال : « من أراد أن يقترض منك ، فلا ترده » (٣٠) .

(٢٨) متى ، ٥ : ٤٠ .
(٢٩) متى ، ٥ : ٤١ .
(٣٠) متى ، ٥ : ٤٢ .

يجب أن لا يكون فى ميل إلى الإحسان قصد التظاهر، بل على أمل استعادة الخدمة التى أديتها ، لأن السيد المسيح يقول أيضاً : « ان اقرضكم الذين ترجون أن تستوفوا منهم ، فأية منة لكم فان الخطأة يقرضون الخطأة ، كى يستوفوا منهم المثل . أما أنتم فاحسنوا واقرضوا غير مؤلين شيئاً فيكون أجركم عظيماً » (٣١) .

أجل ، أن الأجر عظيم حتى على هذه الأرض ، ولا شىء يكلف الا الخطوة الأولى . لأن القول : « اقرضوا ولا تأملوا شيئاً » قول قاس . فالمرء يفضل أن « يعطى » لأن العطية تبطل أن تكون ملكاً . تأتى إحدى الراهبات وتقول بثقة : « يا أختى ، أنى لفى حاجة إلى مساعدتك بضع ساعات ، كونى مطمئنة فإنى أستأذنت أمنا الرئيسة بذلك ، وسأرجع لك الوقت الذى تعطينه » . فبالحقيقة عندما يتحقق المرء أن الوقت المعار لا يعاد أبداً ، بفضل القول : « أنى أعطيك إياه » وهذا يرضى محبة الذات . فلأن يعطى هذا الشىء أفضل من أن يقرض . فوق ذلك أجعل قريبى يشعر بأنى لا أنتظر خدماته .

آه ، كم أن التعاليم الإلهية هى والعواطف الطبيعية على طرفى نقيض ! . أنه من المحال ، بدون النعمة ، ليس السلوك بموجب هذه التعاليم فقط ، بل فهمها أيضا .

انى أشعر، يا أمى العزيزة ، أنى أسأت التعبير أكثر من ذى قبل . لا أدرى أية فائدة تجدينها بمطالعتك هذه الأفكار المشوشة . على أنى لا أكتب لأجعل من كتابى تأليفاً فصيحا وإذا كنت سببت لك ضجراً بمثل هذا الخطاب عن المحبة ، فأقل ما يرجى أنك ترين أن ابنتك برهنت عن استعداد حسن .

انى أقر متأسفة بأنى لأبعد من أن أمارس ما أفهمه ! على أن ما فى من رغبة إلى ذلك يولينى سلاماً . إذا اتفق وعثرت بما يخالفه نهضت سريعاً . منذ بضعة أشهر، لا أرى موجباً للمكافحة ، لذا يمكنى أن أقول مع أبينا القديس يوحنا للصليب : « أن مسكنى هادىء تماماً » . أنى أنسب هذا السلام الباطنى إلى معركة

---

(٣١) لوقا ، ٦ : ٣٤ .

خرجت منها ظافرة . مذ ذاك الإنتصار جاءت الطغمة السماو ية لمعونتى ، لأنها أبت أن ترانى جريحة ، بعد أن جاهدت مستبسلة فى المعركة التى سأقص عليك تفاصيلها .

كان لإحدى راهباتنا الفاضلات ميزة : كانت أعمالها كلها تسبب لى امتعاضاً . لا ريب أن للشيطان يدا فى ذلك ، لأنه كان ير ينى فيها أموراً كثيرة مكروهة . وإذا لم يكن اشمئزازى الطبيعى ليردعها ، قلت فى نفسى : لا تقوم المحبة بالعواطف فقط ، ينبغى أن تظهر بالأعمال . اجتهدت بأن أعامل هذه الراهبة معاملتى أحب الأشخاص لدى . فكنت ، كلما صادفتها ، أصلى إلى الله لأجلها مقدمة له كل فضائلها واستحقاقاتها : كنت على يقين أن ذلك يسر يسوع كثيراً ، لأنه ليس من صانع ماهر الا و يسر بما يتقبله من المدائح على أعماله . هكذا صانع النفوس الإلهى يسر عندما لا يقف عباده عند الظاهر ، لكنهم بولوجهم المقدس الباطنى الذى اختاره مسكنا له ، يعجبون بجماله .

لم أكتف بالصلاة الكثيرة لأجل تلك التى كانت سبب معاركى الباطنية الجمة ، بل كنت أبذل غاية الجهد فى أن أقدم لها كل الخدم الممكنة ، لما كنت أجرب بأن أجيبها بلهجة مستكرهة ، كنت أبادرها بابتسامة لطيفة ، محاولة إبدال الحديث بموضوع آخر ، طبقاً لما جاء فى كتاب الاقتداء : « ينبغى أن نترك كل واحد ورأيه : ذلك أنفع لنا من الأخذ فى الخصام والمنافرة » (٣٢) .

عندما كان يجر بنى الشيطان بشدة ، وكان بوسعى أن أنسل بدون أن تشعر تلك الراهبة بعراكى الباطنى ، كثيراً ما كنت أنهزم « كجندى فرار» وفيما أنا على هذه الحال ، قالت لى يوما ببشاشة : « يا أختى تر يزا للطفل يسوع ، أتر يدين أن تفضى إلى بما يجتذبك نحوى ؟ كما أرى أنى لا أصادفك مرة الا وتبتسمين لى ألطف ابتسامة ! » لعمرى ، ان الذى كان يجتذبنى هو يسوع المخبأ فى أعماق نفسها . أجل ، هو يسوع الذى يحول « أشد المرائر إلى عذوبة شهدية » (٣٣) .

---

(٣٢) الإقتداء ، ٣ : ٤٤ ، ١ .

(٣٣) الإقتداء ، ٣ : ٥ : ٤ .

كنت أحدثك منذ هنيهة ، يا أمى ، عن وسيلتى الأخيرة لأتجنب الهزيمة فى معارك الحياة أعنى بها « الفرار » . هذه الوسيلة الغير مشرفة كنت ألجأ اليها ابان تلمذتى فى الدير وقد أصبت بها دائماً تمام النجاح . وها أنى أروى اليك مثلا هو آية فى نوعه ، وأظنه يدفعك إلى الإبتسام :

كنت منذ عدة أيام مصابة باحتقان رئوى أقلق بالنا كثيراً . ففى صباح يوم جئتك بكل تؤدة فى غرفة الاستشفاء لأسلمك مفاتيح شعرية المناولة ، لأنى كنت إذ ذاك خادمة الهيكل . كنت مسرورة فى دخيلتى أن تتاح لى هذه الفرصة لأراك ولكنى حاذرت جد المحاذرة أن أظهر ذلك . على أن إحدى بناتك ظنت بدافع من الغيرة عليك أننى سأوقظك . فأرادت أن تأخذ منى المفاتيح فى هدوء فأجبتها بأحسن من التأدب أنى أرغب قدر ما ترغب ألا أحدث حساً ، وأضفت إلى ما تقدم أن من حقى رد المفاتيح . أفهم اليوم أنه لو سلمت بكل بساطة ، لكان ذلك منى أدنى الكمال ، لكنى ما كنت أفهم هذا حينئذ ، فأردت أن أدخل على أثرها بالرغم منها .

سرعان ما حلت النائبة الرهيبة : فتحت عينيك على الصوت الذى أثرناه فوقعت كل المسئولية على . بادرت الأخت التى عارضتها إلى القاء خطبة برمتها هذا مدارها : « هى أختى تريزا للطفل يسوع التى أحدثت الحس » . كنت أتأجج شوقاً إلى الدفاع عن نفسى ولكن لحسن الحظ طرأت على فكرة نيرة . قلت فى دخيلتى أنه لو شرعت أبرر نفسى ، فإنى فاقدة لا محال اطمئنان القلب . هذا وأن فضيلتى لأضعف من أن أترك نفسى أتهم دون أن أجيب شيئاً فعلىّ أن أختار الفرار بوصفه آخر وسيلة للنجاة . فما أن فكرت ذلك حتى أتيت ، فانصرفت . ولكن قلبى كان يخفق بشدة ، حتى أنى لم أستطع الذهاب بعيداً ، فجلست على السلم لأتنعم فى اطمئنان بثمرة انتصارى . لا شك أن هذه الشجاعة لغريبة ، لكن أظن أفضل للمرء ألا يعرض نفسه إلى القتال ، إذا كانت الهزيمة محققة .

أواه ! حين أفكر فى عهد تلمذتى بالدير ، كم أتبين نقائصى ! أنا أضحك الآن من بعض أشياء . آه ، ما أرحم الرب لرفعه نفسى ولإعطائه إياها أجنحة ! شباك

الصيادين كلها لا يسعها أن تخفينى إذ « عبثاً أن تلقى الشباك أمام عيون من لهم أجنحة » (٣٤) .

ساعتى الحاضرة قد تبدو لى فيما بعد مليئة بنقائص أخرى ، لكنى عدت لا أدهش من شيء . لا أتكدر إذا أرانى الضعف بذاته . بل بالعكس ففيه أتمجد . أتوقع كل يوم أن أكشف فى نقائص جديدة . ان هذه الأضواء الملقاة على عدمى لأفيد لى من أضواء ملقاة على الإيمان .

أتذكر « أن الحب يستر جميع المعاصى »(٣٥) . فاستخرج كنوز هذا المنجم الوافر الغنى الذى يفتحه الرب فى إنجيله المقدس . اقلب أعماق كلماته الإلهية فأهتف مع النبى داود : « جريت فى طريق وصاياك منذ أن أفرحت قلبى » (٣٦) . على أن المحبة وحدها فى وسعها أن تفرح قلبى ، يا يسوع منذ يلتهمه هذا اللهب العذب ، أجرى بفرح عظيم فى طريق « وصيتك الجديدة » وأريد أن أجرى اليوم السعيد الذى أنضم فيه إلى موكب العذارى فأتبعك فى الأجواء التى لا حد لها ، متغنية « بنشيدك الجديد » وهو بلا ريب نشيد « المحبة » .

---

(٣٤) سفر الأمثال ، ١ : ١٧ .

(٣٥) سفر الأمثال ، ١ : ١٢ .

(٣٦) مزمور ، ١١٨ : ٣٢ .

الفصـــل العاشـــر

بيانات جديدة عن المحبة ــ الريشة الصغيرة
الفتات المتساقط من مائدة الأطفال ــ السامرى المحسن
عشر دقائق أثمن من ألف سنة ملؤها الأفراح الأرضية
أخوان كاهنان ــ « اجتذبنى »

أمى المكرمة ، لقد أنعم الله على بأن أدرك أسرار المحبة ، أسرارها العميقة . لو كان فى استطاعتى أن أعبر عما أفهم ، لكنت سمعت أنغاماً سماوية ، لكن وا أسفاه ! . ليس فى وسعى الا تمتمة الأطفال ولو لم يكن لى تكأة من كلام يسوع لحدثت نفسى أن استميحك الإذن فى التزام الصمت .

حينما يوصينى المعلم الإلهى أن « أعطى أيا يسألنى وألا أطالب بما لى إذا أخذ منى » (١) ، أظنه لا يعنى خيرات الأرض فحسب ، بل كذلك خيرات السماء . على أن لا هذه لى ولا تلك . لقد زهدت فى الأولى بنذر الفقر وأما الثانية فهى أيضاً معارة لى من الله . فله أن يجردنى منها دون أن تحقق لى الشكوى .

على أن فى الخواطر العميقة الشخصية كما فى لهيب البصيرة والقلب لثروة يتعلق بها المرء تعلقه بملك خاص به لا يحق لأحد أن يمسه . مثلا : إذا أنهيت إلى إحدى أخواتى إرشاداً ما تلقيته فى صلاتى العقلية ، فنوهت به بعد ذلك بوصفه صادراً منها ، يلوح أنها تستولى على ملكى . أو إذا قالت واحدة إلى جارتها فى وقت التنزه نكتة مناسبة للمقام فرددتها هذه بصوت عال دون أن تصرح بمصدرها ، فذلك يبدو كسرقة لحقت بصاحبة النكتة . فهى لا تطالب بها ولكنها شديدة الرغبة فى تلك المطالبة وستغتنم أول فرصة لتعرف الغير فى تنويه ذكى أنه سطى على أفكارها .

(١) لوقا ، ٦ : ٣٠ .

يا أمى ، لو لم أشعر أنا نفسى بهذه العواطف الطبيعية المخزية لما استطعت أن أجيد شرحها لك كما أجيد الآن . كنت أود أن أعلل النفس بأن هذه العواطف لم تخالج غير نفسى ولكنك أمرتنى أن أسمع ما تبوح لى به المبتدئات من التجارب ، فتعلمت كثيراً وأنا أقوم بالمهمة التى وكلتها إلى لا سيما وأنى رأيتنى مضطرة أن أمارس ما أعلم .

أجل ، من نعم الله علىّ ألا أتعلق بمتاع العقل أو القلب أكثر مما أتعلق بمتاع الدنيا . وفى وسعى أن أصرح الآن بذلك . فإذا حدث لى أن أفكر أو أقول شيئاً يعجب أخواتى وجدت من محض البداهة أن يستولين عليه كأنه ملكهن . إذ أن هذه الفكرة ملك الروح القدس لا ملكى ما دام القديس بولس يؤكد : « أننا لا نستطيع بدون هذا الروح ، روح المحبة ، أن نعطى الله اسم الاب »(٢) . فله حينئذ أن يستخدمنى ليعطى نفسى فكرة صالحة ولا يجوز لى أن أظن هذه الفكرة ملكى . على أنى إذ لم أزدر الأفكار الجميلة التى نتحد بها مع الله ، فقد أدركت من زمن بعيد أنه يلزم المرء أن يحذر المغالاة فى الاعتماد عليها ، إذ ليس اسمى الهام بشىء دون العمل . صحيح أن نفوسا أخرى قد تنال منها فائدة كبيرة إذ أظهرت للرب شكراً متواضعاً على أنه يسمح لها أن تشترك فى وليمة واحدة ممن يختصهم بعطفه . ولكن إذا استطاب هذا الأخير ثروته فصلى صلاة الفريسى أصبح شبيهاً بأمرىء يتضور جوعا أمام مائدة حوت لذيذ الطعام بينما يتناول مدعووه غذاء وافرا وقد يلقون نظرة الحسد إلى صاحب هذه الكنوز العديدة .

آه ، كم صحيح أن الله وحده يعرف أعماق النفوس ! . ما أقصر فكر البشر ! ، حينما يرون نفساً تأتى لها من النور أكثر مما تأتى لهم ، يستنتجون من ذلك أن المعلم الالهى يحبهم أقل مما يحبها . ومن متى لم يعد يحق له أن يستخدم إحدى الخلائق ليهىء لأولاده ما يلزمهم من القوت ؟ كان هذا الحق لا يزال للرب فى عهد فرعون ، إذ جاء فى الكتاب المقدس أنه قال لهذا الملك : « لقد رفعتك

---

(٢) إلى أهل رومية ، ٨ : ١٥ .

خصيصاً لأظهر فيك قدرتى ولكى يعلن اسمى فى الأرض قاطبة » (٣) . وتعاقبت الأجيال منذ لفظ الله تعالى هذه الكلمات على أن تصرفه لم يتبدل . فقد اختار دائما بين الشعوب الآلات ليعمل عمله فى النفوس .

لو كان فى وسع النسيج الذى يصور عليه المصور أن يفكر و يتكلم ، فلا ريب أنه لا يشكو من أن الريشة لا تبرح تطوف به وتنقحه . كذلك لا يحسد هذه الآلة لعلمه أنه مدين بما يكتسبه من الجمال لا إلى الريشة ، بل إلى المصور الذى يديرها والريشة بدورها لا تستطيع أن تفتخر بالآية التى صنعت بواسطتها إذ لا تجهل أن أرباب الفن لا يعوقهم أمر وأنهم يستهينون بالمشكلات وقد يحلو لهم أن يستخدموا أضعف الآلات وأنقصها .

أمى المكرمة ، أنا ريشة صغيرة قد اختارها يسوع ليرسم صورته على النفوس التى وكلت أمرها إلى . للمصور ريش عديدة ولا بد له من اثنين على الأقل . الأولى وهى الأفيد تضع الألوان العامة وتجوب النسيج كله فى وقت قصير . أما الأخرى فهى الأصغر منها وتستخدم للتفاصيل . أمى ، أنت التى تمثلين فى نظرى الريشة الثمينة التى يمسكها يسوع بحب عندما يريد أن يعمل عملا كبيرا فى نفوس بناتك وأنا الريشة الصغيرة جداً التى يتنازل فيستخدمها فيما بعد لأقل التفاصيل شأناً .

أول مرة تناول فيها يسوع ريشته الصغيرة كانت حوالى ٨ ديسمبر سنة ١٨٩٢ وأنى سأتذكر دائماً هذا الزمن بوصفه عهداً من عهود النعم .

لما دخلت الكرمل وجدت فى قسم التلميذات رفيقة أسن منى بثمانى سنوات وبالرغم مما بيننا من فرق السن ، قامت بيننا صداقة عظيمة حقة . فرغبة فى تمهيد السبيل لهذه المودة التى كانت فيما يلوح جديرة بأن تثمر الفضيلة ، أبيح لنا أن نتجاذب أحاديث روحية قصيرة . كانت رفيقتى العزيزة تروقنى بطهارة قلبها

---

(٣) سفر الخروج ، ٩ : ١٦ .

وخلقها المنطوى على حب المناجاة والمصارحة ولكن من جهة أخرى كنت أعجب إذ أرى كم تختلف مودتها لك ، يا أمى ، عن مودتى أنا . هذا وأشياء كثيرة فى سلوكها كانت تلوح إلى موجبة للأسف ولكن الله الرحيم أفهمنى من ذلك العهد أن هناك نفوساً لا تسأم رحمته انتظارها ، نفوسنا لا يهبها نوره الا تدريجا . لذلك كنت أحذر كثيراً أن أعمد إلى تقدم ساعته .

كنت أتامل يوما فى هذا الاذن الذى منحناه لنتحدث معا بغية : « أن نزداد حرارة فى محبة عريسنا » ، كما جاء فى قوانينا المقدسة . ففكرت فى حزن أن محادثاتنا لم تدرك الغاية المنشودة ، فرأيت بجلاء أنه لم يعد يلزمنى أن أخشى التكلم ، والا وجب على أن أكف عن محادثات هى أشبه بالتى تجرى بين صديقات فى العالم .

فناشدت الرب أن يضع على شفتى كلمات رقيقة متصنعة أو بالأحرى أن يتكلم هو عنى . فأجاب صلاتى : « لأنه ينير الذين يديرون اليه طرفهم (٤) ، وقد أشرق النور فى الظلام لمن كان قلبهم سليم الطوية » (٥) . الشطر الأول أطبقه على نفسى والشطر الثانى على رفيقتى . فكان قلبها سليم الطوية .

ففى الساعة المعينة لمقابلتنا رأت أختى المسكينة الصغيرة منذ البدء أننى ما عدت كما كنت ، فجلست بجنبى ووجهها يحمر فضممتها حينئذ إلى قلبى قائلة بحنان كل ما كنت أعتقد فيها . فبينت لها فيم تقوم المحبة الحقة وأثبت لها أنها إذ تحب أمها الرئيسة محبة طبيعية تحب نفسها بالذات وصارحتها ما اضطررت إلى بذله من التضحية فى هذا الشأن أول عهدى بحياة الترهب . وما لبثت أن امتزجت دموعها بدموعى فأقرت بخطأها فى تواضع عظيم واعترفت بأن كلامى صحيح ووعدتنى أن تبدأ حياة جديدة طالبة إلى أن أنبهها دائما إلى هفواتها ، كأنها تطلب منى اسداءها جميلا ، فمن ذلك الحين غدت محبتنا روحية محضة وتحققت فينا كلمة الروح القدس : « أن الأخ الذى يؤيده أخوه لأشبه بمدينة محصنة » (٦) .

(٤) مزمور، ٣٣ : ٦ . (٥) مزمور، ١١١ : ٤ . (٦) سفر الأمثال، ١٨ : ١٩ .

تعلمين حق العلم ، يا أمى ، أنه لم يكن غرضى أن أحول عنك رفيقتى وانما أردت أن أقول لها أن المحبة الحقة تتغذى من التضحية وأنه كلما امتنعت النفس عن المسرات الطبيعية ازدادت محبتها قوة وتجرداً . أتذكر أنى لما كنت تلميذة ، كانت التجربة التى تغرينى إلى إرضاء نفسى والى التنعم ببعض قطرات من الفرح قوية إلى حد أنى كنت أضطر أن أمر خطفاً أمام حجرتك وأن أتمسك بحاجز السلم لكيلا أعود أدراجى . كان يجول بخاطرى كثير من طلبات الاستئذان ، كثير من الحجج بغية أن أقر طبيعتى على طلبها وأن أرضيها . ما أسعدنى الآن إذ حرمت نفسى ما حرمتها منذ أول عهدى بحياة الترهب ! . أنا أتنعم من الآن بالجزاء المعد لمن يجاهدون فى شجاعة . صرت لا أشعر بحاجتى إلى منع نفسى تعزيات القلب . لأن قلبى تثبت فى الله .. لقد كبر شيئاً فشيئا لأنه أحب الله وحده . كبر إلى حد أنه يحمل لمن يعزهم محبة أعظم بما لا يحتمل القياس مما لو انكمش فى محبة مبنية على الأنانية عديمة الفائدة .

حدثتك ، يا أمى الحبيبة ، عن أول عمل تفضل يسوع وتفضلت أنت فأتممناه بالريشة الصغيرة ، ولكنه لم يكن الا تمهيداً للصورة التى وكلت أمرها إلى تلك الريشة ، صورة تنم عن عبقرية مبدعها .

وحالما دخلت هياكل النفوس ، رأيت من أول نظرة أن المهمة لأعظم من أن تحتملها قواى . فسرعان ما وضعتنى بين ذراعى الله الرحيم فتمثلت بالأطفال الصغار الذين يتولاهم الخوف فيوارون رؤوسهم الشقراء على كتف والدهم . فقلت : « ربى ، ترى أننى أصغر من أن أغذى أولادك ، فإذا أردت أن تعطيهم بواسطتى ما يوافق كلا منهم فاملأ يدى الصغيرة وأنا بدون أن أتحول عن ذراعيك ، بل بدون أن أدير الرأس ، أوزع كنوزك لمن تأتى طالبة منى قوتها . وحينما تستعذبه أعلم أنها مدينة به لا لى ، بل لك . وبالعكس إذا شكت وألفت مرا ما أقدمه لها ، فلن يكدر صفائى فأحاول أن أقنعها أن هذا القوت آت من عندك وأحذر كل الحذر أن أطلب لها قوتاً آخر » .

1873
1897
Ste THÉRÈSE de L'ENFANT JÉS
ET DE LA SAINTE FACE
JE VEUX
PASSER
MON CIEL
A
FAIRE DU
BIEN
SUR LA
TERRE

« أنى لا أندم على أنى سلمت نفسى للحب ! »

« القديسة تريزا »

لما أدركت هكذا أنه يستحيل على أن أعمل شيئاً بنفسى ، بدا لى أن مهمتى غدت بسيطة ، فما طلبت فى نفسى الا أن أزداد اتحاداً من الله عالمة أنى سأمنح الباقى زيادة على ما تقدم . و بالفعل لم يخب رجائى أبداً . كانت يدى مليئة كلما لزمها ذلك لتغذى نفوس أخوتى . أعترف لك ، يا أمى ، أنه لو تصرفت تصرفاً آخر ، لو توكلت على قواى أنا . لكنت أتيتك بلا ابطاء ملقية سلاحى .

عن بعد يلوح للمرء أنه من السهل اسداء الخير للنفوس وحملها على محبة الله وتكييفها حسب ارادته وأفكاره . غير أنه عن قرب يشعر المرء على العكس بأن اسداء الخير مستحيل دون معونة الله بقدر ما يستحيل اعادة الشمس ليلا إلى النصف الذى نسكنه من الكرة الأرضية . يشعر أنه يلزمه على الإطلاق نسيان ميوله وتصوراته الشخصية وإرشاد النفوس ، لا على منهجه الذاتى ، لا عن سبيله هو ، بل عن السبيل الخاص الذى يعينه لها يسوع وما يشق على أكثر من كل شىء عداه أن ألاحظ الهفوات وأصغر النقائص بأشهر عليها حربا عوانا .

أكاد أقول من سوء حظى ولكن كلا ! يكون ذلك جبنا منى ، فأقول إذن : من حسن حظ اخواتى أننى منذ حللت بين ذراعى يسوع أشبه بالحارس يترقب العدو من أعلى برج من بروج الحصن . لا يفوت بصرى شىء وكثيراً ما أدهش إذ أرى الأمور بمثل هذا الجلاء وأجد أن النبى يونان معذوراً جدا لفراره من أمام وجه الرب كيلا يتنبأ بدمار نينوى . أوثر أن يوجه إلى ألف تأنيب على أن أوجه تأنيباً واحداً . ولكن أشعر أنه يلزمنى جداً أن تكون لى هذه المهمة باعثة على الألم ، إذ حينما يعمل المرء بدافع الطبيعة يستحيل على النفس المذنبة أن تفهم أغلاطها ، فتقول فى نفسها بكل بساطة : أن الأخت المكلفة ارشادى لمستاءة فيقع استياؤها علىّ مع أنى كلى نوايا حسنة .

أمى ! أمرى فى هذا الشأن أمرى فى سائر الشؤون . يجب أن ألقى فى كل شىء بذل النفس والتضحية . أشعر مثلا أن من الرسائل مالا يثمر أى ثمر ما دمت لا أكتبه فى شىء من النفور ولمجرد الرغبة فى الطاعة . وحينما أتحدث مع راهبة تلميذة

أحرص على اماتة نفسى فأحذر أن أوجه اليها أسئلة قد ترضى فى عاطفة الفضول واذا رأيتها تبدأ موضوعاً يثير اهتمامى فتنتقل إلى آخر يضجرنى وذلك دون أن تستوفى الأول . أحذر جد الحذر من تذكيرها بهذا الانقطاع إذ يبدو لى أن ه لا يسمع المرء أن يعمل أى خير وهو يطلب ارضاء نفسه .

أعلم ، يا أمى ، أن نعاجك تعتقدنى صارمة . فإذا قرأت هذه السطور ، قالت أنه لا يشق على أقل مشقة ، أن أعدو وراءها وأن أربها صوفها الجميل متلوثاً أو أن أحمل اليها بعضاً من خيوط صوفها التى تعلقت على عوسج الطر يق . لهذه النعاج الصغيرة أن تقول ما تشاء . فى قرارة نفوسها تشعر أنى أحبها حباً عظيماً . كلا ! هى لا تخشى أن أتمثل « بالأجير الذى يرى الذئب مقبلا فيترك الخرفان ويهرب » (٧) . أنا مستعدة أن « أعطى حياتى فداءها » (٨) . ومودتى لها من الصفاء بحيث لا أرغب حتى أن تعرفها . لم أحاول أبداً بمعونة الله أن أجتذب إلى قلوبها . أدركت أن مهمتى إرشادها إلى الله واليك ، يا أمى ، فأنت فى هذه الدنيا الإله الذى يقع تحت بصرها و يلزمها أن تحبه وتحترمه .

قلت أنى تعلمت كثيراً بتعليمى الغير . رأيت أولا أن جميع النفوس تعانى نفس القتال أو تكاد . وأن بينها من وجهة أخرى فرقا عظيما وهذا الفرق يحتم عدم استمالتها بطر يقة واحدة . مع بعضها أشعر أنه يلزمنى أن أجعل نفسى صغيرة وألا أخشى انذلالى حين أصارح بأنواع قتالى وهزائمى . حينئذ تبوح هى فى سهولة بما تأخذ على ذاتها ، فيسرها أن أفهمها عن خبرة . ومع البعض الآخر لابد للنجاح من الحزم وعدم العدول عما أتخذ من قرار . . التنزل يعدو حينئذ ضعفاً .

أنعم الرب علىّ بألا أخاف الحرب أقل خوف . يجب على أن أقوم بواجبى مهما كلفنى ذلك . لقد سمعت مراراً ما يأتى : « إذا أردت أن تنالى منى شيئاً ، فلا تأخذينى بالقوة بل باللين والا فلن تنالى شيئاً » ، ولكننى أعلم أن لا أحد يحسن الحكم فى قضيته الخاصة وأن الولد الذى يجرى له الجراح عملية أليمة يولول لا

(٧) يوحنا ، ١٠ : ١٢ .

(٨) يوحنا ، ١٠ : ١٤ .

محالة صائحا أن الدواء شر من الداء . ولكنه إذا شفى بعد أيام ، فهو سعيد كل السعادة أن يستطيع الجرى واللعب . وكذلك الأمر فيما يتعلق بالنفوس . فلا تلبث أن تعترف بأن شيئاً من المرارة خير من السكر ولا تخشى أن تعترف بذلك .

وأنه لمشهد يأخذ بمجامع القلوب أن نتبين ما يحدث أحياناً من التغير بين اليوم والغد . تأتى إلى الواحدة فتقول : « كنت أمس على حق إذ عمدت إلى الشدة فى البدء استنكرت ذلك ولكنى تذكرت كل شىء فيما بعد فرأيت أنك كنت عادلة جداً . ظننت أنه انقطع ما بيننا وأنا خارجة من حجرتك فقلت فى نفسى : أذهب إلى أمنا فأقول لها أننى لن أصطحب أختى تريزا ليسوع الطفل ، ولكنى شعرت أنه ما أوحى إلى ذلك الا الشيطان ، هذا و بدا لى أنك تصلين لأجلى . حينئذ لازمت السكينة و بدأ النور يسطع . والآن أنيرينى تماماً . ما أتيت الا لهذه الغاية » . فأبادر إلى تقديم قوت أقل مرارة وكلى فرح لانقيادى إلى ميل قلبى . نعم ، ولكن .. ألحظ أنه يجب ألا أعالى فى التقدم .. كلمة واحدة قد تهدم البنيان الجميل الذى شيد فى الدموع . فإذا كان من سوء حظى أن أقول أدنى شىء ، قد يستدل منه التخفيف من حقائق اليوم السابق ، رأيت أختى الصغيرة تحاول التشبث بالأغصان .. حينئذ ألجأ إلى الصلاة وألقى بنظرة داخلية إلى العذراء مريم فينتصر يسوع دائماً ، آه ، انما سلاحى الذى يقهر ، هو قوة الصلاة والتضحية . فى وسعها أن تؤثر فى القلوب أكثر جداً من الكلام . أعلم ذلك عن خبرة .

قبل سنتين أثناء الصوم الكبير جاءتنى تلميذة تقول لى متهللة : « لو تعلمين ماذا رأيت فى المنام هذه الليلة ! كنت بجانب شقيقتى وهى تحب العالم كثيراً .. وأردت أن أحولها عن أباطيله ، فشرحت لها الكلمات الآتية الواردة فى نشيدك « حياة الحب » :

« هبنى أن أحبك يا يسوع !
ما أربح هذه الخسارة .
كل عطورى لك بغير مقابل » .

شعرت جد الشعور أن كلامى يتغلغل حتى قرارة نفسها وكنت أطفح بشرا . أظن فى هذا الموضوع أنه ربما يريد الله أن أعطيه تلك النفس . ما رأيك لو كتبت اليها فى عيد الفصح لأقص عليها رؤيتى وأقول لها أن يسوع يريدها عروساً له ؟ » فاكتفيت بأن أجيبها أنه يمكنها طلب الإذن فى ذلك .

لم يكن الصيام متماثلا إلى آخره ، فدهشت ، يا أمى ، لطلب متقدم هذا التقدم لأوانه . أجبت أن على الكرمليات أن ينقذن النفوس بالصلاة تفضيلا على الرسائل وكان الله يلهمك الهاماً ظاهراً فى اجابتك .

فلما علمت هذا القرار قلت لأختى العزيزة الصغيرة : « علينا بالعمل فلنصل كثيراً . ما أشد فرحنا إذ حل آخر الصوم فكانت صلاتنا مستجابة ! » يا لرحمة الرب ، رحمة لا حد لها ! « فى آخر الصوم » كانت نفس أخرى تتكرس ليسوع ! كان ذلك أعجوبة حقة من أعاجيب النعمة ، أعجوبة تمت بتقوى إحدى التلميذات الحقيرات .

إذن ما أعظم قوة الصلاة : فكأنها ملكة لها دائماً حق الدخول على ملك وفى وسعها أن تنال كل ما تطلب . لكى تستجاب صلاة المرء لا يلزمه أن يقرأ فى كتاب عبارة جميلة وضعت لظروف تماثل ظروفه . لو كان الأمر كذلك فما أحرانى أن يرثى لحالى !

ما خلى الفرض الإلهى ، وأنا سعيدة أن أتلوه كل يوم ولو أنى لا أستحق ذلك ، ليست لى الشجاعة الكافية لأقصر نفسى عن البحث فى الكتب عن صلوات جميلة . هذا يسبب لى صداعاً إذ ما أكثرها ، فضلا عن أن كل واحدة منها أجمل من سائرها . لا أستطيع إذن أن أصليها كلها وبما أنى لا أعلم أيها أختار ، فأنى أفعل مثل الأطفال الذين لا يعرفون القراءة فأقول لله الرحيم بكل بساطة ما أريد أن أقول له وهو يفهمنى دائماً .

إنما الصلاة فى نظرى نزوة من القلب . هى مجرد نظرة إلى السماء هى صرخة من العرفان والحب فى وسط التجربة كما فى وسط السعادة . وفى النهاية هى شىء

سام فائق الطبيعة يشرح النفس و يصل ما بينها و بين الله . فى بعض الأحيان حينما أجد روحى فى قحط عظيم بحيث لا أستطيع أن أستخرج منها فكرة صالحة واحدة ، أتلو بكل بطء مرة « الصلاة الربية » أو « السلام الملائكى » . حسبى بهاتين الصلاتين فتنة لى ، أنهما تغذيان نفسى وتكفيانها .

ولكن أين كنت من موضوع حديثى ؟ لقد تهت مرة أخرى فى متية التأملات .. اغفرى لى ، يا أمى ، قلة دقتى البالغة هذا الحد . هذه الحكاية كتلة خيوط مشتبكة . أواه ، ليس فى وسعى أن أصنع أحسن من ذلك ! أدون أفكارى كما تحضرنى . أصيد ما يعرض لى صيده فى جدولى الصغير ، جدول قلبى ، فأقدم لك أسماكى الصغيرة على الحالة التى تترك نفسها تصاد فيها .

وصلت اذن الى التلميذات اللاتى كثيراً ما يقلن لى : « حقا تجدين لكل شىء جواباً . كنت أظن هذه المرة أنى أحيرك . أين تتلقين ما تعلميننا ؟ » ومنهن من يكن من السذاجة بحيث يحسبننى أقرأ فى نفوسهن ، لأنه حدث لى أن أدعوهن إلى الحذر مع أنبائى لهن بما يفكرن فيه دون أن يوحى إلى ذلك .

عزمت أقدم التلميذات أن تخفى عنى شجناً عظيماً كان يؤلمها كثيراً . كانت قد أمضت ليلتها فى هلع دون أن تر يد ذرف دمعة واحدة ، خشية أن يكشف سرها عيناها الحمراوان فقابلتنى بأظرف وجه وكلمتنى كالمعتاد ، بل بلهجة ألطف لو كان ذلك مستطاعاً . فقلت لها حينئذ بكل بساطة : « بك حزن أنا على يقين منه » . فما لبثت أن نظرت إلى فى دهشة لا توصف . كان ذهولها عظيماً بحيث تناولنى أنا نفسى ، فبعث فى لا أعلم أى احساس فائق الطبيعة . شعرت بأن الله الرحيم هنا ، قر يب منا كل القرب . كنت قد لفظت دون أعلم ــ إذ لم أوت ميزة القراءة فى القلوب ــ كلمة ألهمت لى حقاً ، فاستطعت بعد ذلك أن أعزى هذه النفس كل التعز ية .

والآن ، يا أمى الحبيبة ، أفضى اليك بأكبر فائدة روحية أصبتها من ألفتى مع التلميذات . تعلمين أن كل شىء مباح لهن . يجب أن يؤذن لهن فى المصارحة

بكل ما يفكرن فيه خيراً أو شراً على الإطلاق ومما يسهل عليهن ذلك معى أنه لا يلزمهن احترامى كما يحترمن احدى المعلمات .

لا أستطيع القول أن يسوع يسيرنى عن طريق المذلات الخارجية . كلا ، فهو يكتفى بأن يذلنى فى قرارة نفسى . أمام الخلائق أنجح فى كل شىء فأنهج السبيل الخطر، سبيل التكريم لو جاز هذا التعبير فى أمور (الرهبنية) ، وأنى لأفهم تدبير الله ورؤسائى فى هذا الصدد ، وبالفعل فلو نظرت إلى الرهبانية نظرها إلى راهبة عديمة الكفاية والذكاء والتقدير، لاستحال عليك ، يا أمى ، أن تجعلينى أساعدك . لذلك أسدل المعلم الإلهى ستاراً على جميع نقائصى الداخلية والخارجية . هذا الستار يجلب لى من قبل التلميذات بعض التهانى التى لا يداخلها التملق . أعلم أنهن يعتقدن ما يقلن . ولكن ذلك حقاً لا يدفعنى إلى الغرور، لأنى لا أبرح أن أتذكر نقائصى . على أنه مع ذلك يتولانى شوق عظيم جداً أن أسمع غير المديح ، فإن نفسى لتمل غذاء محلى أيما تحليه . حينئذ يأمر يسوع فيقدم لها كل شىء من « الصلطة » الجيدة المشبعة خلاً وتوابل ، لا ينقصها إلا الزيت وهذا النقص يزيدها لذة .

تلك « الصلطة » تقدمها لى المبتدئات فى الوقت الذى انتظرها فيه أقل الانتظار. يزيح الله الرحيم الستار الذى يحجب عنهن نقائصى ، فتتجلى الحقيقة لأخواتى العزيزات ، فلا يجدننى موافقة كل الموافقة لأذواقهن . يقلن لى ببساطة تثير إعجابى ما أسبب لهن من الكفاح وما يستقبحنه فى . وقصارى القول ، لا يكلفن نفوسهن مؤونة الهوادة أكثر مما لو كان الأمر يتعلق بغيرى ، إذ يعملن أنهن يولينني سروراً عظيما حين يسلكن هذا السلوك . حقاً ، ذلك أعظم من سرور، ذلك وليمة ، ما أشهى طعامها ، وليمة تغدق على الفرح . كيف يمكن شيئاً تنفر منه الطبيعة هذا النفور أن يولينى مثل هذه السعادة ؟ ما كنت لأصدق ذلك لو لم أختبره .

كنت ذات يوم مشتاقة إلى الانذلال . فاتفق أن تلميذة حديثة أخذت على نفسها أن ترضينى ، فأبلت فى ذلك بلاء حسناً إلى حد أنى تذكرت شمعيا لاعنا

داود فرددت فى نفسى قول هذا الملك الصالح : « هو الرب الذى أمره أن يقول لى كل هذه الأشياء » (٩) . إذن يعتنى بى الرب الرحيم . لا يمكنه دائما أن يقدم لى خبز المذلة الخارجية ، ذلك الخبز المغذى . ولكن يسمح لى من وقت إلى آخر أن أتغذى من « الفتات المتساقط من مائدة الأولاد » (١٠) . آه ما أعظم رحمته !

أمى الحبيبة ، ما دمت أحاول أن أتغنى معك ، ونحن لا نزال فى هذا العالم ، بتلك الرحمة التى لا حد لها ، يجب على أيضاً أن أطلعك على فائدة حقة أصبتها ، مثل فوائد عديدة أخرى ، من مهمتى الصغيرة . فيما مضى . لما كنت أرى إحدى الأخوات تسلك سلوكاً استنكره و يبدو لى مخالفاً للقانون ، كنت أقول فى نفسى : « آه ، لو استطعت أن أحذرها وأريها أغلاطها . كم ذلك ينفعنى ! » لكن لما مارست هذه المهمة ، تبدل شعورى . فحينما يحدث لى أن أرى شيئاً معوجاً ، أتنفس الصعداء قائلة فى نفسى : « يا لحسن الحظ ! ليست هذه تلميذة وليس على أن أردها إلى الصواب » . وسرعان ما أحاول بعد ذلك أن أعذر المذنبة وأن أعزى اليها النوايا الحسنة التى هى بلا شك نواياها .

أمى المحترمة ، كذلك ما تبذلينه لى من العناية فى مرضى يعلمنى كثيراً فيم تقوم المحبة . أنك لا تستغلين أى دواء ، فإذا لم تجديه ناجعا جربت سواه بلا كلل . وحينما أذهب إلى النزهة فما أشد أعتناءك بأن تجلسنى فى مأمن من أقل تيارات الهواء . أمى ، أشعر أنه يلزمنى أن أشفق على اخواتى من عللها الروحية أشفاقك على علتى الجسدية .

لاحظت أن أقدس الراهبات أحبهن إلى الغير . تطلب صحبتهن ونسديهن من الخدمات حتى لا يطلبن . وقصارى القول ، فإن هذه النفوس التى تستطيع أن تتحمل من الغير عدم الالتفاف واللطف ترى نفسها محاطة بمظاهر المحبة العامة . ففى وسعنا أن نصرف اليها كلمة أبينا القديس يوحنا للصليب هذه : « قد أعطيت أنواع الخير كلها حينما عدت لا أطلبها عن أنانية » . وعلى عكس ذلك فإن النفوس

(٩) سفر الملوك الثانى ، ١٦ : ١٠ .
(١٠) مرقس ، ٧ : ٢٨ .

الناقصة مخزولة . نلزم فى موقفنا نحوها حدود التأديب الرهبانى ولعلنا نخشى أن نقول لها كلمة تسيئها فنتجنب صحبتها . وحين أقول النفوس الناقصة لا أعنى النقائص الروحية فحسب ، إذ أقدس النفوس لا تصير كاملة الا فى السماء . أعنى كذلك خطل الرأى وقلة التربية وما يطبع بعض الأمزجة من سرعة الاستياء . كل ذلك مما لا يجعل حياة معاشريها رضية . أعلم أن هذه العلل مزمنة ، فلا أمل فى شفائها ولكنى أعلم أيضاً أن أمى لا تكف تعالجنى وتعمد إلى جميع الوسائل لتخفيف علتى ، إذا لبثت مريضة سنين طويلة .

اليك ما أستنتج من ذلك . يلزمنى أن أطلب صحبة الأخوات التى لا يعجبن طبعى ، فأودى نحوهن عمل السامرى المحسن . كثيراً ما تكفى كلمة أو ابتسامة رقيقة لتفرح نفسا حزينة كليمة . على أنى لا أريد أن أحب الغير رجاء تعزيته فحسب . أعلم أنى إذا قصدت إلى هذه الغاية ، فسرعان ما تفتر همتى ، إذ رب كلمة تقال فى أعظم ما يكون من حسن النية تفهم على عكس معناها بالتمام . فكيلا أضيع وقتى وجهدى أحاول أن أعمل لمجرد أن أشرح قلب الرب فأتبع نصيحة الانجيل هذه :

« إذا صنعت غداء أو عشاء ، فلا تدع احباءك ولا أخوانك ولا أقاربك ولا الجيران الأغنياء ، لئلا يدعوك هم أيضاً فتكون لك منهم المكافأة . ولكن إذا صنعت مأدبة فادع المساكين والجدع والعرج والعميان ، فتكون مباركاً إذ ليس لهم ما يكافؤنك به . وأبوك الذى يرى فى الخفية هو يجازيك » (١١) .

أى مأدبة فى وسعى أن اقيمها لأخواتى غير مأدبة روحية قوامها المحبة للقريب ، محبة رقيقة فرحة . كلا ، لا أعرف مأدبة أخرى . أريد الاقتداء بالقديس بولس فمن لقيهم فى فرح كان يشاركهم فرحهم . صحيح أنه كان يبكى مع المحزونين فيجب أن تظهر الدموع أحياناً فى المأدبة التى أريد اقامتها ، لكنى

---

(١١) لوقا ، ١٤ : ١٢ ــ ١٤ / متى ، ٦ : ٤ .

سأحاول دائماً أن تستحيل الدموع ابتساماً ما دام الرب « يحب من يعطون فى فرح » (١٢) . أتذكر عملا من أعمال المحبة الهمنى الرب اياه لما كنت لا أزال مبتدئة . وعن هذا العمل الصغير فى الظاهر كافأنى الآب السماوى الذى « يرى الخفايا » . كافأنى دون أن ينتظر الحياة الباقية .

كان ذلك قبل أن تسير أختى سان بيير عاجزة تماماً . كان يلزم احدانا أن تكلف نفسها قطع صلاتها العقلية فى الساعة السادسة الا عشر دقائق لتقودها إلى قاعة الأكل . وكنت أستصعب جداً عرض نفسى لهذا الأمر ، إذ كنت أعلم ما يقرن ارضاء هذه العاجزة المسكينة من الصعوبة ، بل من الاستحالة . على أنى ما كنت أريد أن يفوتنى مثل هذه الفرصة الجميلة ، إذ كنت أتذكر الكلمات الالهية هذه : « انكم كلما فعلتم ذلك بأحد اخوانى هؤلاء الصغار فبى فعلتموه » (١٣) .

إذن عرضت نفسى بكل تواضع لأقودها ولم أصل بدون مشقة إلى حملها على قبول خدماتى وفى النهاية أقبلت على هذا العمل باجتهاد كان بحيث نجحت تماماً . كل مساء حينما كنت أراها تحرك اناء الرمل المجهز لها ، كنت أعلم أن ذلك يعنى : فلنذهب !

عندئذ أهيب بكل ما أوتيت من عزيمة . فيبدأ بعد ذلك عمل كامل المراسيم . كان يلزم تحريك المقعد وحمله على صورة معينة ولا سيما اجتناب العجلة فتأتى النزهة بعدئذ . كان المطلوب اتباع هذه الأخت الصالحة مع اسنادها من وسطها . كنت أفعل ذلك بأقصى ما يمكننى من التأنى ولكن إذا زلت قدمها لسوء الحظ ، تخيلت أننى لا أحسن اسنادها وأنها على وشك الوقوع فتصرخ : « آه ، يا ربى ! أنك تعجلين كثيراً . ها أنى على وشك التحطم ! » واذا حاولت اذن أن أتمهل فى قيادتها صاحت : « ألا تعجبنى . لا أشعر بيدك . أنت تخذلينني . ها أنا على وشك الوقوع ... آه ، لقد كنت على حق إذ قلت أنك أحدث سنا من قيادتى ! » . وفى

---

(١٢) كورنتس الثانية ، ٩ : ٧ . (١٣) متى ، ٢٥ : ٤٠ .

نهاية الأمر كنا نصل إلى قاعة الأكل دون حادث آخر وهناك تقوم صعوبات أخرى . كان على أن أجلس هذه العاجزة المسكينة فى محلها وأن أتصرف فى ذلك بلباقة لكيلا أؤذيها . ثم أرفع كميها كذلك على صورة معينة و بعدئذ يمكننى الانصراف . على أنى ما لبثت أن لاحظت أنها تقطع خبزها فى عناء كبير ومن هذا الحين لم أغادرها قبل اسدائها هذه الخدمة الأخيرة . وبما أنها لم تكن قد رغبت إلى ذلك أبدا ، بقيت متأثرة جداً من التفاتى هذا . فبتلك الوسيلة التى لم أطلبها على الاطلاق ، اكتسبت ثقتها تماما لا سيما وأنى ــ كما بلغنى ذلك فيما بعد ــ كنت ، فى قولها أربها « أجمل ابتساماتى » بعد هذه الخدمات كلها .

أمى ، لقد مضى زمن مديد على هذا العمل المبرور ، غير أن الرب يبقى لى ذكره كأنه أريج أو نسمة سماوية . فى مساء من فصل الشتاء كنت أقوم كعادتى بالمهمة الصعبة المتواضعة التى أنا فى صددها . كان الجو بارداً والليل قد أتى ... فسمعت فجأة عن بعد صوتاً شجياً صوت عدة آلات موسيقية ، فتخيلت قاعة استقبال فاخرة الأثاث ، تثيرها أضواء ساطعة وتتألق بتحفها المذهبة . فى تلك القاعة ، كانت فتيات فى زى متأنق يستقبلن الزائرين و يبذلن لهم أنواع التلطف المعتاد فى العالم . ثم انتقل بصرى إلى العاجزة المسكينة التى كنت أسندها . و بدل النغم الشجى ، كنت أسمع من آن إلى آخر أنينها الشاكى . بدل التحف المذهبة ، كنت أرى قرميد ديرنا المطبوع برسم القشف والذى ينيره بالجهد ضوء ضئيل .

كان لهذا التباين تأثير عذب فى نفسى . أفاض الله عليها أشعة الحقيقة التى تفوق ما تنطوى عليه مسرات العالم من بهجة مظلمة ، إلى حد أنى ما كنت أرضى أن أستبدل العشر دقائق التى أخصصها لعمل المحبة هذا بمائة عام من هذه الأعياد العالمية .

لعمرى ، إذا استطعنا من الآن فى الألم ، فى وسط القتال ، أن نذوق مثل هذه الملذات ، إذ نفكر أن الله قد أخرجنا من العالم ، فماذا يكون هناؤنا حين نتبين ، فى وسط مجد أبدى وفى راحة لا حد لها ، ما أسبغ الله علينا من نعمة لا نظير لها ، إذ اختارنا لنسكن بيته ، رواق السماوات حقاً !

لم أمارس أعمال المحبة دائماً بمثل هذا الفرح الطافح . على أن يسوع أراد ، فى بدء حياتى الرهبانية ، أن يجعلنى أحس كم يحلو لنا أن نراه فى نفوس عرائسه . لذلك حين كنت أقود الأخت سان بيير ، كنت أفعل ذلك فى حب بلغ منى بحيث كان يستحيل على أن أتقن عملى أكثر مما لو قدت السيد الرب نفسه .

لم تكن ممارستى لأعمال المحبة عذبة على دائماً . قلت لك ذلك منذ هنيهة ، يا أمى العزيزة ، وها أنى أورد ، لكى أثبت لك ذلك ، بعض معاركى الكثيرة .

لبثت طويلا أثناء القيام بالصلاة العقلية غير بعيدة عن أخت ، ما كانت تكف عن تحريك سبحتها أو لا أعرف أى شىء آخر . ولعله لم يسمعها الا أنا ، إذ حاسة السمع عندى دقيقة جداً . لكنى لا أستطيع أن أبين ما كنت أعانيه من تعب . كان بودى أى أدير رأسى لأنظر إلى المذنبة فأوقف ما تحدثه من الحُس . غير أنى كنت أشعر فى قرارة قلبى أنه خير لى أن أتحمل ذلك فى صبر حبا بالله أولا ، ثم لكى أتجنب مناسبة اساءتها .

كنت اذن الزم السكون ، لكنى فى بعض الأحيان كنت أتصبب عرقاً ، فأضطر ألا أصلى الا صلاة الألم . أخيراً كنت أطلب وسيلة للتألم بسلام وفرح فى قرارة نفسى على الأقل ، حينئذ كنت أجتهد أن أحبّ هذا الحس الضئيل المزعج . فبدل أن أحاول عدم سمعه (كان ذلك محالا) وليت عنايتى إلى الإصغاء اليه جيدا كأنه نغم بديع ، هكذا قامت صلاتى ــ ولم تكن صلاة الطمأنينة ــ فى أن أقدم هذا النغم ليسوع .

مرة أخرى كنت فى المغسل أمام أخت تغسل بعض المناديل ، فترشقنى كل لحظة بماء قذر . كانت أول حركة منى أن أتراجع ماسحة وجهى ، كى أظهر لمن ترشدنى هكذا ، أنها تسدينى جميلا إذا لبثت هادئة ، وما عتمت أن فكرت أنى حمقاء جد الحماقة لرفضى كنوزاً تقدم لى بمثل هذا الكرم .

فحذرت كل الحذر أن أظهر انزعاجى ، بل بالضد بذلت جهدى لأرغب أن أتناول كثيراً من الماء القذر . حتى أنى بعد نصف ساعة استطبت حقا هذا النوع الجديد من أنواع الرش ، ووعدت نفسى أن أعود بقدر ما أستطيع إلى هذا المكان السعيد ، حيث يقدم مجانا مثل هذه الثروة الوفيرة .

ترين ، يا أمى ، أننى نفس صغيرة حقاً لا تستطيع أن تقدم إلى الله الا أشياء صغيرة جداً ، على أنه يحدث لى كثيراً أن أترك هذه التضحيات التى تولى القلب ما توليه من سلام . لكن هذا لا يثبط عزيمتى . أتحمل أن يقل سلامى بعض الشىء وأجتهد أن أكون أشد تيقظاً مرة أخرى .

لعمرى ، كم يسعدنى الرب ! ما أهون خدمته على الأرض وأعذبها . نعم ، أكرر قولى دائماً أنه أعطانى ما ابتغيت أو بالأحرى جعلنى أبتغى ما أراد أن يعطينى . من ذلك أنى قبل زمن يسير من تجربتى الرهيبة ضد الإيمان ، كنت أقول فى نفسى : « حقا ليس لى أحزان خارجية كبيرة ولكى يكون لى أحزان داخلية لابد لى من أن يغير الله سبيلى وما أظنه فاعلا . لكن لا يمكن أن أعيش فى راحة دائمة كما أعيش الآن ، فأى وسيلة يلقى ؟ » لم أنتظر الرد طويلا ، فقد أظهر لى هذا الرد أن من أحبه لا يعدم وسيلة أبداً ، إذ دون أن يغير سبيلى ، أولانى هذه التجربة الكبيرة التى جاءت سريعاً تمزج بكل ما استطعم من حلو مرارة نافعة .

لا يجعلنى يسوع أوجس التجارب وأطلبها حين أريد أن يبتلينى بها فحسب . كنت من زمن بعيد أحمل رغبة تلوح لى محالة التحقيق وهى أن يكون لى أخ كاهن . كنت أقول فى نفسى مراراً أنه لو لم يطر أخوى الصغيران إلى السماء ، لسعدت بأن أراهما يصعدان إلى الهيكل . هذه السعادة كنت أتأسف على حرمانى منها . واذا الله يجمع بروابط الروح بينى وبين اثنين من رسله ، متجاوزاً فى ذلك حد أمانى ، إذ ما كنت أطلب الا أخا كاهناً يذكرنى كل يوم على الهيكل المقدس . أريد ، يا أمى الحبيبة ، أن أقص عليك بالتفصيل كيف حقق المعلم الإلهى تماماً أمانى هذه .

هى أمنا القديسة تر يزا من أرسل إلى أخى الأول فى عام ١٨٩٥ كأنه باقة فى يوم عيدى . كان اليوم يوم غسل وأنا منهمكة فى عمل بعض الأعمال ، فإذا الأم أغنييس ليسوع ، وكانت حينئذ الرئيسة ، تستدعينى على حدة وتقرأ لى خطاباً من تلميذ أكلير يكى حديث السن . قال أنه لا يطلب بالهام من القديسة تر يزا أختا تبذل نفسها بنوع خاص لإنقاذ نفسه والنفوس التى سيعنى بأمرها . وكان يعد أن يتذكر دائما ، حين يمكنه اقامة الذبيحة الإلهية ، تلك التى تغدو أخته . فانتخبت لأصير أخت هذا المرسل المقبل (١٤) .

أمى ، لا أستطيع أن أصف لك سعادتى . رغبتي التى تحققت تماماً بهذه الصورة على غير رجاء ، بعثت فى قلبى فرحاً أسميه صبيانياً ، إذ يلزمني أن أرجع إلى عهد الطفولة لألقى ذكر هذه الأفراح التى هى من الشدة بحيث تضيق النفس عن وسعها . لم أكن أبدأ من عدة سنوات قد تنعمت بهذا النوع من السعادة . شعرت أن نفسى من تلك الناحية جديدة ، كما لو مست بها أوتار موسيقية بقيت إلى ذلك الحين منسية .

أدركت ما كنت ألزم به نفسى ، فدأبت على العمل محاولة أن أضاعف تقواى ، فكتبت من آن إلى آخر بضع رسائل إلى أخى الجديد . إنما بالصلاة والتضحية نستطيع أن نعاون المرسلين ، فلا شك فى ذلك . على أنه حين يطيب ليسوع أن يجمع بين نفسين لمجده ، يسمح أن تتناجيا خواطرهما لتحث الواحدة الأخرى إلى الاستزادة من محبة الله .

أعلم أنه يلزم لهذا رضى الرؤساء رضى صريحاً ، إذ يلوح لى أنه لولا ذلك لكان هذا التراسل الملتمس أعود بالشر منه بالخير ، إن لم يكن للمرسل فعلى الأقل للراهبة الكرملية التى يدفعها دائماً منوال عيشها إلى الخلو بنفسها . فبدل أن يقربها بالله هذا التراسل فهو حرى أن يشغل فكرها على غير جدوى ، ولو أنه تراسل عن بعد . فقد تتصور أنها تأتى العجائب ، وفى الحقيقة تخرج عن كونها تهىء لنفسها ،

(١٤) الآب موريس بيليير من الآباء البيض .

بحجة الغيرة على القريب ، سببا باطلا لتشتيت الفكر .

ها أنى ، يا أمى الحبيبة ، مسترسلة لا فيما هو سبب لتشتيت الفكر فحسب ، بل فى شرح مطول هو أيضاً باطل . لن أوفق أبدا إلى الارعواء عن هذا البيان المسهب الذى ستملك قراءته ما تملك . فأصفحى عنى واسمحى بأن أعود إلى مثله فى الفرصة القادمة .

العام الماضى فى آخر مايو أعطيتنى بدورك أخى الثانى (١٥) . أبديت لك أنه سبق لى فقدمت استحقاق الضعيف لرسول مقبل ، فلا أظن فى إمكانى أن أقدمه ثانية لآخر . فأجبتنى أن الطاعة تضاعف استحقاق ، و بالفعل كنت أعتقد ذلك فى قرارة نفسى . ما دام على غيرة الراهبة الكرملية أن تتناول العالم ، فإنى آمل أن أفيد بنعمة الله حتى أكثر من مرسلين اثنين . أصلى للجميع دون أن أتجاوز الكهنة العاديين ، فإن مهمتهم فى بعض الأحيان من المشقة بحيث تعادل مهمة المرسلين الذين يبشرون الغير مؤمنين . وفى النهاية أر يد أن أكون « بنت الكنيسة » مثل أمنا القديسة تر يزا ، فأصلى لتحقيق نوايا نائب السيد المسيح كلها . هذه هى الغاية العامة من حياتى .

لكن لو عاش أخواى ، لكنت أتحدث اليهما بنوع خاص فى أعمالهما دون أن أهمل مع ذلك ما للكنيسة من مصالح كبرى تتناول العالم . لذلك أبقى متحدة بنوع خاص مع الأخوين الجديدين اللذين أعطانى الله أياهما . كل ما هو ملكى ملك كل منهما . أشعر بأن الله أحن وأكرم من أن يقسمه بينهما ، هو من الغنى بحيث يعطى بلا حساب ما أطلب منه ولو أنى لا أتوه فى سردة طو يلا . أرى منذ أعطيت أخوى وشقيقاتى الصغيرات المبتدئات أنه ، لو أردت أن أفصل احتياجات كل نفس لألقيت النهار أقصر من أن يسمح لى بذلك ، ولخشيت جدا أن أنسى شيئاً خطيراً . النفوس البسيطة لا يلزمها وسائل معقدة . وبما أنى من هذه النفوس ، فإن السيد المسيح نفسه ألهمنى وسيلة صغيرة بسيطة جدا لتأدية واجباتى .

(١٥) الأب رولند من المرسلين الأجانب .

فى ذات يوم ، بعد تناولى القربان المقدس ، أفهمنى كلمة الأناشيد هذه : « أجتذبنى فنعدو إلى حيث تدعونا نفحة عرفك ! » (١٦) يا يسوع ، ليس إذن من الضرورى للمرء أن يقول : « حين تجتذبنى ألا اجتذب النفوس التى أحبها » . تكفى هذه الكلمة وحدها « اجتذبنى » ! نعم . حين تستسلم النفس اليك فتؤسر بما لعرفك من نفحة مثملة ، لا تستطيع أن تعدو اليك وحدها . كل النفوس التى تحبها هى تندفع وراءها . هذه نتيجة طبيعية لانجذابها اليك .

كما أن الغدير يسحب معه إلى أعماق البحار ما يصادفه فى طريقه ، كذلك النفس التى تغوص فى محيط محبتك الذى لا شاطىء له تجذب وراءها ، يا يسوع ، كنوزها كلها .

تعلم ، يارب ، أن هذه الكنوز ليست بالنسبة لى الا النفوس التى طاب لك أن تصلها بنفسى ، هذه الكنوز أنت وكلتها الى ، لذلك أجرأ أن أستعير كلماتك عينها ، كلمات آخر مساء رآك على أرضنا مسافراً .

حبيبى يسوع ، لا أعلم أى يوم ينتهى منفاى ... أكثر من مساء قد يرانى لا أبرح أتغنى بمراحمك وأنا لا أزال فى هذه الدنيا على أنه فى النهاية يأتى آخر مساء لى أيضاً ... حينئذ أود لو أستطيع أن أقول :

« أنا قد مجدتك على الأرض وأتممت العمل الذى أعطيتنى لأعمله ، قد أعلنت اسمك للناس الذين أعطيتهم لى من العالم ، هم كانوا لك وأنت أعطيتهم لى ، والآن قد علموا أن كل ما أعطيته لى هو منك لأن الكلام الذى أعطيته لى قد أعطيته لهم وهم قبلوا وعلموا حقاً أنى منك خرجت وآمنوا أنك أرسلتنى . أنا أسأل من أجل الذين أعطيتهم لى لأنهم لك . لست أنا بعد فى العالم وهؤلاء هم فى العالم وأنا آتى اليك فاحفظهم باسمك .

---

(١٦) نشيد ، ١ : ٣ .

« أما الآن فأنى آتى إليك وأنا أتكلم بهذا فى العالم ليكون لهم فرحى كاملاً فيهم .. لست أسأل أن ترفعهم من العالم ، بل أن تحفظهم من الشرير . أنهم ليسوا من العالم كما أنى لست من العالم .

« ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط ، بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بى عن كلامهم .

« يا أبت أن الذين أعطيتنى أريد أن يكونوا معى حيث أنا وأن يعلم العالم أنك أحببتهم كما أحببتنى (١٧) .

نعم . يارب ، هذا ما بودى أن أردد بعدك قبل أن أطير إلى ذراعيك ! قد يكون ذلك مجازفة منى .. ولكن كلا !.. ألم تسمح لى من زمن بعيد أن أكون جريئة معك ؟ قلت لى مثل والد الابن الشاطر مخاطباً ابنه البكر : « كل ما هو لى فهو لك » (١٨) . إذن ، يا يسوعى ، كلماتك لى ، ويمكننى أن أستخدمها لاستنزل على النفوس التى أملكها عوارف الآب السماوى .

تعلم ، يا ربى ، أننى لم أبغ قط الا أن أحبك وحدك ، لا أطمح إلى مجد آخر . حبك أدركنى منذ طفولتى . لقد نما معى ، والآن هو لجة لا أستطيع أن أسبر غورها .

الحب يجتذب الحب . أن حبى يندفع نحوك . يود لو يملأ اللجة التى تجتذبه . لكن واحسرتاه ! فما هو حتى قطرة من الندى متلاشية فى البحر المحيط . لكى أحبك كما تحبنى ، يلزمنى أن استعير حبك أنت . حينئذ فقط ألقى الراحة . يسوعى ! يخيل لى أنك لا تستطيع أن تملأ نفساً بحب أكثر مما ملأت به نفسى . لذلك أجسر أن أطلب منك « أن أحب من أعطيتنى اياهم كما أحببتنى أنت » (١٩) .

---

(١٧) يوحنا ، ١٧ : ٤ .
(١٨) لوقا ، ١٥ : ٣١ .
(١٩) يوحنا ، ١٧ : ٢٣ .

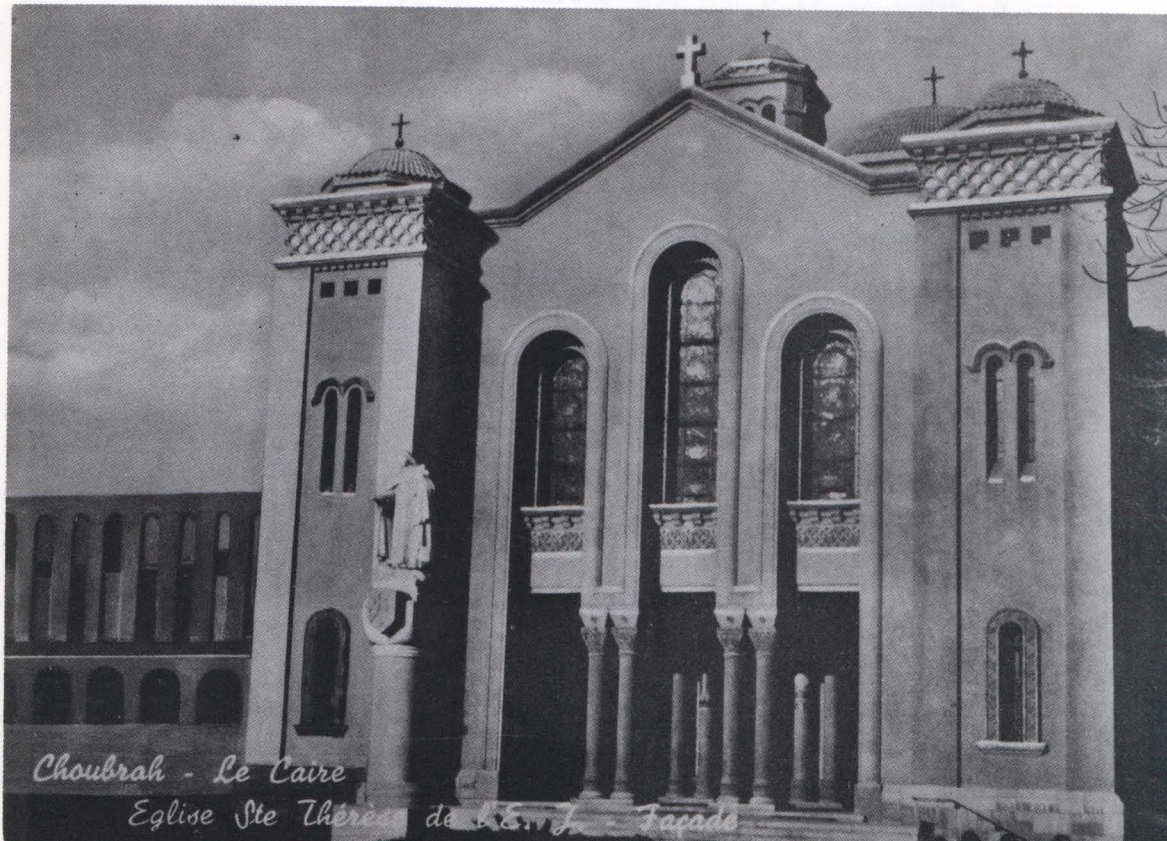
Choubrah - Le Caire
Eglise Ste Thérèse de l'E. J. - Façade

باز يليك القديسة تريزا ليسوع الطفل بليزيو ـ فرنسا . باز يليك القديسة تريزا ليسوع الطفل بشبرا ـ القاهرة .

« انى لا أظن فى نفسى أنى قديسة عظيمة ، لكنى أظن أن الله ، تقدست أسماؤه ، رضى بأن يضع فى أشياء تفيدنى وتفيد غيرى » .

« القديسة تريزا »

إذا تبين لى يوماً فى السماء أنك تحبهم أكثر مما تحبنى . فرحت لذلك ، معترفة منذ هذه الحياة أن تلك النفوس تستحق ذلك أكثر منى . لكنى فى هذه الدنيا لا يمكننى أن أتصور حبا مترامى الأطراف أكثر من الحب الذى طاب لكِ أن تنعم به على دون استحقاق منى .

أمى ، أنى مندهشة جداً مما أكتب . ما كنت أقصد ذلك ! حين رددت نبذة الانجيل المقدس هذه : « ان الكلام الذى أعطيته لى فقد أعطيته لهم » (٢٠) . ما عنيت أخوى ، بل أخواتى الصغيرات المبتدئات إذ لا أظننى أهلا لتعليم المرسلين . انما كتبت عنهم صلاة يسوع : « لست أسأل أن ترفعهم من العالم ... أسألك أيضاً من أجل الذين يؤمنون بى عن كلامهم » (٢١) . بالفعل كيف يمكنى أن أنسى النفوس التى يغزونها بالألم والوعظ ! ولكنى لم أشرح كل فكرى فى نبذة الأناشيد المقدسة : « أجتذبنى فنعدو .. » (٢٢) .

قال يسوع : « ما من أحد يقدر أن يقبل الى ما لم يجتذبه الآب الذى أرسلنى »(٢٣) . ثم أنه يكفى أن نقرع ليفتح لنا أن نطلب لنجد ، أن نمد اليد بتواضع لننال . يضيف إلى ذلك أن كل « ما نسأله باسمه من أبيه يمنحه لنا أبوه(٢٤) . لا شك أنه لذلك أملى الروح القدس ، قبل ميلاد يسوع هذه الصلاة النبوية : « اجتذبنى فنعدو ..) .

من يسأل أن يجتذب ، يود أن يتصل اتصالا وثيقاً بما يسبى قلبه . لو أن النار والحديد يعقلان وقال الحديد للنار : « اجتذبينى » . أفما يثبت بذلك رغبته أن يصبح والنار واحداً حتى يشاركها فى جوهرها ؟ ها هى صلاتى بالذات . أسأل يسوع أن يجتذبنى فى لهيب حبه ، أن يجعلنى أتحد به اتحاداً مكينا بحيث يحيا يسوع فى و يعمل . أشعر أنه كلما زادت نار الحب احراقاً لقلبى ، زاد قولى « اجتذبنى ! » وزادت النفوس التى تدنو من نفسى سرعة فى العدو الى نفحات الحبيب العاطرة .

(٢٠) يوحنا ، ١٧ : ٨ .
(٢١) يوحنا ، ١٧ : ١٥ .
(٢٢) نشيد ، ١ : ٤ .
(٢٣) يوحنا ، ٦ : ٤٤ .
(٢٤) يوحنا ، ١٦ : ٢٣ .

نعم ، ستعدو وسنعدو معا ، لأن النفوس المضطرمة لا تستطيع أن تلبث بلا عمل . هى دون شك مثل القديسة مريم المجدلية تقوم على قدمى يسوع مستمعة كلمته العذبة الملتهبة . هذه النفوس تبدو كأنها لا تعطى شيئاً وهى مع ذلك تعطى أكثر من مرتا المهتمة « بأمور كثيرة » (٢٥) . على أن يسوع لم يلم أعمال مرتا بل « اهتمامها الباطل » فحسب . هذه الأعمال نفسها قد رضيتها والدته الالهية فى تواضع ، إذ كان عليها أن تهيء الطعام للعائلة المقدسة .

أدرك هذا جميع القديسين . وقد يكون أدركه منهم بنوع خاص من ملأوا الدنيا بأنوار التعاليم الانجيلية . الينا القديس بولس ، القديس أغسطين ، القديس توما الاكوينى ، القديس يوحنا للصليب ، القديسة تريزا وكثيرون من أولياء الله . أو لم يستمدوا من الصلاة ذلك العلم البديع الذى يفتن أعظم النوابغ ؟

قال أحد العلماء : « أعطنى نقطة ارتكاز وأنا بعتلة أرفع الأرض » . ما لم يستطع « أرشميدس » بلوغه ناله القديسون تماماً . أعطاهم الرب القدير نقطة ارتكاز « فكانت هو . هو وحده » . أما العتلة فهى الصلاة ، تلهب القلب بنار المحبة . هكذا رفعوا وهكذا يرفعه القديسون الذين لا يزالون يجاهدون ، هكذا سيرفعونه إلى دهر الداهرين .

أمى العزيزة ، بقى على أن أقول لك ماذا أعنى بنفحة عرف الحبيب . ما دام يسوع قد عاد فصعد إلى السماء ، فلا أستطيع أن أتبعه الا باقتناء آثاره . لله هذه الآثار ما أضوأها ! ما أذكى عطرها الإلهى ! حسبى أن ألقى النظر إلى الانجيل المقدس ، فلا ألبث أن أستنشق عرف حياة يسوع ، فاعلم إلى أى وجهة على أن أعدو . لا إلى المكان الأول أطير ، بل إلى الأخير . أترك الفريسى يصعد وأردد ، ممتلئة ثقة ، صلاة العشار المتواضعة . أقتدى على الأخص بمريم المجدلية وجرأتها المدهشة أو بالأحرى جرأتها الهائمة ، التى تروق قلب يسوع وتفتن قلبى .. لا لأنى وقيت الخطيئة المميتة ارتفع إلى الله عن طريق الثقة والحب . كلا ، أشعر أنى

---

(٢٥) لوقا ، ١٠ : ٤١ .

حتى لو ارتكبت جميع ما يرتكب من الآثام ، لما فقدت شيئاً من ثقتى ، بل لرحت أرتمى بين ذراعى مخلصى والقلب ينفطر دما . أعلم أنه يحب الابن الشاطر « الضال » سمعت كلماته إلى القديسة مريم المجدلية ، إلى المرأة الزانية ، إلى السامرية . كلا ! ما فى وسع أحد أن يخفينى ، لأنى على بينة من حب يسوع ورحمته . أعلم أن جميع هذه الخطايا الفائقة العد تتلاشى فى غمضة عين مثل قطرة من الندى تلقى فى الضرم .

جاء فى تاريخ أباء الصحراء ، أن أحدهم رد خاطئة تشكك بخطاياها العلنية بلدا بأسره . حلت النعمة بها ، فراحت تتبع القديس فى الصحراء ، طلبا لتوبة شاقة . وإذا بها فى الليلة الأولى من سفرها قبل أن تصل إلى مقر عزلته ، تنحل قيودها الزائلة من قوة ندمها الممتلىء حبا . وفى اللحظة عينها رأى الناسك نفس الخاطئة تحملها الملائكة إلى جوار ربها .

هذا مثل مؤثر جداً لما أريد أن أقول ، لكن هذه الأشياء لا يمكن التعبير عنها .

الفصـــل الحادى عشـــر

ثقتها بالله ــ زيارة من السماء
تلقى اطمئنانها فى الحب ــ طفولة سنية
نداء إلى جميع « النفوس الصغيرة »

أختى الحبيبة (١) ، تسألنى أن أترك لك تذكاراً ... ما دامت أمنا تسمح بذلك فمن دواعى سرورى أن أجىء فأتحدث معك ، أنت التى هى أختى مرتين ، أنت التى أعرتنى صوتك فوعدت باسمى أن لا أريد الا خدمة يسوع ، حين لم يكن فى استطاعتى أن أتكلم .

عرابتى العزيزة الصغيرة ، انما تخاطبك فى هذا المساء الطفلة التى قدمتها للرب . هى التى تحبك مثلما تعرف الطفلة التى تحب أمها . لن تعلمى الا فى السماء كل ما يطفح به قلبى من الشكران .

تودين ، يا أختى الحبيبة ، أن تسمعى الأسرار التى يبثها يسوع إلى بنتك الصغيرة . أعلم أن هذه الأسرار يبثها اليك أيضاً ، لأنك أنت علمتنى أن أتلقى الدروس الإلهية ، ومع ذلك فأنى محاولة أن أتمم بضع كلمات وأن أشعر أنه يستحيل على الكلام البشرى أن يردد أشياء يكاد القلب لا يستطيع الفطون اليها .

لا تحسبينى سابحة فى التعازى . كلا ! تعزيتى ، أنى لا تعزية لى على الأرض . يلعمنى يسوع فى السر دون أن يظهر لى نفسه ، دون أن يسمع صوته ، لا يعلمنى بواسطة الكتب ، لأنى لا أفهم ما أقرأ على أنه قد تأتينى أحياناً بالتعزية كلمة كهذه التى استخرجتها هذا المساء ، عقب صلاة قضيتها فى اليبوسة : « ها

(١) هذا القسم الثالث من الكتاب المخطوط موجه إلى الأخت مارى لقلب يسوع (شقيقتها الكبرى مارى).

هو المعلم الذى أعطيك . سيعلمك كل ما يلزمك أن تعمل . أريد أن أجعلك تقرأين فى كتاب الحياة ، الكتاب الذى يتضمن علم المحبة » (٢) . علم المحبة ! لعمرى هذه الكلمات ترن رنا لطيفاً فى أذن نفسى . لا أبتغى الا هذا العلم . كمثل عروس الأناشيد اعتبرنى بعد « أن أعطيت كل ثروتى لاحرازه » ، كأنى لم أعط شيئاً (٣) . ليس الا الحب جديراً بأن يكسبنا رضى الله . وأنى لأجيد فهم ذلك إلى حد أن الحب هو الكنز الوحيد الذى أطمع فيه .

يطيب ليسوع أن يرينى السبيل الفريد إلى هذا الأتون الالهى . هذا السبيل هو استسلام الطفل الصغير الذى يرقد بلا خوف بين ذراعى والده . قال الروح القدس بلسان سليمان : « من كان صغيراً جدا فليأتنى » (٤) . وقال أيضاً روح المحبة عينه ، « ان الرحمة تمنح للأصاغر » (٥) . وباسمه أبان لنا النبى أشعيا أنه ، فى اليوم الأخير يقود « الرب قطيعه إلى المراعى ويجمع خرافه الصغيرة فيضمها إلى صدره » (٦) . وكأن هذه الشواهد كلها لا تكفى ، فقد صاح هذا النبى باسم الرب وبصره الملهم يخوض سابقاً أعماق الأبدية : « كما تدالى الأم طفلها كذلك أعزيكم . سأحملكم على صدرى وأهدهدكم على ركبتى » (٧) .

أختى الحبيبة ، بعد هذا الكلام لا يسع المرء الا أن يصمت و يبكى شكرا وحبا . آه ، لو أن النفوس الضعيفة الناقصة كنفسى أحست بما أحس ! . لما يئست واحدة منها أن تبلغ من جبل الحب ذروته ، إذ لا يطلب يسوع أعمالا عظيمة بل الاستسلام والشكر ليس الا .

قال : « ما بى أى حاجة إلى تيوس قطعانك ، لأن جميع ما بالغابات من عجم هو ملكى ، وكذلك آلاف الحيوانات التى ترعى فى الآكام وأنى لأعرف كل طيور الجبال .

---

(٢) السيد المسيح إلى القديسة مرجريت مارى . (٣) نشيد ، ٨ ، ٧ .
(٤) سفر الحكمة ، ٩ : ٤ . (٥) سفر الحكمة ، ٦ : ٦ .
(٦) أشعيا ، ٤٠ : ١١ (٧) أشعيا ، ٦٦ : ١٣ .

« وان جعت ، فما أنت من أخبره بذلك ، لأن الأرض لى فى جميع ما تحوى . أأنا من يأكل لحم الثيران و يشرب دم التيوس ؟ ضحوا لله بذبائح من التسبيح والشكران » (٨) .

ذلك إذن كل ما يطالبنا به يسوع . لا يحتاج إلى أعمالنا ، بل الى « حبنا » فحسب . هذا الاله عينه ، الذى يصرخ بأنه ما به أى حاجة أن يقول لنا هل هو جائع ، لم يخش أن يستعطى السامرية قليلا من الماء ... كان عطشان ! لكنه بقوله : « أعطنى لأشرب » (٩) ، كأن خالق الكون لا يطالب الا بحب خليقته المسكينة . كان متعطشاً إلى الحب !

أجل ، يسوع الآن عطشان أكثر منه فى أى وقت مضى . لا يلقى بين تلاميذ العالم الا من ينكر جميله أو لا يبالى به . وهو يلقى بين تلاميذه هو و يا للأسف ! قلوبنا قليلة جداً تستسلم على الإطلاق إلى حنان حبه غير المتناهى .

ما أسعدنا ، لفهمنا أسرار عروسنا الدفينة . آه ، لو رضيت أن تدونى ما تعلمين عن ذلك لقرأنا صفحات جميلة . ولكنى أعلم أنك تؤثرين حفظ « أسرار الملك » فى عمق قلبك . أما لى فتقولين « انه من دواعى الشرف اعلان أعمال الله العلى » (١٠) . إذ من المحال حقا أن نردد أسرار السماء بكلمات أرضية .

أما أنا ، فبعد أن أكون خططت الصفحات تلو الصفحات ، أرى أنى ما ابتدأت بعد . هناك من الآفاق المختلفة والألوان المتنوعة فوق الحصر إلى حد أن المصور السماوى وحده فى وسعه أن يهيىء لى من مجمع ألوانه ، بعد ليل هذه الحياة ، تلك الألوان الالهية التى تستطيع أن تصور ما يكشف لبصر نفسى من البدائع .

على أنه ، يا أختى الحبيبة ، ما دمت تظهرين لى رغبتك أن تعلمي قدر الإمكان بمشاعر قلبى كلها ، ما دمت ترغبين أن أدون من أحلام حياتى أدعاها

---

(٨) مزمور ، ٤٩ : ٩ .
(٩) يوحنا ، ٤ : ٧ .
(١٠) طوبيا ، ١٢ ، ٧ .

إلى التعزية وكذلك «تعاليمى الصغيرة» كما تسمينها ، فها أنا فاعلة فى الصفحات التالية . انما أتحدث إلى يسوع ، فذلك يسهل على التعبير عن خواطرى . ولعلك ترين عباراتى منطوية على المغالاة ولكنى أؤكد لك أن لا مغالاة على الإطلاق فى قلبى . كل شىء فيه هادىء ساكن .

يا يسوع ، من بوسعه أن يقول بأى حنان ورفق تقود نفسى الصغيرة ؟

كانت العاصفة تدوى بها دوياً شديداً منذ عيد نصرتك الجميل ، عيد الفصح المنير واذ بك فى يوم من أيام مايو تجعل شعاعاً خالصا من أشعة نعمتك يضىء قاتم ليلى ..

فكرت فى الأحلام السرية التى ترسلها أحياناً إلى مختاريك ، فقلت فى نفسى أن هذه التعزية ما جعلت لى وأن نصيبى الليل ، الليل العميق الدائم ! ثم رقدت فى العاصفة !

على أنه فى الغد ١٠ مايو لدى بزوغ الفجر رأيتنى فى المنام أسير فى رواق مع أمنا الرئيسة وحدها وإذا بى المح ثلاث راهبات كرمليات مرتديات وشاحهن ومحتجبات بحجابهن الكبير وما علمت كيف دخلن ، فأدركت أنهن آتيات من السماء . فقلت فى نفسى : « كم أكون سعيدة لو رأيت وجه واحدة من هاته الكرمليات ! » وكأن دعوتى أستجيبت فتقدمت نحوى كبرى هاته القديسات ، فألقيت بنفسى جاثية . و يا للسعادة ! أزاحت حجابها ، بل رفعته وحجبتنى به . فعرفتها دون أى تردد . كانت الأم المحترمة حنة ليسوع مؤسسة الكرمل بفرنسا (١١) . كان محياها جميلا جمالا روحانياً ، لم ينبعث منه أى شعاع ومع ذلك

---

(١١) هى الأم المحترمة حنة ليسوع واسمها الأصلى حنة دى لوبرى . ولدت بأسبانيا عام ١٥٧٠ . غدت بعد قليل من الزمن مستشارة القديسة تريزا دابيلا ومساعدتها وكانت هذه القديسة تدعوها : « ابنتها وأكليلها » . ثم القديس يوحنا للصليب ، مرشدها الروحى مدة أربع عشرة سنة ، كان يحلو له أن يسميها « ساروفيم مجسداً » وقد بلغت منها الحكمة والقداسة أن العلماء كان يستشيرونها فى شكوكهم و يرون فى أجوبتها القول الفصل . كانت الوارثة الأمينة لتعاليم القديسة تريزا ، فكانت من لدن السماء أن تحفظ للكرمل اصلاحه الكامل الأصلى . أسست ثلاثة أديرة من أديرة الإصلاح فى أسبانيا وأدخلته فى فرنسا ، ثم بلجيكا . اشتهرت باسمى المواهب الفائقة الطبيعية لا =

وبالرغم من الحجاب الكثيف الذى كان يغشينا الاثنتين ، كنت أرى هذا الوجه السماوى مضاء بنور لا توصف عذوبته كأن هذا الوجه يحدثه من نفسه .

لا طفتنى القديسة أيما ملاطفة ، فلما رأيتها تحبنى بمثل هذا الحنان العظيم تجاسرت أن أتفوه بالكلمات الآتية : « أتوسل اليك ، يا أمى ، أن تخبرينى ، هل يتركنى الله على الأرض طويلا ؟ هل يأتى عن قريب ليطلبنى ؟ » فابتسمت بحنان قائلة : « نعم ، عن قريب .. أعدك بذلك » . فأردت بقولى : « أمى العزيزة ، أخبرنى أيضاً هل يطلب الله منى غير أعمالى الوضيعة الصغيرة وغير رغائبى ؟ وهل هو راض عنى ؟ » .

حينئذ ضاء محيا هذه الأم المحترمة ببهاء جديد ، فبدت لى ملامحها أشدا حناناً بما لا يحتمل القياس ، فقالت : « لا يطلب الله تعالى منك شيئاً آخر فهو راض جد الرضى » ثم أحاطت رأسى بيديها وأولتنى من ضروب الموالاة ما يستحيل على وصف عذوبته . كان قلبى فى هناء . على أنى تذكرت اخواتى ، فأردت أن أطلب بعض النعم لهن ... على أنى أفقت واحسرتاه ! .

لا أستطيع أن أردد ما كان بنفسى من السعادة . انقضت عدة أشهر على هذه الرؤيا الفائقة الوصف ومع ذلك فإن ما خلفته لى من الذكر لم يفقد شيئاً من جدته وبداعته السماوية . ما زلت أرى نظر هذه القديسة الكرملية وابتسامتها المليئتين حبا ويلوح لى أنى لا أبرح أحس ما تولتنى به مظاهر الموالاة .

يا يسوع ، « لقد انتهرت الرياح والبحر فحدث هدوء عظيم » (١٢) . لدى افاقتى اعتقدت بل أحسست أن هناك سماء وأن هذه السماء تسكنها نفوس تحبنى وتعدنى كابنتها . هذا الشعور باق فى قلبى ويزيده عذوبة أن الأم المحترمة حنة

= سيا موهبة التأمل الروحى وتوفيت ببلجيكا فى دير الكرمليات ببروكسل يوم ٤ مارس سنة ١٦٢١ فى حالة القداسة ، وفى ٣ مايو سنة ١٨٧٨ أمضى قداسة البابا لاون الثالث عشر الاذن فى أن ترفع قضية تطويب خادمة الله هذه الكبيرة .

(١٢) متى ، ٨ : ٢٦ .

ليسوع كانت حتى ذلك الحين توشك أن لا تثير اهتمامى ، فأنى لا أجرؤ على قول ذلك . ما كنت قد توسلت اليها وما كان ذكرها يمر بخاطرى الا متى أسمع الغير يتكلم عنها وكان ذلك من الندور بمكان .

والآن ، أعلم ، بل أفهم كم كنت من قبلى بعيدة عن أن لا أثير أهتمامها (تقصد الأم حنة ليسوع) . هذه الفكرة تزيد حبى لا لها فحسب ، بل لجميع الطوباو يين ساكنى الوطن السماوى .

حبيبى ! هذه النعمة لم تكن الا فاتحة ما أردت أن تغدق على من نعم هى أعظم حتى من تلك . فدعنى أذكرك بها اليوم ، واصفح عنى إذا انحرفت عن جادة الصواب ، إذا أعمد إلى ترديد آمالى ورغائبى التى تبلغ حد اللانهاية .. اصفح عنى وأشف نفسى باعطائها ما هى ترجو.

أن أكون عروسك ، يا يسوع ، أن أكون كرملية ، أن أكون باتحادى بك والدة النفوس . كل ذلك من حقه أن يكفينى ولكنى أشعر بدعوات أخرى تهيب بى . أشعر بالدعوة التى تتهيب بالمحارب والكاهن والرسول والمعلم الروحى والشهيد .. بودى لو أتيت من كل أعمال البطولة أعظمها . أحس أن بى شجاعة مجاهد صليبى . بودى أن أموت فى ميدان قتال ، دفاعاً عن الكنيسة .

الدعوة التى تهيب بالكاهن : بأى حب ، يا يسوع ، كنت اذن حملتك بين يدى ، حين يستنزلك صوتى من السماء ! بأى حب كنت أعطيتك للنفوس ! ولكن واحسرتاه ! مع أن شوقى أن أكون كاهنا ، أعجب بتواضع القديس فرنسيس الأسيزى وأغبطه عليه ، أحسنى مدعوة إلى الاقتداء به برفض رتبة الكهنوت السامية . كيف التوفيق بين هذه المتناقضات ؟ بودى أن أنير النفوس مثل الأنبياء والمعلمين الروحيين .

بودى أن أطوف الأرض ، ناشرة اسمك ، مثبتة صليبك المجيد فى بلاد من لا يؤمنون بك ، يا حبيبى ! على أن رسالة واحدة لا تكفينى .

بودى فى آن واحد أن أبشر بالانجيل فى أنحاء العالم جميعاً وحتى فى أقصى الجزر. بودى أن أكون مرسلة ، لا بضع سنوات فحسب ، بل بودى لو أنى مرسلة منذ خلق العالم ، ولو أنى أبقى مرسلة إلى الدهر الداهرين ! .

بودى فوق كل شىء لو كنت شهيدة ! ها هو حلم صباى . هذا الحلم قد شب معى فى حجرتى الصغيرة بالكرمل . ولكن هذا ضرب آخر من ضروب الجنون ، إنى لا أطلب نوعاً واحداً من التعذيب ، بل لابد منها كلها لارضائى عروسى المعبود . أود لو أنى جلدت وصلبت مثلك . أود لو مت مجردة مثل القديس برتلماوس . أود لو ألقيت فى الزيت الغالى مثل القديس يوحنا . أود لو هشمتنى أنياب الضوارى مثل القديس أغناطيوس الأنطاكى لأصبح خبزا يليق بالله ، أود لو قدمت عنقى لسيف الجلاد مثل القديسة أغنييس والقديسة سيسيل . أود لو همست اسم يسوع مثل جان دارك على المحرقة المتأججة .

إذا توجه فكرى إلى ما يكون نصيب المسيحيين فى عهد المسيح الدجال ، من عذاب لا مثيل له ، شعرت بقلبى يهتز ، فوددت لو أنى خصصت بهذا العذاب . أفتح ، يا يسوعى ، كتاب الحياة كتابك الذى يروى أعمال القديسين أجمعهم . هذه الأعمال بودى لو كنت قد أتيتها لأجلك .

ما عساك تجيب على جميع هذه الأحداث الجنونية ؟ هل على الأرض نفس أصغر من نفسى وأعجز ؟ ولكن بسبب ضعفى بالذات ، طاب لك أن تحقق تماماً رغائبى الصبيانية الصغيرة ، وتريد اليوم أن تحقق تماماً رغائب أخرى أوسع من العالم .

غدت هذه الأشواق ألما مبرحا حقا . ففتحت يوما رسائل القديس بولس ، طالبة بعض الدواء لعذابى ، فوقع نظرى على الفصلين ١٢ و١٣ من الرسالة الأولى الى أهل كورنتس . فقرأت فيهما أنه لا يسع الجميع أن يكونوا معا « رسلا وأنبياء

روحيين » (١٣) . وأن الكنيسة مؤلفة من « أعضاء مختلفين » ، « وأنه لا يمكن للعين أن تكون اليد فى آن واحد » .

كان الجواب جليا . لكنه لا يحقق رغائبى تماماً ولا يولينى السلام . « فانخفضت حينئذ حتى بلغت أعماق عدمى ، فارتفعت إلى حد أنى استطعت إدراك غايتى » (١٤) . فواصلت قراءتى دون أن تفتر همتى ، ففرجت عنى هذه الوصية : « أطلبوا بحرارة أكمل النعم ، على أنى أر يكم أيضاً سبيلاً أفضل » (١٥) .

ثم بين الرسول كيف أن أكمل النعم ليست شيئاً بدون « الحب » ، وأن محبة القر يب أفضل سبيل للذهاب إلى الله عن يقين . فوجدت الراحة فى آخر الأمر ! .

كنت قد تأملت جسد الكنيسة السرى ، فما عرفتنى فى أى عضو من أعضائه التى وصفها القديس بولس أو بالأحرى أردت أن أعرفنى فيها . كشفت لى المحبة للغير سر « دعوتى » . أدركت أنه إذا كانت الكنيسة مؤلفة من أعضاء مختلفة ، فلا ينقصها ألزم وأشرفها كلها . أدركت أن لها « قلبا » وأن هذا القلب يتأجج حبا . أدركت أن الحب وحده يحرك أعضاءها ، وأنه لو خبا الحب ، لانقطع المرسلون عن التبشير بالانجيل ، ولأبى الشهداء أن يهرقوا دماءهم . أدركت أن الحب يتضمن جميع الدعوات ، وأن الحب كل شىء ، وأنه يتناول جميع الأزمنة والأمكنة لأنه أزلى !

حينئذ صحت فى ز يد فرحى الهاذى : « يا يسوع ، يا حبيبى ، لقد وجدت فى نهاية الأمر ما دعوتى : « دعوتى الحب » . نعم ، لقد وجدت مكانى من الكنيسة . هذا المكان ، يارب ، أنت أعطيتنى اياه فى قلب الكنيسة أمى « سأكون الحب » . إذن سأكون كل شىء . إذن سيتحقق حلمى !

لماذا أتكلم عن فرح هاذ ؟ كلا . هذا التعبير غير صحيح ، بل السلام أصبح نصيبى ، السلام الهادىء الصافى ، سلام الملاح إذ يبصر بالمنارة التى تدله إلى

---

(١٣) كورنتس الأولى ، ١٢ : ٢٨ .

(١٤) القديس يوحنا للصليب .

(١٥) كورنتس الأولى ، ١٢ : ٣١ .

المرفأ . يا مرفأ الحب ! يا مرفأ مضيئاً ، أعلم كيف أصل اليك . وجدت السبيل الخفى إلى تملكى لهيبك ! .

لست الا طفلة عاجزة ، ضعيفة ، ومع ذلك فإن ضعفى نفسه يجرئنى على أن أقدم نفسى ضحية لحبك ، يا يسوع ! . فى الزمن الغابر كانت القرابين الطاهرة النقية وحدها يقبلها الاله القوى القدير . كان لابد من ضحايا كاملة لإرضاء العدل الالهى . لكن شريعة الرهبة خلفتها شريعة الحب ، والحب قد اختارنى محرقة ، أنا الخليقة الضعيفة الناقصة . أما هذا الاختيار جدير بالحب ؟ نعم ، لكى يرضى الحب رضى تاماً ، لابد له أن ينخفض حتى إلى العدم وأن يحول هذا العدم ناراً .

يارب ، أعلم أن « الحب لا يستوفى دينه إلا بالحب » (١٦) لذلك طلبت فوجدت السبيل إلى التفريج عن قلبى بأن أقابل حبك بالحب . « اجعلوا لكم أصدقاء بمال الظلم ، حتى إذا أدرككم الإضمحلال يقبلونكم فى المظال الأبدية » (١٧) هذه ، يارب ، هى الوصية التى تعطيها لتلاميذك ، بعد قولك لهم أن « أبناء الظلم لأحكم فى أعمالهم من أبناء النور » (١٨) .

أدركت ، أنا بنت النور ، أن رغائبى أن أكون كل شىء وأن أضم جميع الدعوات ، لهى أموال قد تصيرنى ظالمة . حينئذ استخدمها لأجعل لى منها أصدقاء . تذكرت توسل أليشع للنبى ايليا إذ طلب روحه المضاعف ، فتقدمت إلى الملائكة والى مجمع القديسين قائلة لهم : « أنا أصغر الخلائق . أعلم ضعة قدرى ولكنى أعلم أيضاً كم تحب القلوب الرفيعة الكريمة أن تصنع الخير . فأتوسل اليكم ، يا ساكنى الوطن السماوى ، يا طوباويون ، أن تتبنونى ، فأليكم وحدكم يعود فضل المجد الذى تجعلونى أحرزه ، تنازلوا فاستجيبوا صلاتى ! أتضرع اليكم أن تهبونى حبكم المضاعف » .

---

(١٦) القديس يوحنا للصليب

(١٧) لوقا ، ١٦ : ٩ .

(١٨) لوقا ، ١٦ : ٨ .

ربى ، لا أستطيع أن أسترسل فى توسلى ، إذ أخشى أن أجدنى رازحة تحت حمل رغائبى الجريئة ! عذرى أننى طفلة . الأطفال لا يفطنون إلى مدى كلماتهم ، على أنه إذا ارتقى والدهم أو والدتهم العرش وامتلكا كنوزا عظيمة ، فإنهما لا يترددان أن يرضيا رغائب أولئك الصغار الذين يحبانهم أكثر من نفسيهما . فكلى يسراهم يأتيان أعمالا جنونية ، يبلغ بهما الأمر حد الضعف .

لعمرى ، أنا بنت الكنيسة المقدسة ، والكنيسة ملكة ما دامت عروستك ، يا ملك الملوك الالهى . ليس ما يتطلبه قلبى الثروة والمجد حتى مجد السماء . المجد يؤول إلى أخوتى الملائكة والقديسين بوصفه حقا لهم . مجدى أنا سيكون الشعاع المنعكس من جبين أمى . « الحب » ما أطلبه . عدت لا أعلم الا شيئاً واحداً هو أن « أحبك » ، يا سوع . لا قبل لى بالأعمال المجيدة ، لا أستطيع أن أبشر بالانجيل ولا أن أسفك دمى ... ماذا يهم ذلك ؟ أخوتى يعملون بالنيابة عنى « وأنا الطفل الصغير » أقيم قريباً جداً من العرش الملكى ، و« أحب » بالنيابة عمن يناضلون .

ولكن كيف أثبت حبى ما دام الحب يثبت بالأعمال ؟ لعمرى ، « سيلقى الطفل الصغير أزهاراً » ... سيعطر بطيوبه العرش الإلهى . سيغنى بصوته الرنان أنشودة الحب .

نعم يا حبيبتى ، هكذا تنصرم أمامك حياتى الزائلة . ليس لى سبيل إلى اثباتى لك حبى غير القاء الأزهار ، أى ألا أترك أية تضحية صغيرة تفوتنى ولا أية نظرة ولا أية كلمة ، فأنتفع من أقل الأعمال وآتيها عن حب .. أريد أن أتألم عن حب وحتى أتنعم عن حب . هكذا سألقى الأزهار لن ألاقى واحدة دون نثرها لك .. ثم أنى سأغنى دائماً حتى إذا وجب على أن أجنى ورودى وسط الأشواك و يزداد غنائى رخامة بقدر ما تزداد هذه الأشواك طولا و اشاكة .

ولكن ، يا يسوعى ، ماذا تفيدك أزهارى وأناشيدى ؟ آه ، أعلم جد العلم أن هذا الوابل الممطر ، وهذه وريقات الأزهار ، الوريقات السريعة العطب العديمة القيمة ، هذه أناشيد الحب المنبعثة من قلب صغير إلى هذا الحد ستروقك بالرغم

من ذلك . نعم ، هذه الأشياء الداخلية فى حكم العدم ستسرك ، ستحمل الكنيسة على الابتسام ، الكنيسة المنتصرة التى تريد أن تلاعب ابنتها الصغيرة ، فتجمع هذه الورود المنثورة وتجعلها تمر بيديك الإلهيتين لتكسبها قيمة لا حد لها فتلقيها على الكنيسة المتألمة لكى تخمد لهيبها وعلى الكنيسة المناضلة لكى تنصرها .

يا يسوعى ، أنى أحبك ، أحب الكنيسة أمى وأتذكر أن « أصغر ظاهرة من ظواهر الحب الخالص أفيد لها من جميع الأعمال الأخرى مجتمعة » (١٩) . لكن هل الحب الخالص فى قلبى حقاً ؟ أليست رغائبى العظيمة حلماً أو جنوناً ! آه ، إذا كان الأمر كذلك فأنرنى ! . تعلم أنى أطلب الحقيقة . إذ انطوت رغائبى على المجازفة فامحها ، لأن هذه الرغائب أكبر عذاب لى . لكن أقر بأنى إذا لم أدرك يوماً من الأيام أعلى هذه المناطق السامية التى تصبو اليها نفسى ، أكون قد تنعمت فى عذابى ، بل فى جنونى بسعادة أعظم من التى أتنعم بها وسط الأفراح الأبدية ، إلا إذا جردتنى بأعجوبة من ذكرى آمالى الأرضية ، يسوع ! . يسوع ! . لذا كان الشوق إلى الحب عذباً إلى هذا الحد . فماذا تكون عذوبة امتلاكه والتمتع به إلى الأبد ؟

كيف تستطيع نفس ناقصة مثلى أن تصبو إلى الحب الكامل ؟ ما هذا السر ؟ لماذا لا تخص ، يا صديقى الوحيد ، هذه الأشواق العظيمة بالنفوس الكبيرة ، بالنسور التى تحلق فى الأعالى ؟ أواه ، لست الا عصفوراً صغيراً لا يكسوه غير زغب خفيف . لست بنسر ليس لى منه الا البصر والقلب .. بالرغم من صغرى العظيم أجسر أن أحدق فى شمس الحب الالهية وأتأجج شوقاً إلى الإندفاع اليه . بودى أن أطير ، بدى أن أقتدى بالنسور ولكن كل ما يمكننى أن أفعل هو أن أرفع أجنحتى الصغيرة . ليس بوسعى الضعيف أن أطير .

ترى ما مصيرى ؟ أأموت ألما من رؤية نفسى عاجزاً هذا العجز ؟ كلا ، لن يكون منى حتى الحزن . أريد أن أقيم هنا فى استسلام جرىء ، محدقة حتى الموت

---

(١٩) القديس يوحنا للصليب .

فى شمسى الالهية . لن يستطيع شىء أن يخيفنى ، لا الهواء ولا المطر واذا أتت سحب كثيفة تحجب كوكب الحب ، اذا لاح لى أنى لا اؤمن أن هناك شمساً غير ظلام هذه الحياة ، كان ذلك حينئذ أوان الفرح الكامل ، أوان ابلاغ ثقتى أقصى الحدود ، حاذرة كل الحذر أن أغير مكانى إذ أعلم أن وراء السحب المحزنة لا تزال شمسى العذبة مضيئة .

يا ربى ، أنى لا أفهم إلى هذا الحد حبك لى ولكن تعلم أنى كثيراً ما أتركنى ألهو عن شغلى الوحيد ، فأبتعد عنك وأبلل فى المستنقعات الحقيرة التى ألاقيها على الأرض أجنحتى الصغيرة التى لم يكد يتم تكوينها . حينئذ « أئن مثل السنونة (٢٠) . فتذكر يا ذا الرحمة التى لا حد لها أنك ما « جئت لتدعو الصديقين بل الخطأة » (٢١) .

على أنه إذا دمت تصم الأذن عن تغريد خليقتك النحيلة ، تغر يدها الشاكى ، إذا بقيت محتجباً ، رضيت اذن أن أبقى مبللة ، رضيت أن أرتعد برداً وأنا أتنعم أيضاً من هذا الألم مع أنى أستحقه ، يا كوكبى الحبيب . نعم ، أنا سعيدة أن أحسنى صغيرة ، ضعيفة فى حضورك ، فيبقى قلبى فى سلام .. أعلم أن جميع النسور ببلاطك الالهى تترأف بى وتصونى وتدافع عنى وتهرب العقبان الممثلة للشياطين التى تريد افتراسى . لعمرى ، أنا لا أخافها . ما قدر لى أن أغدو فريستها ، بل فريسة النسر الالهى .

يا كلمة الله ، يا مخلصى ، أنت النسر الذى أحبه ويجتذبنى ، أنت من اندلعت إلى أرض المنفى ، أردت أن تتعذب وتموت لكى تخطف جميع النفوس وتغمسها حتى فى صميم الثالوث الأقدس ، منبع المحبة الأبدى . أنت من عدت صاعداً إلى الضوء الذى لا يدرك وتبقى محتجباً فى وادينا وادى الدموع تحت أعراض برشامة بيضاء وذلك لكى تغذينى من جوهرك عينه . يا يسوع ، دعنى أقول أن حبك يبلغ بى حد الجنون .. كيف تشاء أمام هذا الجنون ألا يندفع قلبى نحوك ؟ كيف تقف ثقتى عن حد ؟

(٢٠) أشعيا ، ٣٨ : ١٤ . (٢١) متى ، ٩ : ١٣ .

آه، أعلم أنه لأجلك أتى القديسون أيضاً أعمالا جنونية . أتوا أعمالاً جليلة إذ كانوا نسوراً . أنا أصغر من أن آتى أعمالا جليلة . فجنونى الرجاء من حبك أن يقبلنى قرباناً . جنونى أن أعتمد على الملائكة والقديسين لأطير حتى اليك ، أطير بأجنحتك ، أنت ، يا نسرى المعبود . سأبقى محدقة اليك ما أردت . أريد أن « يسحرنى » نظرك الإلهى . أريد أن أغدو فريسة حبك . سيأتى يوم ، كما أرجو، تنقض فيه على فتخطفنى إلى موقد الحب وتلقينى أخيراً فى هذه اللجنة المحرقة لتجعلنى ضحيتها السعيدة إلى أبد الأبدين ! .

يسوع ! يا ليتنى أن أظهر للنفوس الصغيرة كلها تنازلك الفائق الوصف . أحس أنه لو وجدت بفرض المستحيل واحدة منها أضعف من نفسى ، لطاب لك أن تسبغ عليها نعما أعظم حتى من هذه ، على شرط أن تستسلم فى ثقة تامة إلى رحمتك التى لا حد لها .

ولكن من أين تأتينى هذه الرغبة أن أبلغ النفوس أسرار محبتك ، يا حبيبى ؟ أما أنت وحدك من علمتنى اياها ، أما فى وسعك أن تكشفها لغيرى ؟ نعم ، أعلم ذلك وأتوسل اليك أن تفعله . أتوسل اليك أن تخفض بصرك الالهى فتلقيه على كثير من النفوس الصغيرة . أتوسل اليك أن تختار لنفسك فى هذا العالم طائفة عديدة من ضحايا صغيرة تليق بحبك !!

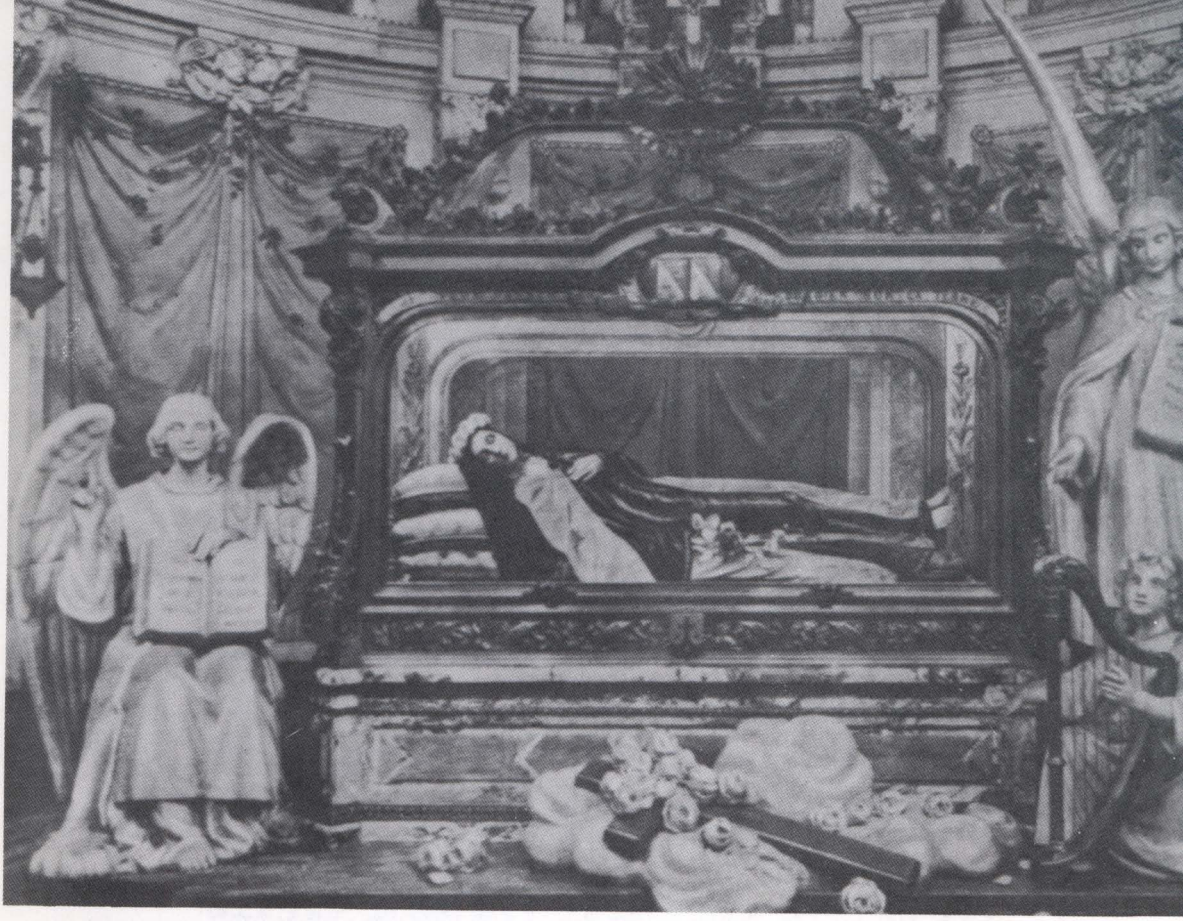

« لا أموت ، بل أدخل الحياة . لم أعط الله أبدا إلا الحب ، فهو لا يعيد الى إلا الحب » .

« القديسة تريزا »

الفصـــل الثانى عشـــر(*)

الجلجلـــة ــ الارتقاء إلى السماء ...

« يهـم الـنـفـس إلى أقصى حد أن تكثر من مزاولة الحب لـكى تبلغ سر يعاً أوج الكمال ، فلا تقف فى هذه الدنيا بل تتوصل عاجلا إلى رؤ ية ربها وجهاً لوجه (١) .

(القديس يوحنا للصليب)

« صفحات عديدة من تار يخ هذه الحياة لن تقرأ أبداً على الأرض » ... ذلك مـا سـبـق فـقـالـته القدسة تر يزا ليسوع الطفل ولا يسعنا إلا أن نعيده من بعدها . هـنـاك من الآلام ما لا يسوغ افشاؤه على الأرض ، فقد حرص الرب على أن يحتفظ بـكـشـف ما لهذه الآلام من استحقاق ومجد لدى الرؤ ية الجلية التي يتمزق عندها كل حجاب .

هـذا وتكاد الآلام التى انتابت ذلك القلب السر يع التأثر ، قلب خادمة الله ، تـكـون كـلـهـا مـن هذا القبيل حتى أنه قد يخيل للكثير ين أنها مرت على الأرض محـفـوفة بالابتسامات ومظاهر المحبة الحارة ، فلم تعهد الا أشعة عذبة ، أشعة شمس ر بيعية ولم تعلن أمطار الخر يف الكئيبة ولا زوابع الشتاء القارسة .

إن الـقـديـسـة تر يزا ليسوع الطفل تألمت كثيراً فى هذه الدنيا . أوصت فى آخر أيـامـهـا « أن يـبـلـغ ذلـك إلى الـنـفوس بعد وفاتها » ، إذ ما كانت تجهل أن سياء الصليب هذه المطبوعة على حياتها ، ستكون لكثير ين دليلا على أن رسالتها حقة .

(*) هو الفصل الأخير من تار يخ القديسة ، انشأته الراهبات الكرمليات اللاتى شهدن فضائلها وحضرن موتها .

(١) لهيب الحب ، الدور الأول .

ولكن ليس لاستشهاد قلبها هذا الاستشهاد ، اعتقدت أنها قبلت قربان ذبيحة لمحبة الرب الرحيمة ، بل أعتقدت ذلك جد الاعتقاد لأنها أحست « الحنان غير المتناهى المكنون فى القلب الالهى يفيض على نفسها » . صحيح أنه قالت ، قضاء لحاجة نفوس كانت تنقصها المرونة فى الطاعة إلى مشيئة العروس السماوى وهى أحيانا مشيئة مبرحة ، أن « تقديم الإنسان نفسه ضحية للحب هو تقديمها لأنواع الغموم كلها » ، ولكنها قالت أيضا لنفس كانت تمثل فى نظرها الإنسانية المتحدة المتعطشة إلى الكمال والحب ، غير أنها لا تزال ترتجف أمام الصليب : « لماذا تخافين أن تقدمين نفسك قرباناً للحب الرحيم ؟ إذا قدمت نفسك للعدل الالهى حق لك أن تخافى . ولكن الحب الرحيم سيرأف بضعفك فيعاملك باللين والرحمة » .

لقد رأينا كم كانت ضحية تريزا عظيمة إذ فارقت والدها فراقاً لا لقاء بعده وهو يحبها ذلك الحب الرقيق . وفارقت منزل أسرتها حيث كان لها من السعادة ما كان . على أنه قد يظن أن هذه التضحية خفت مرارتها كثيراً إذ لاقت القديسة فى الكرمل شقيقتيها الكبرتين ، نجيتى نفسها العزيزتين . على أنه بالضد كان ذلك لهذه الطالبة الصغيرة سبباً لأبلغ الحرمان أثراً .

كانت العزلة والصمت مما يلتزم فى دقة ، فلا ترى شقيقتها الا ساعة التنزه ولو كانت أقل تقشفاً لأمكنها أحياناً عديدة أن تجلس اليها . على أنها كانت « تؤثر الاجتماع بالراهبات اللاتى كن أقلهن جذباً لها » . لذلك يسع القول أن الرهبانية كانت تجهل هل تود شقيقتها بنوع خاص . بعد زمن يسير من دخولها الكرمل عينت مساعدة فى قاعة الأكل للأخت أغنييس ليسوع « بولينا » التى كانت القديسة تحبها ذلك الحب العظيم . كان هذا سبباً جديداً للتضحية وتريزا تعلم أن كل كلمة عديمة الفائدة ممنوعة . فلم تسمح لنفسها أبداً بأقل مناجاة . قالت فيما بعد : « آه ! يا أمى الصغيرة ! ما أشد ما تألمت حينذاك ! . ما كنت أستطيع أن أفتح لك قلبى وكنت أظن أنك ما عدت تعرفيننى » .

بعد خمس سنوات قضتها فى هذا الصمت الجدير بالأبطال ، أنتخبت الأخت أغنيس ليسوع رئيسة . ففى مساء انتخابها دق ولابد قلب تريزا الصغيرة فرحاً إذ فكرت أنه يمكنها فى ذلك الحين أن تخاطب « أمها الصغيرة » فى حرية تامة ، وأن تفتح نفسها لنفس شقيقتها كما فى غابر الأيام . على أن الله سمح أن تكون تريزا بين جميع الراهبات أندرهن رؤية لأمها الرئيسة ..

ولكن بعد بضع السنوات من ذلك الحين سمحت لها روحها المتأثرة بالعوامل الفائقة الطبيعة أن تقول « أنها سعيدة أن تموت بين ذراعى رئيسة أخرى ليمكنها أن تزيد ممارسة ايمانها بالسلطة » .

كانت تريزا تريد أن تحيا حياة الكرمل فى تمام الكمال الذى نشرته مصلحته القديسة تريزا داثيلا . فإذا رأت نوع العمل الذى تؤديه لا يضطرها إلى إمعان النظر، كانت فكرة الله تعاودها عفوا . ذات يوم دخلت عليها فى حجرتها راهبة مبتدئة فوقفت متأثرة مما كان يطبع وجهها من سيماء سماوية خالصة كانت مكبة على الخياطة ومع ذلك فكانت تبدو كأنها غارقة فى تأمل عميق . فسألتها الأخت الصغيرة : « فيما تفكرين » ؟ .

فأجابت : « أفكر فى الصلاة الربانية . ما أحلى أن ندعو الله أبانا » ! . وكان الدمع يتألق فى عينيها .

وقالت مرة أخرى : « لا أرى جليا ما يكون لى فى السماء أزيد مما لى الآن . صحيح أنى سأرى الله . ولكن فيما يتعلق بقيامى معه ، فأنى مقيمة معه تماماً وأنا لا أزال على الأرض » .

كانت تضطرم فى لهيب من الحب الحار . اليك ما ترويه بنفسها : « بعد بضعة أيام من تقديم نفسى « للحب الرحيم(٢) ابتدأت فى الخورس رتبة درب الصليب ، فشعرت فجأة بأنى أصبت بسهم نارى كان لظاه بحيث ظننتنى أموت . لا أعلم كيف أشرح هذه الفورة الروحية . لا يسمع أية مقارنة أن تفهم شدة هذا

(٢) فى ١٤ يونيو سنة ١٨٩٥ .

اللهب . كان يبدو لى أن قوة لا ترى تلقينى كلنى فى النار! يا لها من نار. يا لها من عذوبة » !

سألتها الأم الرئيسة هل هذه الفورة كانت الأولى فى حياتها فأجابت ببساطة :

« يا أمى ، لقد شعرت بعدة فورات ولا سيما مرة أثناء تلمذتى فى الدير. فقد لبثت أسبوعاً كاملا بعيدة كل البعد عن العالم . ليس فى وسعى أن أفصح عن ذلك . كان يخيل الى أنى أعمل بجسد مستعار كأنما ألقى حجاب على كل شىء فى الأرض بالنسبة لى . ولكنى ما كنت أضطرم بلهيب حقيق . كان بوسعى أن أتحمل هذا النعيم دون أمل منى أن أرى قيودى تنحل من فرط النعيم ، ولكن فى اليوم الذى أحدثك عنه لو لبثت نفسى على حالها دقيقة واحدة أخرى ، بل ثانية ، لفارقت جسدها ، أواه ، وجدتنى قد عدت إلى الأرض وعادت اليبوسة للحال تسكن قلبى ! » .

كان لا يزال عليك أن تصبرى قليلا ، يا ضحية الحب الوديعة ! .لقد سحبت اليد الالهية سهمها النارى ولكن الجرح جرح مميت ...

فى هذا الاتحاد المكين مع الله جازت القديسة تر يزا من التسلط على أعمالها ما يسترعى النظر حقاً ، فتبارت جميع الفضائل ازدهارا فى روض نفسها الرائع .

ولا يظن أن ازدهار هذا الجمال الفاتن الطبيعة ، ذلك الازدهار البديع قد تزايد دون أى عناء .

« ليس على الأرض خصب بلا ألم ، ألم مادى أو غم خاص أو تجارب يعرف أمرها الله أو البشر . حينما نقرأ حياة القديسين ، فتنبت فينا الأفكار التقو ية أو النوايا الكريمة يلزمنا ألا نقتصر ، كما نفعل إذ نقرأ الكتب الأخرى ، على ايفاء ما علينا من حق الاعجاب بعبقر ية المؤلف ، قل هذا الإعجاب أو كثر ، بل يلزمنا أن نفكر فيما دفعوه ولا شك من ثمن لما أنتجوه فى كل منا من خير خير فائق الطبيعة » (٣) .

---

(٣) الأب جيرنجيه .

فإذا كانت « القديسة الصغيرة » تحدث اليوم فى القلوب تغييراً عجيباً ، إذا كان عظيما ما تصنع على الأرض من الخير ، يمكن الظن بحق أنها اشترته بنفس الثمن الذى اشترى به يسوع نفوسنا ، أى الألم والصليب .

لم يكن نضالها الجرىء مع نفسها من أقل آلامها ، إذ منعت طبيعتها الأبية الوثابة كل ترضية تطلبتها . تعودت منذ طفولتها ألا تعتذر أبداً ، ولا تتشكى فى الكرمل إذا أرادت أن تكون خادمة صغيرة لأخواتها .

بروح تواضعها هذه كانت تجتهد أن تطيع الجميع بلا تمييز . ذات مساء ، أبان مرضها ، كان مقرراً أن تجتمع الراهبات فى محبسة القلب الأقدس لينشدن نشيداً . ذهبت خادمة الله إلى المحبسة مع أن الحمى كانت قد أنهكت قواها ولكن ما وصلت حتى اضطرت إلى الجلوس ، وإذا براهبة تشير اليها أن تنهض . نهضت فى الحال و بالرغم من التعب وضيق التنفس ظلت واقفة حتى النهاية .

كانت الممرضة قد أوصتها أن تتنزه كل يوم فى الحديقة نزهة صغيرة تستغرق ربع ساعة . هذه الوصية أصبحت أمراً فى نظرها فيوما من الأيام ، بعد الظهر ، رأتها راهبة تسير بمشقة كبيرة ، فقالت لها : « هلا استرحت فلن تفيدك نزهتك فى هذه الحال ، بل أنك تتعبين نفسك ليس الا » ، فأجابت هذه البنت الطائعة : « هذا حق ولكن أتعلمين ماذا يقوينى ؟ أننى أمشى لأجل أحد المرسلين . أفكر أن هناك ، بعيداً بعيداً ، قد يكون واحد منهم أنهكه الترحال فى تأدية رسالته ، فكى أخفف تعبه أقدم تعبى لله تعالى » .

كانت تعطى التلميذات اللاتى وكل اليها أمرهن أمثلة سامية فى التجرد .

فى سنة من السنوات ، بمناسبة عيد الأم الرئيسة أرسلت أسرنا كما أرسل عمال الدير باقات زهر . وكانت تر يزا ترتب هذه الباقات فى ذوق وإذا بأخت خادمة تقول لها بلهجة المستاء : « يظهر جيداً أن هذه الباقات الكبيرة قدمتها أسرتك وها أن باقات المساكين ستعود تستتر » . فلم تجبها الكرملية القديسة الا بابتسامة عذبة وما لبثت أو وضعت فى الصف الأول باقات الفقراء بالرغم مما

ترتب على هذا التغيير من قلة التناسق .

كانت الأخت كلها إعجاباً بتلك الفضيلة الفائقة فذهبت تعترف بنقيصتها للأم الرئيسة المحترمة جاهزة بالثناء على صبر القديسة وتواضعها .

لذلك لما غادرت « الملكة الصغيرة » أرض المنفى لتذهب إلى ملكوت عروسها ، جاءت هذه الأخت عينها ممتلئة ايماناً بقوة القديسة فأدنت جبينها من قدمى خادمة الله القر يرتين تسألها العفوعن ذنبها الماضى . وفى اللحظة نفسها شعرت بأنها شفيت من فقر دم فى الدماغ ، كان يمنعها منذ سنوات عديدة من القراءة والصلاة العقلية .

لم تكن تتجنب المذلات ، كلا ، بل كانت تحرص على طلبها . من ذلك أنها قدمت نفسها لتساعد راهبة فى القيام بإحدى الوظائف وكان يعرف عنها أنه يصعب ارضاؤها . فقبلت الراهبة عرضها الكريم . ذات يوم نابها من هذه الراهبة لوم كثير ، سألتها على الأثر احدى المبتدئات لماذا تبدو سعيدة تلك السعادة وما كان أعظم دهشتها إذ سمعت هذا الرد : « ذلك أن أختى .. قالت لى منذ هنيهة أشياء يسوء سماعها . لعمرى ، كم شرحت صدرى ! أود الآن لو أقابلها ليمكننى أن أبتسم لها » . وفى اللحظة نفسها قرعت الأخت الباب فرأت المبتدئة بإعجاب ، كيف يغفر القديسون .

قالت القديسة تر يزا : « كنت أحلق فوق كل شىء حتى أن المذلات كانت تقو ينى » .

إلى هذه الفضائل كلها كانت تقرن شجاعة عجيبة . فمنذ دخولها الدير أى فى الخامسة عشرة من عمرها ، تركت تمارس جميع ما يحتمه قانوننا الصارم من أفعال التقوى ، ما عدا الصوم . وكانت رفيقاتها التلميذات يلحظن أحياناً لونها الشاحب فيحاولن أن ينلن اعفاءها من صلاة المساء أو من التبكير فى مغادرة الفراش . على أن الأم الرئيسة(٤) لم تكن لتجبهن إلى طلبهن فتقول : « نفس هذه طبيعتها يجب ألا تعامل كطفلة ، فإن ضروب الإعفاء ما جعلت لها ، فاتركنها . أن الله يعضدها .

(٤) الأم المحترمة مارى دى جونزاج وقد توفيت فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٢ عن ٧١ عاماً .

ومع هذا فإن كانت مريضة فعليها أن تجيء فتصرخ بذلك هى نفسها » .

ولكن مبدأ القديسة تريزا كان أنه « يلزم المرء قبل الشكاية أن يواصل جهده حتى يستنفد قواه » . فكم من مرة ذهبت إلى صلاة السحر وهى مصابة بدوار أو بصداع شديد فتقول فى نفسها : « لا أزال أستطيع المشى ، فعلى اذن أن أقوم بواجبى » . وبفضل هذا النشاط كانت تأتى ببساطة أعمالا أشبه بأعمال البطولة .

كان الطعام الزهيد المألوف فى الكرمل لا يوافق معدتها الضعيفة ، وبعضه يسبب لها المرض . ولكنها أحسنت اخفاء ذلك إلى حد أنه لم يفطن أحد إلى الأمر . قالت إحدى جاراتها على المائدة أنها حاولت عبثاً أن تحرز أى طعام تحبه القديسة . رأت راهبات المطبخ قلة تشددها هذه ، فكن يقدمن لها دائماً فضلات الأكل ولم تتكشف إماتتها الا أثناء مرضها الأخير إذا أمرت أن تصرح بما يؤذيها .

كانت تقول إذن : « حين يريد يسوع أن نتألم يلزمنا لا محالة أن ننهج هذا السبيل . فلما كانت اختى مارى للقلب الأقدس (أختها مارى) رئيسة مؤقتة بذلت جهدها لتداوينى بحنان الأم ، وكان يظن الغير أنى أتنعم بحظ وافر من ضروب المدالاة ، ولكن كم من أعمال التقشف مارست بسببها لأنها كانت تقدم لى ما يوافق ذوقها وهو ينافى ذوقى تماماً ! » .

كانت روح التضحية عندها تشمل كل شىء . فتبادر أن تتناول جميع ما تلقى من أشق الأعمال وأقلها رونقاً باعتباره نصيبها الذى يجب أن يؤول لها جميع ما كان الله يطلبه منها . كانت تعطيه اياه دون معاودة نفسها .

قالت : « أثناء تلمذتى كان يصعب على جداً أن أقوم ببعض الأعمال الخارجية من أعمال التقشف التى تمارسها أديرتنا ، ولكنى لم أطاوع أبداً نفورى منها . كان يبدو لى أن الصليب المعلق فى ساحة الدير ينظر الى بعينين متوسلتين

فيستعطينى هذه التضحيات » .

كان تيقظها بحيث لا تهمل أى وصية من وصايا الأم الرئيسة ولا أى بند من تلك القوانين الصغيرة التى تكسب حياة الترهب ما تكسبها من الفضل . لاحظت أخت قديمة أمانتها العجيبة فى هذا الصدد فاعتبرتها قديسة من ذلك الحين .

لم تمارس الا قليلا من التكفيرات الجسدية غير التى يحتمها القانون . فإن الروح القدس أفهمها أن تقشف الروح والقلب لأدعى إلى تقديسها بما لا يحتمل المفاضلة . على أنه حدث أن مرضت لاطالتها حمل صليب صغير من الحديد انغرست أسنته فى لحمها ، فقالت فيما بعد : « لم يكن ذلك ليصيبنى و ينشأ عن مثل هذا الحادث البسيط لولم يرد الله افهامى أن تقشفات القديسين لم تجعل لى ولا للنفوس الصغيرة التى ستسير فيما أسلك من طر يق الطفولة » .

كان حرمانها من التدفؤ على النار فى الشتاء أقسى آلامها الجسدية فى الكرمل . ومن السهل أن يعرف المرء ما عانت هذه الطفلة النحيفة البنية من فصول الشتاء الطو يل فى « نورماندیا » وما يقرنه من رطوبة الجو فى « ليز يو» .

لما يشتد البرد كانت خادمة الله تذهب فى المساء عقب الصلاة إلى قاعة الرهبانية بعد أن ترتعد فرائصها من البرد طول النهار . على أنه كان يلزمها للعودة إلى غرفتها أن تسير خمسين متراً فى الهواء الطلق تحت الأروقة ، فكان ذلك مع ما يبقى عليها من اجتياز السلم والدهليز الطو يل يجهز على تجر يدها من الحرارة القليلة التى منحتها بفائق التقتير .

لذلك كانت حين تضطجع على فراشها المصنوع من القش ، فتتغطى بغطائيها الحقير ين لا تحظى الا برقاد يتخلله أرق متواتر ، وكان يتفق لها أحياناً أن تقضى الليل كله ترجف برداً دون أن تستطيع النوم . ولو أنها باحت منذ السنوات الأولى لرئيسة المبتدئات لنالت على الفور ما يلطف حالها . ولكنها أرادت أن تقبل هذا التقشف الصارم دون شكوى ولم تكشف أمره الا على سر ير الموت بهذه الكلمات البليغة : « البرد أشد ما عانيت من آلام الجسد أثناء حياتى فى الرهبانية . لقد

عانيته حتى أنى لأموت منه » .

هذا التقشف الصارم قد أعتنقته بسرور وعن سعة نفس . على أنها مع ذلك عرفت أن تفهم من حولها ، بروح الطاعة والاحترام ، أن هذا الإسراف يسمح به الله ولكن لا يريده ، وأنه يحسن فى المستقبل تخفيفه . كانت تعتقد أن عدم المبالاة فى تطبيق القانون بما هنالك من الفرق فى مناطق البلدان والاختلاف فى الأمزجة ، لضرب من المجازفة وخطأ ضد الحكمة .

عرفنا النداء الذى تلقته القديسة تريزا ليسوع الطفل يوم الجمعة العظيمة ٣ أبريل سنة ١٨٩٦ ، ذلك اليوم الذى سمعت فيه على حد قولها : « ما يشبه جلبة بعيدة تنبئها بقدوم العروس » . قدر لها أن تقضى شهوراً طويلة فادحة الألم قبل أن تأزف ساعة الخلاص المباركة .

صباح يوم الجمعة العظيمة هذه ، عرفت أن تلقى فى ذهن من حواليها ، أن بصقها الدم ليس بذى بال حتى أن الأم الرئيسة المبجلة عميت عن حالها ، فسمحت لها أن تمارس كل أعمال التقشف التى يحتمها القانون . فى ذلك اليوم وبعد الظهر لمحتها مبتدئة تنظف النوافذ . كان وجه القديسة أغبر وهى بالرغم من نشاطها تبدو منهوكة القوى . رأتها المبتدئة على هذا الحد من الضنى وكانت تحبها ، فطفقت تبكى ملتمسة منها الإذن أن تطلب لها ما يخفف تعبها ولكن رئيستها الحديثة السن نهتها عن ذلك صراحة قائلة أنه يمكنها بلا شك أن تتحمل تعباً هيناً فى ذلك اليوم الذى تعذب فيه يسوع ما تعذب من أجلها . ولم تعرف أخواتها هذا العارض الأول الا فى مايو سنة ١٨٩٧ . ولما عاتبتها الأم أغنييس ليسوع بلطف لأنها أخفت عنها الأمر صاحت القديسة : « يا أمى الصغيرة ، اشكرى الله الرحيم على ذلك لأنك لو علمت حالى ورأيتنى حينئذ ، لا أنال من العناية الا ذلك القدر اليسير ، لكنت قد تألمت ايما ألم » .

وما لبثت أن تولاها سعال ملازم أقلق بال الأم المحترمة ، فألزمت خادمة الله بأن تتبع فى معيشتها نظاماً مقوياً فزال السعال بضعة أشهر .

فقالت حينئذ أختنا الصغيرة العزيزة : « حقاً أن المرض يقودنى إلى الموت ببطء كبير. فلا أعتمد الا على الحب » .

طلبها كرمل « هانوى » بالحاح وكانت تود كل الود أن تلبى دعوته فبدأت تساعيه (٥) للمطوب « تيوفان فينار » كى تنال الشفاء التام . ولكن واحسرتاه ! كانت هذه التساعية فاتحة حالة من أخطر الحالات .

بعد أن مرت فى العالم « تصنع الخير مثل يسوع » ، بعد أن كانت منسية منكورة مثله ، كان على تريزا أن تتبع أثره بصعودها الأليم جبل الجلجلة .

تعودت الأم رئيستها أن تراها تتألم دائماً ومع ذلك تبقى دائماً نشيطة ، فسمحت لها أن تشترك فيما يفرض على الرهبانية من أعمال التقوى وكان بعضها يتعبها غاية التعب .

كان على الفتاة المسكينة حين يأزف المساء أن تصعد وحدها السلم المؤدى إلى قاعة النوم ، فتقف عند كل درجة لتستعيد نفسها ، فتعود إلى حجرتها بمشقة وتصل اليها منهوكة القوة إلى حد أنها ــ كما صرحت بذلك فيما بعد ــ كان يلزمها ساعة لخلع ملابسها . و بعد كل هذه الأتعاب تقضى زمن الراحة على فراشها القاسى .

لذلك كانت تصرف ليلها فى حالة سيئة جداً . سئلت مرة هل تحتاج إلى بعض المعونة فى هذه الساعات الأليمة فأجابت : « لعمرى ، كلا . بل بالضد فإنى أعد نفسى سعيدة جداً إذ أجد نفسى فى غرفة بعيدة بحيث لا تسمعنى اخواتى . يسرنى أن أتعذب فى الوحدة . فمن اللحظة التى يرق فيها الغير لحالى و يغدق على أنواع الملاطفة ، أعود لا أتنعم » .

كثيراً ما كانت تكوى فى جنبها بآلة حادة تحمى على النار. وذات يوم تألمت من ذلك بنوع خاص وكانت تستريح أثناء النزهة ، فسمعت الكلمات الآتية تلفظ فى المطبخ : « ان اختى تريزا ليسوع الطفل ستموت عن قريب وأنى لأساءل

(٥) فى نوفمبر سنة ١٨٩٦ .

نفسى حقاً ما عسى أمنا أن تقول عنها بعد وفاتها . ستحار جد الحيرة لأن هذه الأخت الصغيرة مع ظرفها لم تأت فى الحق شيئاً يستحق الذكر» .

وكانت الممرضة هى أيضاً قد سمعت كل شيء فقالت للقديسة : « لو كنت قد اعتمدت على رأى الخلائق لخابت اليوم أمالك كل الخيبة » . فأجابت : « رأى الخلائق ! . لعمرى ، لقد أنعم الله على لحسن حظى بألا أكترث له على الإطلاق . اليك هذه القصة الصغيرة التى أتمت تعليمى ماذا يساوى هذا الرأى :

« بعد بضعة أيام من اتخاذى الثوب ، كنت ذاهبة إلى أمنا . وكانت عندها أخت من الأخوات الخادمات ، فقالت إذ رأتنى : « أماه ، لقد جاءتك مبتدئة تفخرين بها . ما أدل محياها على الصحة ! . ظنى أنها ستتبع نظامنا زمنا طويلا » . سررت من هذه المجاملة واذا بأخت أخرى من المتشحات الحجاب الأبيض تصل بدورها فتقول لى : « يا أختى الصغيرة تريزا ليسوع الطفل ، ما أظهر العياء عليك ! . أن محياك ليبعث الارتجاف خوفاً عليك ، إذا استمرت حالك هكذا فلن تتبعى نظامنا زمناً طويلا ! » ومع ذلك لم يكن عمرى الا ستة عشر سنة ، ولكن هذا الحادث الصغير أكسبنى من الخبرة ما عدت معه من ذلك اليوم لا أعتد برأى الخلائق وما أشد تقلبه ! » قيل لها : « يزعم البعض أنك ما تألمت كثيراً قط » . فابتسمت وقالت مشيرة إلى كوبه تحوى سائلا أحمر زاهيا : « أترين هذا الكأس الصغير؟ فقد يظنه المرء مليئاً بشراب لذيذ وفى الحقيقة لا أتناول شيء أشد منه مرارة . لعمرى ، هذه صورة حياتى . فقد بدت دائماً فى نظر الغير مزدانة بأبهج الألوان . لقد خالنى أحتسى شراباً لذيذاً وكان هذا الشراب المرارة بعينها . أقول المرارة ومع ذلك لم تكن حياتى مريرة ، لأنى عرفت كيف أحول كل مرارة فرحاً وعذوبة لى » .

ــ تتعذبين الآن كثيراً ، أليس الأمر كذلك ؟

ــ نعم ، ولكن يا شد ما رغبت هذا العذاب !

كانت المبتدئات يقلن لها :

« ما أشد حزننا إذ نراك تتعذبين هذا العذاب ونفكر أنك قد تتعذبين فى المستقبل حتى أكثر منه » .

ـــ « آه ، لا تحزن لأجلى ، لقد انتهى بى الأمر إلى حد أنى ما عدت أستطيع العذاب لأن كل عذاب يحلو لى . على أنكن تخطئن جد الخطأ إذ تفكرن فى الألم الذى قد يحدث فى المستقبل . فانكن بذلك تتدخلن فى إحداث الحوادث . نحن اللواتى نعدو فى طريق الحب ، علينا الا نقلق لشىء . اذا لم أتعذب من دقيقة إلى أخرى استحال على أن ألزم الصبر . ولكنى لا أرى الا الحاضر وأنسى الماضى وأحذر كل الحذر أن أتأمل فى المستقبل . فإذا ونت عزيمة المرء ، اذا تولاه القنوط أحياناً ، فلأنه يفكر فى الماضى وفى المستقبل . ألا تضرعن لأجلى ؟ مع ذلك فأنى حين أتوسل إلى السماء أن تعيننى ، كثيراً ما أكون مخذولة أشد الخذل » .

ـــ ماذا تفعلين لكيلا تهن عزيمتك فى هذا الخذل ؟

ـــ « أولى وجهى نحو الله الرحيم ونحو القديسين كلهم وأشكرهم بالرغم من ذلك . أظنهم يرغبون أو يروا إلى أى حد يبلغ بى الرجاء . ولكن ما دخلت قلبى عبثاً كلمة أيوب هذه : « حتى لو قتلنى الله ، فإنى لن أبرح أعلق عليه رجائى » (٦) . أعترف بأنى لم أستقر عند هذا الحد من الاستسلام الا بعد زمن طويل . أما الآن فقد أدركته : « لقد أخذنى الله فوضعنى هنا » .

وكانت تقول أيضاً : « قلبى ملىء بمشيئة يسوع . لذلك فإذا سكب فيه شىء فلا يلج حتى القرار ، بل يكون لا شيئاً ، ينزلق بسهولة كالزيت على سطح ماء صاف . لعمرى ، لو لم تكن نفسى مليئة من قبل ، لو لزمها أن تملأ بما يتعاقب فى مزيد السرعة من عواطف الفرح والحزن لغمرتنى لجة من الآلام ما أشد مرارتها ولكن هذا التحول من حالة إلى حالة يلمس نفسى لمسا خفيفاً فحسب . لذلك أقيم فى سلام عميق لا شىء يستطيع تعكيره » .

---

(٦) أيوب ، ١٣ : ١٥ .

لبثت نفسها مع ذلك محاطة بظلام كثيف ، إذ كانت تجاربها ضد الإيمان ، تجاربها المقهورة دائما والعائدة إلى الحياة دائماً ، لا تفتأ تحضرها فتحرمها كل عاطفة من عواطف الهناء حين تفكر فى دنو أجلها .

كانت تقول : « لو لم يكن لى تلك التجربة التى يستحيل فهمها ، لكنت فيما أظن أموت فرحاً حين أفكر أنى سأغادر الأرض عما قريب » .

أراد المعلم الإلهى بهذه التجربة أن يتم تطهيرها و يسمح لها لا أن تسير بخطى سريعة فحسب ، بل أن تطير فى « طريقها الصغيرة ، طريق الثقة والاستسلام » . وأن كلماتها لتثبت ذلك فى كل آن . فهى تقول : « لا أرغب الموت أكثر مما أرغب الحياة . لو عرض على الرب أن أختار لما اخترت شيئاً . لا أريد الا ما يريد . انما أحب ما يفعل » !

وتقول أيضا :

« لا أخشى على الإطلاق النضال الأخير ولا آلام المرض مهما عظمت ، فإن الله عضدنى دائماً . لقد عاوننى وقادنى بيدى من أول طفولتى . أنى أعتمد عليه . قد بلغ الألم أقصى حد ولكنى على يقين أنه لن يخذلنى أبداً » .

كان من شأن هذه الثقة أن تثير حنق الشيطان ، وهو فى ساعة الإنسان الأخيرة يستخدم كل حيله الجهنمية محاولا أن يبعث القنوط فى النفوس .

صرحت يوماً للأم أغنيس ليسوع بما يأتى : « تولانى أمس مساء هلع حقيق فتكاثفت ظلمتى . لا أعلم أى صوت ملعون كان يصيح بى : هل أنت على يقين أن الله يحبك ؟ هل جاءك يقول ذلك ؟ ليس رأى بعض الخلائق ما يبررك أمامه .

« كان قد مضى على زمن طويل وأنا أتألم من هذه الخواطر واذا هم يأتونى بكتابك الملهم حقاً من العناية الربانية . ذكرتنى ، يا أمى ، جميع ما ليسوع من الامتياز على نفسى ، وكأنك أنبئت بهلعى ، فقلت لى أن الله يعزنى معزة كبيرة وأنى لا ألبث أن أنال من يده الأكليل الأبدى . فسرعان ، ما عاد الاطمئنان

والفرح إلى قلبى ! على أنى قلت مع ذلك فى نفسى : « لا يحمل أميمتى أن تكتب هذه الكلمات الا مودتها لى » . فألهمت على الفور أن أتناول الانجيل المقدس ، ففتحته بهدى المصادفة فوقع طرفى على هذه النبذة ولم أكن لاحظتها من قبل : « أن الذى أرسله الله يتكلم بكلام الله ، لأن الله لا يعطى الروح بمقدار » (٧) .

فرقدت بعدئذ وكلنى عزاء . « أنت ، يا أم ، من أرسلك الله لأجلى و يلزمنى أن أصدقك لأنك تقولين نفس ما يقوله الله » .

وفى شهر أغسطس بقيت عدة أيام كأنها فى ذهول تناشدنا أن نطلب إلى الغير أن يصلى لأجلها . ما رأيتها كذلك أبداً من قبل . كنا نسمعها تردد قولها فى حالة هلعها هذه الفائقة الوصف : « آه كم يلزم الصلاة لأجل المحتضر ين ! آه ، لو علم الإنسان ! » .

وفى ليلة توسلت إلى الممرضة أن تلقى على سر يرها ماء مباركاً قائلة : « أن الشيطان حولى ، لا أراه ولكنى أشعر به . أنه يعذبنى . كأنه يمسكنى بيد من حديد ليمنعنى أن أتعاطى ما يخفف ألمى أقل تخفيف . ير يد عذابى لكى أيأس .. وأنا لا أستطيع الصلاة . لا أستطيع الا أن أنظر إلى القديسة العذراء فأقول : « يسوع ، ما ألزم هذه الصلاة الواردة فى فرضنا : نجنا من أشباح الظلام » .

« أشعر بشىء غر يب . لا أتألم لأجلى ، بل لأجل نفس أخرى .. والشيطان لا ير يد ذلك » .

أوقدت الممرضة شمعة مباركة ، ففر الشر ير على غير عودة ، لكن خادمة الله بقيت حتى النهاية فى هلع أليم .

كانت تنظر يوماً إلى السماء فخطر للبعض أن يقول لها : « ستسكنين عن قر يب ما وراء السماء الزرقاء . فبأى حب تتأملينها » .

فاكتفت بالابتسام وقالت بعدئذ للأم أغنيس ليسوع :

---

(٧) يوحنا ، ٣ : ٣٤ .

« أمى ! . أن أخواتى لا يعرفن ما ألمى . كنت إذ أتامل القبة الزرقاء ، لا أفكر الا فى أن أجد هذه السماء المادية جميلة ، أما الأخرى فأنها تزداد اقفالا لى ! .. تألمت بادىء ذى بدء من الخاطرة التى أعرب لى عنها . على أن صوتا داخليا أهاب لى : نعم ، كنت تنظرين إلى السماء عن حب ما دامت نفسك مستسلمة إلى الحب كل الاستسلام . فجميع أعمالك حتى أقلها خطورة مطبوعة بهذا الطابع الالهى » . ففى الحال تعزيت » .

وبالرغم من الظلمات التى تحيط بها تماماً ، كان السجان الالهى من وقت إلى آخر يفتح قليلا باب سجنها المظلم فتتولاها حينئذ فورة من الاستسلام والثقة والحب .

كانت تتنزه يوما فى الحديقة تسندها إحدى أخواتها . فوقفت أمام مشهد ظريف ، مشهد دجاجة صغيرة بيضاء اللون تأوى تحت جناحيها أسرتها اللطيفة . وما لبثت أن أغرورقت عيناها بالدمع . فالتفتت إلى الأخت العزيزة التى تقودها وقالت لها : « لا يسعنى المزيد من الإقامة هنا فلنعد عاجلا » .

وفى حجرتها بكت طويلا دون أن يمكنها لفظ كلمة واحدة وفى النهاية نظرت إلى اختها بهيئة ملكية صرفة وأردفت تقول :

« كنت أفكر فى الرب وفى المقارنة اللطيفة التى عمد اليها ليجعلنا نؤمن بحنانه . هذا ما صنع لى طول حياتى . لقد أخفانى كلنى تحت جناحيه . لا يمكننى الافصاح عما خالج قلبى . لعمرى ، أن الله يحسن عملا إذ يحتجب عن ناظرى و يظهر لى مفعول رحمته النادرة وكأنه يظهرها لى من « بين بعض الحواجز » (٨) . أشعر بأنى لا أستطيع أن أتحمل عذوبتها » .

فى ٥ يونيو سنة ١٨٩٧ بدأنا تساعيه حارة لسيدة النصر ، إذ لم يكن فى وسعنا أن نصبر راضين على فقد هذا الكنز ، كنز الفضائل ، كنا نأمل أن السيدة العذراء الكلية القداسة تنهض مرة أخرى بأعجوبة زهيرة حبها . لكنها أجابتنا بنفس ما

(٨) نشيد ، ٢ : ٩ .

أجابنا به القديس الشهيد تيوفان ، فاضطررنا أن نرضى بالتأمل المرير فى فراق قريب .

وفى أوائل يوليو أنذرت حالها بخطر كبير ، فأنزلت إلى المستشفى فى نهاية الأمر . رأت الأم أغنيسيس ليسوع حجرتها خالية وكانت تعلم أنها لن تعود تصعد اليها أبدا ، فقالت لها : « كم يكون حزنى عظيما حين لن تعودى معنا ! » .

فأجابت : « لكى تتعزى ، يا أميمتى ، ستفكرين أنى سعيدة جد السعادة فى العلا وأن نصيباً وافراً من سعادتى أصبته فى هذه الحجرة الصغيرة » . ثم أردفت بقولها ، وهى ترفع إلى السماء طرفها الجميل ذات النظرة العميقة : « ذلك لأنى تألمت فيها كثيراً . فلو مت فيها ، لكان لى هذا من دواعى السعادة » .

كان أول ما اتجه اليه نظر تريزا وهى داخلة المستشفى تمثال القديسة العذراء تمثالها الأعجوبى ، فكنا قد وضعناه هناك . عبثاً يحاول المرء أن يعرب عن معنى هذه النظرة ، قالت لها أختها مارى ، تلك التى شاهدت انخطاف تريزا فى طفولتها وقامت لها أيضا مقام الأم : « ماذا ترين » ؟ فأجابت « ما بدت لى أبدا على هذا القدر من الجمال ! إنما تمثال ما أرى اليوم ! وتعلمين جد العلم أننى فيما مضى لم أر تمثالا » .

ومن ذلك الحين كثيراً ما تعزت خادمة الله التعزية نفسها . ففى ذات مساء صاحت : « كم أحب العذراء مريم ! . لو كنت كاهنا فكم كنت أحسنت الكلام عنها ! أنهم يظهرونها أبعد من أن ندانيها ، فيجب أن يظهروها قابلة التشبة بها : « هى أم أكثر منها ملكة » . سمعت البعض يقول أن بهاءها يخسف بهاء القديسين أجمعهم . كما تخسف الشمس لدى طلوعها كل النجوم . ربى ، ما أغرب هذا القول ! أم تخسف مجد أبنائها . ظنى أنها عكس ذلك تماماً . أعتقد أنها تزيد كثيراً بهاء المختارين . العذراء مريم ! كم يلوح لى أن حياتها كانت بسيطة » .

واصلت حديثها فوصفت معيشة العائلة المقدسة داخل البيت وصفاً رائقاً شيقاً إلى حد أننا تولانا العجب .

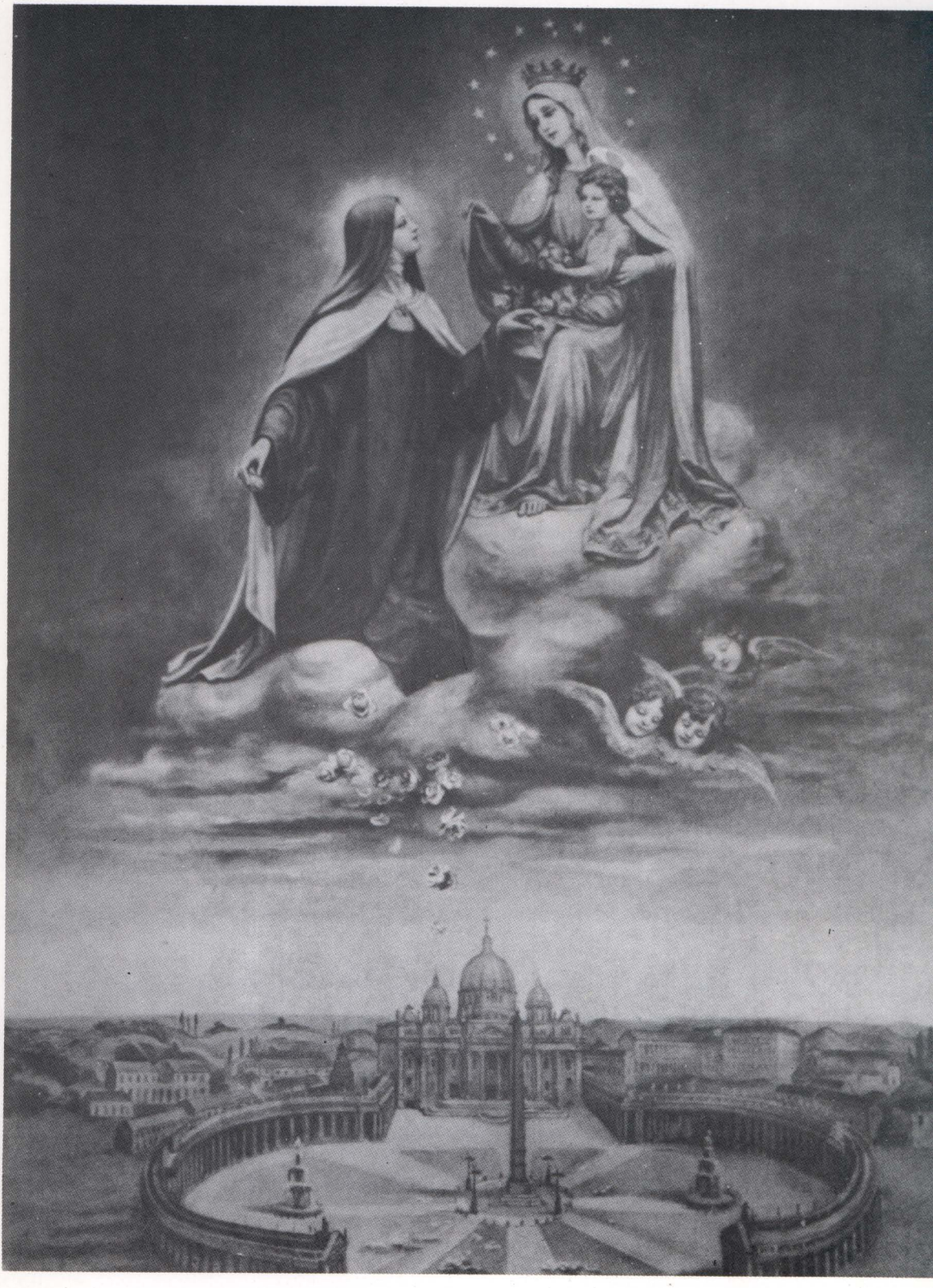

« ان الله ما كان يعطينى هذه الرغبة فى أن أتحرى الخير على الأرض بعد موتى ، لو ما كان يريد أن يحققها » . .

« القديسة تريزا »

كانت تنتظرها تجربة بالغة الألم . من ١٩ أغسطس إلى ٣٠ سبتمبر ، يوم تناولها القربان المقدس إلى الأبد ، لم يعد فى وسعها أن تتناوله فى هذه الدنيا إذ كانت مهددة دائماً بأن تقيء الدم . ومع ذلك ، من تاق خبز الملائكة أكثر من هذا الساروفيم القاطن على الأرض ؟ كم مرة فى هذا العام الأخير ، حتى فى قلب الشتاء وبعض ليالى قضتها فى عذاب مبرح . رؤيت تطير منذ الفجر إلى المائدة المقدسة . فما ظنت نفسها أبدا مشترية بثمن فادح سعادة الاتحاد مع إلهها .

على أنه كثيراً ما زارها السيد الرب على فراشها الأليم قبل حرمانها من هذا القوت السماوى . كان تناولها القربان المقدس فى ١٦ يوليو عيد سيدة الكرمل مؤثراً بنوع خاص . كانت قد نظمت فى الليلة السابقة القطعة الآتية المعدة للترتيل فى اليوم التالى :

« أنت يا من تعلم صغرى البالغ أقصى حده ،
لا تخش أن تنخفض حتى إلى .. !
تعالى إلى قلبى ، ياسرا أحبه .
تعال إلى قلبى ، فانه يتوق اليك .
أريد ، يارب ، أن تتركنى رحمتك
أموت حباً بعد هذه النعمة .
يسوع ! الا أسمع صوت حنانى ،
تعال حل بقلبى ! »

وفى الصباح ، لدى مرور القربان المقدس ، كان بلاط أروقتنا يتوارى تحت أزهار الحقول والورود المنشورة . كاهن حديث السن أقام فى ذلك اليوم قداسة الأول فى كنيستنا . حمل إلى مريضتنا الوديعة الزاد الأخير .

وبناء على رغبتها ، غنت الأخت مارى للافخارستيا هذه الأبيات الآتية وكان لصوتها الرخيم نبرات سماوية :

من مات حبا ، فقد نعم باستشهاد فائق العذوبة ،
وهو ما أود أن أقاسيه .
يا ملائكة ، شدى مزهرك ،
إذ أشعر منفاى وشيك الانتهاء ...
يا يسوع الاله ، حقق حلمى أن أموت حبا ! .. »

وبعد بضعة أيام كانت ضحية يسوع الصغيرة فى حالة أسوأ وفى ٣٠ يوليو اقتبلت المسحة الأخيرة فقالت ووجهها يتدفق بشراً :

« تفتح قليلا باب سجنى المظلم . أقيم فى فرح ولا سيما بعد أن أكد لى أبونا الرئيس أن نفسى شبيهة بنفس طفل بعد العماد » .

كانت بلا ريب تظن أنها تطير سريعاً إلى السماء ولا تعلم أن شهرين من الألم لا يزالان يحولان ما بينها وبين النجاة .

قالت يوما للأم الرئيسة :

« أمى ، أتوسل اليك أن تسمحى لى بأن أموت ... دعينى أقدم حياتى للنية الفلانية » .

ولما رفض السماح لها بذلك أجابت :

لعمرى ، أعلم أن الاله الرحيم يبغى للان عنقوداً صغيرا من العنب ، لا يريد أحد أن يقدمه له . يبغيه إلى حد أنه سيضطر أن يأتى فيختلسه . أنا لا أطلب شيئاً ، إذ لو فعلت لحدث عن طريق الاستسلام . إنما أرجو من القديسة العذراء أن تذكر يسوعها بلقب « اللص » الذى اتخذه لنفسه فى الإنجيل المقدس ، وذلك حتى لا ينسى أن يأتى فيختلسنى » .

جىء لها يوما بحزمة من سنابل القمح ، فأخذت سنبلة تنوء بحمل حباتها ، حتى أنها كانت تميل على ساقها . فتأملتها طويلا ، ثم قالت للأم الرئيسة :

« يا أمى ، هذه السنبلة صورة نفسى . أن الله تعالى حملنى نعماً لى ولكثيرين

غيرى . لعمرى ، أريد أن أميل دائماً تحت وفرة النعم السماوى ، معترفة أن كل شيء آت من العلا » .

لم تكن على خطأ . نعم كانت نفسها محملة نعماً .. وما كان أسهل على المرء أن يتبين الروح القدس يطرى نفسه بهذا الفم الطاهر .

ألم يوح ذلك الروح ، روح الحقيقة ، إلى تريزا الكبيرة ، تريزا دافيلا أن تكتب من قبل :

« على النفوس التى وصلت إلى الاتحاد مع الله أن تقدر نفسها عالى التقدير فى اعتداد بالذات متواضع مقدس . عليها أن تجعل دائماً نصب العين ذكرى ما نالت من العوارف ، ولتحذر جد الحذر من الظن أنها تأتى عملا من أعمال التواضع ، إذ لم تعترف بنعم الله . أليس بيننا أن ذكرى العوارف على الدوام يذكى الب لمسديها ؟ كيف يستطيع من يجهل الثروة التى فى حوزته أن يعلنها و يوزعها بسخاء ؟ » .

تلك المرة لم تكن الوحيدة التى لفظت فيها تريزا « ليزيو » الصغيرة بكلمات ملهمة حقاً . فى شهر ابريل سنة ١٨٩٥ اذ كانت فى صحة جيدة جدا أسرت ما يأتى إلى راهبة قديمة جديرة بالثقة : « سأموت عن قريب . لا أقول أن ذلك يكون بعد بضعة أشهر ، بل بعد سنتين أو ثلاث على الأكثر . أنى لأحس هذا مما يجرى بنفسى » .

كانت المبتدئات يظهرن لها دهشتهن إذ يرينها تحرز أدخل أفكارهن . فقالت لهن : « اليكن سرى ، أنى لا أبدى لكن ملاحظات دون التضرع إلى القديسة العذراء . التمس منها ما توحى إلى ما من شأنه أن يحقق لكن أعظم الخير . وأنا نفسى أرانى مندهشة من الأشياء التى أعلمكن اياها . أحس ببساطة وأنها أقولها ، لكن أننى لست على خطأ وأن يسوع يتكلم بفمى » .

وفى خلال مرضها كانت إحدى أخواتها قد اجتازت منذ هنيهة أوانا من قلق أليم يكاد يكون يأساً لفكرة فراق قريب لا مفر منه ، فدخلت على الأثر إلى

المستشفى دون أن تترك شيئاً من حزنها يظهر للعيان . فدهشت أيما دهشة إذ سمعت مرضتنا القديسة تقول لها فى لهجة الجد والحزن : « لا تبكى كمن لا رجاء له » .

جاءت تعودها إحدى أمهاتنا فأدت لها خدمة صغيرة وقالت فى نفسها : « كم أكون سعيدة إذا قال لى هذا الملاك : « أنى أرد لك ذلك فى السماء » . وفى اللحظة عينها التفتت اليها الطوباوية تريزا قائلة : « يا أماه ، أنى أرد لك ذلك فى السماء » .

وأغرب من هذا أنها كانت تعلم فيما يظهر بالرسالة التى من أجلها بعث الله بها إلى الأرض . فكأن حجاب المستقبل رفع أمام نظرها ، فكشفت لنا أسراره بنبوءات هى اليوم محققة . قالت :

« لم أعط الله الرحيم أبداً الا الحب فهو يرد لى حباً . بعد موتى سأمطر وابلا من الورود » .

حدثتها أخت عن نعيم السماء فقاطعتها قائلة : « ليس هذا ما يجتذبنى » .

ـ ماذا ، إذن ؟

ـ « لعمرى ، هو الحب . أن أحب وأكون محبوبة وأعود إلى الأرض لأجعل الناس يحبون الحب » .

وفى ذات مساء استقبلت الأم أغنيس ليسوع وآيات الفرح الصافى تلوح عليها بنوع خاص فقالت لها :

« أمى ، لقد انتهى إلى منذ هنيهة بعض ألحان من ايقاع بعيد ، ففكرت أنى عما قريب سأسمع نعماً لا يدانيه نغم . ولكن هذا الأمل لم يستطع أن يسعدنى الا لحظة . لا يخفق قلبى الا لرجاء واحد ، رجاء الحب الذى سأناله والحب الذى يكون فى وسعى أن أعطيه » .

أحس أن رسالتى على وشك الابتداء ، رسالتى أن أجعل الناس يحبون الله الرحيم كما أحبه وأن أعطى النفوس « سبيلى الصغير » . أريد أن أقضى سمائى

صانعة الخير على الأرض . ليس ذلك بمحال ، ما دامت الملائكة تسهر علينا وهى فى كامل رؤيتها السعيدة لله . كلا ، لن أستطيع أن أتخذ أى راحة حتى نهاية العالم . ولكن عندما يقول الملاك : قد انتهى الزمن(٩) . حينئذ سأرتاح وأستطيع أن أنعم لأن عدد المختارين يكون قد أكمل » .

ـ أى سبيل إذن تريدين أن تعلميه للنفوس ؟

ـ « يا أمى ، هو سبيل الطفولة الروحية . هو طريق الثقة وتمام الاستسلام أريد أن أبين لها الوسائل الصغيرة التى نلت بها كل النجاح . أن أقول لها أنه ليس للمرء أن يصنع على الأرض الا شيئاً واحداً هو أن نلقى إلى يسوع أزهار التضحيات الصغيرة وأن نجتذبه بأنواع المدالاة . بتلك الطريقة اجتذبه ولهذا سيكون لى ذاك الاستقبال الحسن » .

وقالت لمبتدئاتها : « إذا أضللتكن بسبيلى الصغير سبيل الحب ، فلا تخشين أن أتركككن تسلكنه طويلا ، فإنى لا ألبث أن أظهر لكن ، لأوصيكن أن تتخذن طريقاً أخرى . ولكن إذا لم أعد فصدقن كلامى : « لا يغالى المرء أبداً فى الثقة بالله الحنان القدير الرحيم . ينال المرء منه بقدر ما يرجو بالذات » .

وفى اليوم السابق لعيد سيدة الكرمل ، قالت لها مبتدئة : « إذا مت غدا بعد تناول القربان المقدس ، كان موتك جميلا حتى أنه ليعزينى على ما أظن عن كل ترحى » . فقالت لها الطوباوية تريزا فى لهجة الحماس : « أن أموت بعد تناولى القربان المقدس ! فى يوم عيد كبير ! كلا . لن يكون ذلك لأن النفوس الصغيرة لن تستطيع اذن أن تقتدى بهذا . سبيلى الصغير لا ينطوى الا على الأشياء العادية جداً . يجب أن تستطيع النفوس الصغيرة فعل ما أفعل » .

وكثيراً ما كان يؤتى لها بورود فتنثرها على صليبها وتداليه بكل ورقة منها . سقطت يوما على الأرض هذه الذخائر الثمينة فقالت : « أحرصن على التقاط هذه

---

(٩) رؤيا يوحنا ١٠ : ٦ .

الور يقات ، فأنها تفيد كن لجلب السرور للغير فيما بعد . فلا تفقدن واحدة منها » . لقد أفادت لا لجلب السرور للغير فحسب ، بل لأتيان العجائب .

وقالت أيضاً لأميمتها : « سأنال نعما كثيرة من السماء لمن أولانى خيراً .. أما أنت ، يا أمى ، فلن يتهيأ لها كلها حتى أن تفيدك ، على أن كثيراً منها سيفرحك » .

كانت إحدى الراهبات ترتاب فى صبرها . عادتها يوما ، فرأت على وجهها أمارات فرح سماوى أرادت أن تعرف سببه . فأجابتها تلك المر يضة الباسلة : « قد اجتهدت دائماً أن أحب الألم وأن ألاقيه لقاء حسناً » .

وقالت أيضاً ذات مرة : « حينا أتألم كثيراً ، حينا تصيبنى أمور مكدرة مقيتة ، فبدل أن أظهر فى هيئة الحزن أجيب هذه الأكدار بابتسامة . ما كنت أوفق إلى ذلك دائماً فى البدء . أما الآن فقد أصبح عادة لى . أنا سعيدة جد السعادة باكتسابها » .

سألتها الأم أغنييس ليسوع : « لماذا أنت فرحة هذا الفرح فى هذا الصباح ؟ » فقالت : « أنا فرحة لأنه انتابنى داعيان من دواعى الكدر إذ لا شىء يولينى أفراحاً صغيرة مثل أكدار صغيرة » . وقيل لها مرة أخرى : « هل أصابتك اليوم تجارب كثيرة ؟. » فقالت : نعم ولكن.. ما دمت أحبها .. أحب كل ما يعطينى الله الرؤوف » .

ــ هل ألمك فادح ؟

ــ « كلا ، ليس بفادح . هل يجوز لضحية صغيرة من ضحايا الحب أن تستفدح ما يرسله الله اليها عروسها ؟ أنه يعطينى فى كل آونة ما أستطيع احتماله لا أكثر . فإذا زاد ألمى فى الآونة التالية ، فإنه يز يد أيضاً قوتى . غير أنى لا أستطيع أن أسأله آلاما أشد ، لأنى أصغر من ذلك . والا أصبحت آلامى أنا ، فلزمنى احتمالها وحدى وأنا لم أستطع أبداً على شىء وحدى » .

هذا ما كانت تتحدث به تلك العذراء اللحكيمة الرشيدة التى سطع إلى النهاية مصباحها المملوء دائماً بز يت الفضائل .

يقول لنا الروح القدس فى سفر الأمثال : « انما يثبت المرء عقيدتها بصبره » (١٠) . ففى وسع الراهبات اللاتى سمعنها أن يؤمن بعقيدتها الآن وقد أثبتتها بصبر لا يقهر .

كان الطبيب يبدى لنا إعجابه فى كل مرة يعودها ، فيقول : « آه ، لوعلمتن ما تعانى . لم أر أحدا قط يعانى هذا القدر من الألم و يبدى هذا الفرح الفائق الطبيعة . انها لملاك » ! وأعربنا له عن حزننا لفكرة أننا سنفقد هذا الكنز فأجاب : « لن أستطيع شفاءها. هى نفس لم تخلق للأرض » .

رأى ضعفها البالغ أقصى حده ، فوصف لها شراباً مقويا . فتذكرت تريزا فى البدء لجسامة ثمنه ثم قالت لنا :

« الآن عدت لا أتكدر لتعاطى أدوية غالية ، لأنى قرأت أن القديسة جرترود كانت تفرح بذلك ، إذ تفكر أن هذا كله قد يعود بالمنفعة على من يحسنون إلينا ، ما دام السيد الرب قد قال : « كل ما تفعلونه بأحد أخوتى هؤلاء الصغار فبى تفعلونه » (١١) . وأردف بقولها :

« أنى موقنة بأن الأدوية عديمة الفائدة فى شفائى ، ولكنى اتفقت مع الله الرحيم على أن يجعل بعض المرسلين المساكين ينتفعون بها ، بعض المرسلين الذين لا وقت لهم للتداوى ولا سبيل اليه » .

تأثر الرب من تلطفات عروسه الصغيرة ، فأحاطها ايضا بمظاهر التفاته الالهى وهو لا يسمح أبدا بأن يفوته المخلوق كرما ، فتارة كانت تتلقى من أهلها باقات زهر وتارة كان عصفور من ذوات العنق الأحمر يجيئها . فيثبت بخفة على سرير ها ناظراً إليها كأنه يعرفها و باذلا لها من ضروب الملاطفة أنواعها .

فتقول حينئذ : « أماه ، أنى متأثرة عميق التأثر من تلطفات الله الرحيم نحوى . فى الخارج أن مغمورة بها .. على أنى مقيمة فى أحلك الظلمات .. أتعذب كثيراً .. نعم كثيراً .

---

(١٠) سفر الأمثال ١٩ : ١١ .

(١١) متى ، ٢٥ : ٤ .

ولكنى مع ذلك فى سلام مدهش . جميع رغائبى تحققت .. أنا مملوءة ثقة » . و بعد زمن قصير قصت هذه النادرة المؤثرة :

« ذات مساء فى ساعة الصمت العميق أتت الممرضة تضع زجاجة من الماء الساخن على قدمى وتدهن صدرى بصبغة اليود . كنت أتلظى من الحمى ، وكان يشفنى عطش عظيم ، فلم أتمالك وأنا أعانى هذه الأدو ية أن أشكو أمرى إلى السيد الرب قائلة : يسوعى ، تشهد أنى أتلظى و يؤتى إلى بمز يد من الحرارة والنار . آه ،لو كان لى بدل كل ذلك نصف قدح من الماء ، فكم كان يز يد ترويحى ! .. يسوعى ، أن ابنتك الصغيرة لعطشى ولكنها سعيدة مع ذلك أن تجد الفرصة يعوزها فيها اللازم لتزداد شبها بك وكى تنقذ بعض النفوس » .

« وما لبثت الممرضة أن غادرتنى ، فما عدت آمل أن أراها الا فى صباح الغد وإذ بها تدهشنى عظيم الدهشة بعودتها بعد بضع دقائق حاملة شراباً مرطباً قائلة : « لقد فكرت فى هذه اللحظة أنك قد تكونين عطشى ، فمن اليوم سأتعود أن أقدم لك هذا الملطف كل مساء . فنظرت اليها فى ذهول ولما صرت وحدى طفقت أبكى ، آه ، ما أرحم يسوع ! ما أرقه وأحنه ! . ما أسهل التأثير فى قلبه ! » .

كان من تلطفات قلب يسوع التى أولتها أعظم الفرح تلطفه يوم ٦ سبتمبر اليوم الذى جاءتها فيه بفعل العناية الربانية ذخيرة من « الطوباوى تيوفان فينار» وكانت قبل ذلك قد أبدت عدة مرات رغبتها فى أن تحوز شيئاً امتلكه صديقها القديس ولكنها رأت رغبتها لا تتحقق ، فلم تعد تتحدث عنها ، لهذا كان انفعالها شديداً لما سلمتها الأم الرئيسة هذا الشيء الثمين ، فقد غمرته بالقبلات ولم تشأ بعد ذلك أن يفارقها .

ولماذا كانت تعز إلى هذا الحد ذلك المرسل الملائكى ؟ لقد أفضت بالسبب إلى أخواتها الحبيبات فى محادثة مؤثرة ، فقالت :

« أن تيوفان فينار لقديس صغير ! حياته عادية تماماً . كان يحب كثيراً العذراء الطاهرة . كان يحب كثيراً أسرته » .

وأكدت هذه الكلمات الأخيرة بقولها :

« وأنا أيضا أحب أسرتى كثيرا : لا أفهم القديسين الذين لا يحبون أسرهم ! .. لقد نسخت لكن بعض فقرات من الرسالات الأخيرة التى كتبها إلى أهله ، نسختها لأتركها لكن عند الفراق تذكاراً منى . أنها تتضمن خواطرى اذ نفسى تشبه نفسه » .

وها نحن ندون فيما يلى هذه الفقرات التى يظنها المرء قد صدرت من قلم طوباو يتنا أوقلبها :

« لا أجد على الأرض شيئاً يولينى السعادة . أن قلبى لأكبر من أن يرضيه أى شىء مما يسمونه فى هذا العالم السعادة . أن فكرى ليطير إلى الأبدية . الزمن وشيك الانتهاء ! أن قلبى مطمئن كشجيرة ساكنة أو سماء صافية . لا أتحسر على حياة هذا العالم . أنا متعطشة إلى مياه الحياة الأبدية .

«عما قليل تغادر نفسى الأرض منهية زمن نفيها متمة نضالها . أنا صاعدة إلى السماء ! أنا داخلة مقام المختار ين هذا ، لأرى جمالا لم تره قط عين إنسان ، ولأسمع نغماً لم تسمعه الأذن أبداً ولأستمتع بأنواع من النعيم لم يذقها القلب بتاتاً ، ها أنى وصلت إلى الساعة التى اشتقاقتها كل واحدة منا ايما اشتياق . حقا ، حقا أن الرب ليختار الأصاغر ليخفض أكابر هذا العالم . لا أستند إلى قواى أنا ، بل إلى قوى من على الصليب فى قهر سلطان الجحيم . أنا زهرة ربيعية يجنيها صاحب البستان لمسرته ! كلنا ازهار غرست فى هذه الأرض ويجنيها الله فى حينها عاجلا قليلا أو آجلا قليلا .. أنا الزهرة الصغيرة بنت يوم أذهب الأولى ! سنلتقى يوماً فى الفردوس وحينئذ نتمتع بالسعادة الحقة » .

الأخت تر يزا ليسوع الطفل

مستعيرة كلمات الشهيد الملائكى تيوفان فينار

وفى أواخر سبتمبر نقل اليها بعض ما قيل يوماً فى فترة النزهة عن مسئولية من يتولون أمر النفوس فاتقدت لحظة ، ثم فاهت بهذه الكلمات الجميلة :

« أما الأصاغر فإنهم سيدانون فى أعظم ما يكون من الحلم (١٢) . فمن الممكن أن يظل المرء صغيراً حتى فى أخطر المهمات . أما كتب « أنه فى النهاية سيقوم الرب لينقذ جميع من على الأرض من ذوى الوداعة والتواضع (١٣) . لا يقول ليدين ، بل لينقذ » .

على أن أمواج الألم كانت تتصاعد يوما بعد يوم . صار ضعفها عظيماً إلى حد أنه بعد قليل أصبحت القدسة الصغيرة المريضة بحيث لا يمكنها أن تأتى بلا معونة أقل حركة . عاد يؤلمها ألما أن تسمع حديثاً بقربها ولو بصوت منخفض . الحمى وضيق التنفس لم يكونا ليسمحا لها بأن تلفظ كلمة واحدة دون أن تحس بأقصى التعب . ومع ذلك فى هذه الحالة ما كان الابتسام يفارق شفتيها . وإذا مرت سحابة على جبينها ، كان ذلك خشية منها أن تسبب لاخواتها مزيداً من التعب . حتى فى الليلة السابقة لليلة وفاتها ، أرادت أن تكون وحدها . على أن ممرضتها كانت تذهب اليها مراراً لتتفقد حالها بالرغم من الحاحها ألا تفعل ذلك . وفى إحدى هاته الزيارات ألفتها مضمومة اليدين رافعة طرفها إلى السماء ، فسألتها :

ــ وماذا تفعلين هكذا ؟ يجب أن تحاولى النوم .

ــ « لا أستطيع ، يا أختاه ، أنى أتعذب كثيراً . إذن أصلى » .

ــ وماذا تقولين ليسوع ؟

ــ « لا أقول له شيئاً . انما أحبه ! » .

كانت تصيح أحيانا : « آه ! ما أحن الله . نعم لابد أنه حنون جداً لاعطائى القوة التى تؤهلنى أن أحتمل كل ما أعانى » . قالت يوما لأمها الرئيسة :

« أماه ! . أريد أن أسر اليك حالة نفسى . ولكنى لا أستطيع لأنى أشد انفعالا من ذلك فى هذه اللحظة » .

---

(١٢) سفر الحكمة ، ٦ : ٧ .

(١٣) مزمور ، ٥ : ١ .

وفى المساء ناولتها الأسطر التالية مكتوبة بالرصاص بيد مرتعشة :

« ربى ! ما أحنك على ضحية حبك الصغيرة . حبك الرحيم ! حتى الآن وأنت تقرن العذاب الخارجى إلى تجارب نفسى لا يجوز لى أن أقول : « هلع الموت قد ساورنى (١٤) ولكننى أصيح فى امتنانى « نزلت فى وادى الموت ، وادى الظلمات على أنى لا أخشى سوءاً لأنك معى . يارب (١٥) .

قالت لها الأم أغنييس ليسوع :

ـ « تظن بعض الأخوات أنك تخافين الموت » .

ـ « قد يحدث ذلك فى المستقبل . على أنى لا أستند أبدا إلى خواطرى أنا . أعلم كم أنا ضعيفة . ولكنى أريد أن أتنعم بالشعور الذى يولينى الله اياه الآن . سيكون لدى دائماً متسع من الوقت ، لأعانى ضد هذا الشعور» .

« سألنى حضرة الكاهن : « هل أنت راضية أن تموتى ؟ » فأجبته : « آه ، يا أبت ، أرى أن لا حاجة إلا إلى الرضى بالعيش .. أما الموت فإنما يولينى السرور» .

« لا تحزنى ، يا أم ، إذا تألمت كثيراً ولم أبد أى دليل على الهناء فى الآونة الأخيرة . ألم يمت السيد الرب ضحية الحب ؟ انظرى ماذا كان مع ذلك نزاعه .. » .

وفى ٢٩ سبتمبر ليلة وفاتها الساعة التاسعة مساء ، سمعت فى وضوح كلتا الطوباوية والأخت جنفييف للوجه الأقدس (سيلين) هدير أجنحة فى البستان وما لبثتا أن جاءت قنبرة لا تعلمان من أين . فاستقرت على طرف النافذة وهى تسجع . و بعدئذ عادت تطير إلى العلياء .

فوقع ذلك من الأختين وقعا لطيفاً وقد تذكرتا ما جاء فى نشيد الأناشيد : « تصاعد غناء القمرية . فقومى ، يا حبيبى ، يا يمامتي ، وائتى . فإن الشتاء قد مضى » (١٦) .

---

(١٤) مزمور ١٧ : ٥ (١٥) مزمور ٢٢ : ٤ (١٦) نشيد ٢ : ١٠

وأخيراً طلع فجر اليوم الأبدى ! كان يوم الخميس ٣٠ سبتمبر . فى الصباح تحدثت تلك الضحية الوديعة عن آخر ليلة فى منفاها ونظرت إلى تمثال مريم قائلة : لعمرى ، بأى تقوى صليت اليها ! .. ولكن نزاعى نزاع صراخ محض ، لا تقترن به أى تعزية .. » .

« اعتاز هواء الأرض . متى أنال هواء السماء » ؟

وفى الساعة الثانية والنصف انتصبت على سريرها ، وهذا ما لم يكن فى وسعها أن تفعل من عدة أسابيع فصاحت :

أماه ! . الكأس مملوءة حتى طرفها ! كلا ما كنت أظن أبداً فى استطاعة المرء أن يتألم كل هذا الألم .. لا أستطيع أن أفسر ذلك لنفسى الا برغبتى البالغة أقصى الحد فى أن أخلص النفوس ... » .

ثم قالت بعد فترة من الزمن :

آه ! . كل ما كتبت عن رغبتى فى الألم صحيح حقاً ! . لا أندم على أنى قد استسلمت إلى الحب » .

ورددت هذه الكلمات الأخيرة عدة مرات .

وقالت بعد آونة :

« أمى . أعدينى إلى أن أموت ميتة صالحة » .

فشجعتها رئيستها الموقرة بالكلمات الآتية :

« بنيتى ، أنت على تمام الاستعداد لتظهرى أمام الله لأنك أدركت دائماً ما فضيلة التواضع » . حينئذ أدت لنفسها هذه الشهادة الجميلة :

« نعم ، أحس أن نفسى لم تطلب أبداً الا الحقيقة .. نعم ، لقد أدركت ما تواضع القلب » !

وفى الساعة الرابعة والنصف بدت دلائل النزع الأخيرة وحالما رأت هذه المحتضرة القديسة جماعة الراهبات داخلة شكرتها بأظرف ابتسامة . ثم شددت ضم الصليب بين يديها الواهنتين واعتكفت فى نفسها استعداداً للكفاح الأخير . كان وجهها يتصبب عرقا غزيراً وهى ترتجف .. ولكن كما أن النوتى فى وسط زوبعة

ثائرة لا تهن عزيمته وهو قيد شبر من الميناء ، كذلك هذه النفس المؤمنة كانت ترى بالقرب منها المنارة الضائية منارة الشاطىء الأبدى فتعمل المقذاف بهمة تضرب به الماء الضربات الأخيرة لتدرك الميناء .

ولما دق الجرس فى العصر مؤذنا بصلاة البشير الملائكى ، استقر منها على « نجم البحار» العذراء الطاهرة نظرة لا توصف . أما كان ذلك الأوان . أوان ترتيلها هذه القطعة ؟ :

أنت يا من أتيت تبتسمين لى فى صبح حياتى ،
ألا تعالى فابتسمى كذلك ، يا أماه ، فقد حان المساء ! »

وبعد بضع دقائق من الساعة السابعة التفتت إلى أمها الرئيسة قائلة : « أماه ، أما هو النزع ؟ ألست مدنفة على الموت ؟ »

ــ بلى ، يا بنيتى ، هو النزع ولكن قد يريد يسوع أن يطيل أمده بضع ساعات .

فقالت فى لهجة الاستسلام : « إذن هيا ... هيا ... أماه . لا أود أن أتعذب أقل مما أتعذب » .

ثم نظرت إلى صليبها فصاحت :
ــ آه .. أنى أحبه .. ربى أنى ... أحبك !!!

هذه كانت كلماتها الأخيرة وما أن لفظتها حتى رأيناها بدهشة عظيمة ترتمى فجأة ورأسها مائل إلى اليمين فى هيئة هاتيك العذارى الشهيدات اللاتى يقدمن ذواتهن إلى حد السيف من تلقاء نفوسهن ، أو بالأحرى مثل ضحية من ضحايا الحب تنتظر من النبال الالهى السهم المضطرم الذى تريد أن تموت به .

ونهضت بغتة كأن صوتاً سرياً يناديها ، ففتحت عينها وحدقت إلى ما فوق تمثال مريم قليلا بطرف يتلألأ سلاماً سماوياً وسعادة لا توصف .

واستمرت نظرتها قدر ما تستغرق من الزمن صلاة « نؤمن » وطارت نفسها

الملائكية إلى السماوات بعد أن صارت فريسة النسر الإلهى .

قبل بضعة أيام من مزايلتها العالم ، كانت خادمة الله قد قالت : « انما ميتة الحب التى أتمناها ميتة يسوع على الصليب » . فتحققت رغبتها تماماً .

الظلام والهلع صحبا احتضارها ، ولكن أما يمكننا أن نصرف اليها نبوءة القديس يوحنا للصليب . نبوءته الفائقة السمو الخاصة بالنفوس المضطرمة فى الحب الإلهى ؟ :

إنها تموت فى فورة من المشاعر بديعة وفى دعوات الحب لها ، دعوات لذيذة كأنها طير الأردف يزداد غناؤه رخامة حين يقارب الموت . هذا ما أوحى إلى داود قوله : « أن ميتة الأبرار ثمينة فى نظر الله » فإنما إذ ذاك تتدفق أنهر الحب من النفس فتروح تتلاشى فى محيط المحبة الالهية (١٧) .

وحالما حل موتها الطوباوى انطبع على جبينها فرح الآونة الأخيرة . كانت ابتسامة لا توصف تلقى على محياها ملامح الحياة . فوضعنا بيدها غصناً من النخيل ، ذلك الغصن الذى وجدناه على حالة فى التابوت بعد ثلاث عشر سنة من ذلك اليوم ، أى عند كشف نعشها لأول مرة .

وفى هذه الفترة عينها ، بدأت تقع فى الرهبانية حوادث غريبة ، واليك أمثلة منها . كان أولها الحادث المتقدم ذكره وهو أمر راهبة خادمة قبلت قدمى العذراء الملائكية ووضعت عليها جبينها فى ثقة ، فشفيت للحال من فقر دم فى الدماغ .

وتنعمت راهبة برائحة من البنفسج محسوسة جداً وذلك فى حجرتها حيث لم تكن أى زهرة . وثالثة شعرت بقبلة ناعمة رطبة أولاها إياها كائن لا يقع تحت البصر . وكذلك رأت راهبة شعاعاً فى السماء . وأخرى تاجاً ضائياً يرتفع من الأرض و يتلاشى فى أعالى القبة الزرقاء .

فى يومى السبت والأحد كان جمع غفير خاشع يتقاطر بلا انقطاع أمام حاجز

---

(١٧) القديس يوحنا للصليب فى كتابه « لهيب الحب الحى » الدول الأول .

الخورس . فيتأمل الملكة الصغيرة وهى لا تزال ظريفة فى جلال الموت وكان الجمع يتقدم إليها بمئات من المسابح والأيقونات وحتى الحلى يلمس بها جسمانها .

وفى هذا الحفل ، تنشق صبى عمره عشر سنوات شذا قوياً جدا من الزنبق ولم يكن ليفسر ذلك الشذا أى شىء لأن جميع الأزهار التى زينت النعش كانت اصطناعية .

وفى ٤ أكتوبر وهو يوم الدفن ، أحيط جسمان الطوباوية بأكليل جميل من الكهنة . كان ذلك الشرف حقاً لها . فكم صلت لأهل الكهنوت ! . وأخيراً بعد أن بورك باحتفال على هذه الحبة الثمينة ، حبة الحنطة ، ألقيت فى الحفرة بيد الكنيسة المقدسة . يدها المطبوعة بحنان الأمومة .

ومن ذلك اليوم تحققت فيها كلمة الحاصد الالهى تحققا بديعاً : « أن حبة الحنطة ان لم تقع فى الأرض وتمت ، تبقى منفردة . ولكن ان هى ماتت ، تأت بثمار كثيرة » .

فى أغلب الأحيان تبقى تلك الثمار مخفية على الأرض ولكن هذه المرة قدم الله ساعة الاذاعة الأبدية إذ يريد أن نتأمل الحصاد البديع الذى تتألق آياته فى كل ناحية على وجه البسيطة .

لذلك فلتسبح الرحمة الإلهية إلى مدى الأزمان ! هى المبدع المعبود لهذه العجائب أجمعها .

بيان أشهر تواريخ القديسة تريزا فى حياتها وبعد مماتها

٢	يناير	١٨٧٣	ميلاد القديسة
٤	يناير	١٨٧٣	عمادها
١٠	مايو	١٨٨٣	ظهور العذراء المجيدة لها
٨	مايو	١٨٨٤	مناولتها الأولى
١٤	يونيو	١٨٨٤	تثبيتها
٢٥	ديسمبر	١٨٨٦	ظهور الدعوة الرهبانية لديها
٢٠	نوفمبر	١٨٨٧	مقابلتها لقداسة البابا لاون ١٣
٩	ابريل	١٨٨٨	التحاقها بدير الكرمل
١٠	يناير	١٨٨٩	اتشاحها بالثوب الرهبانى
٨	سبتمبر	١٨٩٠	تقديم النذور الرهبانية
٢٤	سبتمبر	١٨٩٠	ارتداؤها للقناع الرهبانى
٩	يونيو	١٨٩٥	تقدمة ذاتها ضحية للحب الإلهى
٣٠	سبتمبر	١٨٩٧	وفاتها
١٤	أغسطس	١٩٢١	تلقيبها مكرمة
٢٩	ابريل	١٩٢٣	تطويبها
١٧	مايو	١٩٢٥	رفعها إلى مصاف القديسين

عيد القديسة تريزا ليسوع الطفل « الزهرة الصغيرة »

يوم ٣ أكتوبر

فهرس الكتــاب

الصفحة

مقدمة الطبعة الأولى ٥

مقدمة الطبعة الثانية ٧

مقدمة الطبعة الثالثة ٨

تمهيد ٩

الفصــل الأول ١٧

مذكرات أولى لنشيد الحب ــ تذكارات من عمر سنتين إلى أربع .

الفصــل الثانى ٣٠

موت أمها ــ بين بيت الأدغال ــ الحب الوالدى ــ اعترافها الأول ــ سهرات الشتاء ــ رؤيا نبوية .

الفصــل الثالث ٤٣

فى المدرسة ــ فراق اليم ــ مرض مدهش ــ ابتسامة ظاهرة لملكة السماء .

الفصــل الرابع ٥٥

المناولة الأولى ــ سر التثبيت ــ أنوار وظلمات ــ فراق جديد ــ نجاة لطيفة من آلامها الباطنية .

الفصــل الخامس ٧٢

نعمة عيد الميلاد ــ الغيرة على خلاص النفوس ــ الانتصار الأول ــ الألفة العذبة بين القديسة و بين اختها سيلين ــ نيلها من والدها الاذن أن تدخل الكرمل فى الخامسة عشرة من عمرها ــ رفض الرئيسة ــ رفع أمرها إلى أسقف بايو.

الفصــل السادس ٨٩

السفر إلى روما ــ مقابلة قداسة البابا لاون الثالث عشر ــ رد صاحب السيادة أسقف بايو ــ انتظار ثلاثة أشهر.

الفصـــل السابع ١٠٧
دخول تريزا الفلك المبارك ــ التجارب الأولى ــ الخطبة الإلهية ــ ثلوج ــ ألم فادح .
الفصـــل الثامن ١٢٠
العرس الإلهى ــ رياضة حافلة بالنعم ــ آخر دمعة لقديسة ــ وفاة والدها ــ كيف حقق الرب جميع رغائبها ــ ضحية من ضحايا الحب .
الفصـــل التاسع ١٣٦
« المصعد » الإلهى ــ أولى الدعوات إلى الأفراح الخالدة ــ الليلة الدامسة ــ مائدة الخطأة ــ كيف يفهم هذا الملاك الأرضى المحبة الأخوية ــ انتصار كبير ــ جندى هارب .
الفصـــل العاشر ١٥٦
بيانات جديدة عن المحبة ــ الريشة الصغيرة ــ الفتات المتساقط من مائدة الأطفال ــ السامرى المحسن ــ عشر دقائق أثمن من ألف سنة ملؤها الأفراح الأرضية ــ اخوان كاهنان ــ « اجتذبنى ... » .
الفصـــل الحادى عشر ١٨٠
ثقتها بالله ــ زيارة من السماء ــ تلقى اطمئنانها فى الحب ــ طفولة سنية ــ نداء إلى جميع « النفوس الصغيرة » .
الفصـــل الثانى عشر ١٩٣
الجلجلة ــ الارتقاء إلى السماء .
بيان أشهر تواريخ القديسة تريزا فى حياتها وبعد مماتها ٢٢٥

****
رقم الإيداع بدار الكتب ١٧١٣/ ١٩٩١
****

طبعت بمطابع دار نافع للطباعة والنشر ــ تليفون: ٩٣٨٧٩٧/٠١١٨ ٩